إنّ مع الصبر نصرا

مذكّرات **السيّد علي الخامنئي** العربية

إعداد: محمد علي آذرشب • مراجعة: محمد مهدي شريعتمدار

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف: مؤسسة الثورة الإسلامية للثقافة والأبحاث

(مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي - دام ظله -)

العنوان: **إنّ مع الصّبر نصرًا**

النشر والتوزيع: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

الإخراج الفني: استوديو ثلاثة ضرب أربعة للتصميم

الطباعة: شركة ديوق العالمية للطباعة

الطبعة الأولى، بيروت، 2019

ISBN: 978-614-427-147-6

Indeed! With Hardship Goeth Victory

جميع الحقوق محفوظة ©

Center of Civilization

for the Development of Islamic Thought

بناية ماميا، ط5 / خلف الفانتازي ورلد / بولفار الأسد

بئر حسن / بيروت

هاتف: 826233 (9611) / فاكس: 820378 (9611) / ص.ب 55/25

info@hadaraweb.com

www.hadaraweb.com

إنّ مع الصّبر نصرًا

مذكّرات **السيّد علي الخامنئي** العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين

وبعد، فصحيح أن هذه المذكرات إنما ألقيتها باللغة العربية - وهي اللغة التي أحببتها من صميم قلبي - اللغة الثانية التي ألممت بها منذ الفترة الطويلة، لم تكن لغة العربي الذي يتكلم بلغته التي تعلمها منذ نعومة أظفاره، بل كانت لغة الأعجمي الذي لا يحسن التكلم بالعربية فهو حينما يتكلم، يكون دائماً على وشك الغلط في البيان، أو الركاكة في التعبير، أو الضعف في التأليف، أو استعمال كلمة دارسة لا يستعملها الناطقون باللغة في هذا العصر، أو عدم تذكر الكلمة المحتاج إليها في بيان المراد، أو حتى عدم العلم بها -- فهو يتكلم بتلكؤ وعلى حذر من الانزلاق، لكن يمشي على طريق صعب غير معتاد عليه.

ومعلوم أن الحوار على مثل ذلك النمط يتخلف كثيراً عما يجده القارئ في هذا الكتاب، من [illegible] في التعبير، والعذوبة في البيان، والاتزان في تنسيق العبارات، واستخدام كلمات يستسيغها [illegible] كل من يقرأ هذه الصفحات..

فلابد أن يكون القارئ الكريم على علم بأن كل هذا الجمال والكمال إنما هو من فضل تصرف الأخ الأديب الفاضل الدكتور آذرشب في الترتيب والتنسيق وتحسين اللفظ وتزيين العبارات - طبقاً لما أراده من تصرف في المطلب والمعنى المراد - فله الشكر ولله الحمد أولاً وآخراً.

ثم إني أحب أن أهدي هذا الكتاب إلى الشباب العرب الذين يعيشون في [illegible] صاحب المذكرات حينما كانت تمر عليه تلك الأحداث.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى

سيد علي [illegible]

إهـــداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين.

وبعد، صحيحٌ أنّ هذه المذكّرات إنّما ألقيتُها باللّغة العربية -وهي اللّغة التي أحبّها من صميم قلبي- إلّا أنّ لهجتي التي أمليتُ بها هذه القصّة الطويلة لم تكن لهجة العربي الذي تكلّم بها منذ نعومة أظفاره، بل كانت لهجة الأعجمي الذي لا يحسن التكلّم بالعربية، فهو حينما يتكلّم يكون دائماً على وشك الغلط في البيان، أو الركاكة في التعبير، أو الضعف في التأليف، أو استعمال كلمة دارسة لا يستعملها الناطقون باللّغة في هذا العصر، أو عدم تذكّر الكلمة المحتاج إليها في بيان المراد، أو حتّى عدم العلم بها. فهو يتكلّم بتلكّؤ وعلى حذَرٍ من الانزلاق، كمن يمشي على طريق صعب غير معتاد عليه.

ومعلومٌ أنّ الحوار على مثل ذلك النمط يختلف كثيراً عمّا يجده القارئ في هذا الكتاب من الفصاحة في التعبير، والعذوبة في البيان، والاتّزان في تنسيق العبارات، واستخدام كلماتٍ يستسيغها -عادةً- كلّ من يقرأ هذه الصفحات. فلا بدّ أن يكون القارئ الكريم على علمٍ بأنّ كلّ هذا الجمال والكمال إنّما هو من فضل تصرّف الأخ الأديب الفاضل الدكتور آذرشب في الترتيب والتنسيق وتحسين اللّفظ وتزيين العبارات -طبعاً بغير أدنى تصرّف في المطلب والمعنى المراد- فلهُ الشكر، ولله الحمد أوّلاً وآخراً. ثمّ إنّي أحبّ أن أُهدي الكتاب إلى شباب العرب الذين يعيشون في نفس سنّ صاحب المذكّرات حينما كانت تمرّ عليه تلك الأحداث. وفّق الله الجميع لما يحبّ ويرضى.

❖ السيّد علي الخامنئي

المحتويات

كلمة المركز	9
مقدمة	11
تلك الأيام ...	19
في حضرة الأساتذة	39
ضفاف دجلة	49
الشرارة الأولى	63
بركان الثورة	77
ظلال الشمس	89
ملحمة الدمع	99
القلعة الحمراء	113
القصر الأبيض	151
السجاد المهترئ	167
المحكمة العسكرية	181
الزنزانة 14	207
الشيفرة السرّية	235
سيل المنفى	277
نصرٌ بعدَ عُسر	303
الهوامش	323
الصور	371

كلمة المركز

الخواطر والمذكّرات والسيرة الذاتيّة، فنٌّ أدبيٌّ قديم العهد في التراث الإنسانيّ كلّه، وهو فنٌّ أدبيٌّ له أثره على تجارب الشعوب والجماعات الإنسانيّة. ويرتفع منسوب أهميّة هذا الفنّ الأدبيّ عندما يصدر عن شخصٍ خبر أحداثاً جساماً، وأسهم في صنعها بأشكال مختلفة، وقاسى آلام مخاضها كواحدٍ من صنّاعها، ثمّ تسنّم بعد ذلك موقعاً متقدّماً في متابعة المسيرة وحفظ هذه التجربة.

وهذه الصفحات التي نقدّمها إلى القارئ العربيّ للمرّة الأولى قبسٌ من سيرة ذاتيّة لواحد من صنف الرجال المشار إليهم أعلاه، فهو شارك في صنع هذه التجربة منذ الأيّام الأولى وقاسى ما يقاسيه أيّ ثائرٍ آخر، من عذاب السجون وسياط الجلّادين. ولهذا العمل الذي نقدّمه إلى القارئ خصائص عدّة أهمّها سمة الصدق التي تتجلّى في ثناياه فصاحبه يتحدّث عن الخوف والأمل، والضغوط والتهديدات، وغير ذلك من المشاعر الإنسانيّة العامّة والخاصّة. ومن امتيازاته أنّه سيرة ذاتيّة يؤرّخ

فيها صاحب هذه التجارب لمرحلة من حياته، ولجانب محدّدٍ منها هي مرحلة المعاناة والتردد بين السجون والمنافي ولو الداخلية. والسمة الأخرى أنّ هذا العمل هو من إملاء صاحب التجربة وتدوين المستمع في جلسات عدة كانت تهدف إلى التدرّب على اللغة العربية.

ولأجل حفظ هذه الخصوصية الأخيرة حاولنا أن نبقي على طبيعة النصوص كما هي دون أن نعيد تحريرها، حتّى بما تقتضيه طبيعة التفاوت بين النص المكتوب والنصّ الشفاهي. نأمل أن يكون هذا الكتاب جزءاً من سلسلة يكملها سماحة السيد الخامنئي ليسهم في التأريخ لشخصه وللثورة التي كان له دورٌ مهمٌّ في صنع أحداثها إبّان مخاضها وبعد ولادتها وتطوّرها.

وقبل الختام نجد من واجبنا تقديم الشكر لمؤسسة حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي على ثقتها بمركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي وتكليفها إيّاه بنشر هذا العمل.

❖ مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

بيروت، 2019

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله الطيّبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

مهما اختلفت الآراء في الثورة الإسلاميّة الإيرانية، فإنّها دون ريب حدث فريد في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العالمي. قبل نصف قرن كانت كل من القوّتين العظميين في الشرق والغرب تحاول أن تسيطر على العالم، وكان الاستهداف مكثّفاً على العالم الإسلامي، عن طريق الغزو الثقافي والعسكري والاقتصادي، وأكثر حكومات المسلمين تتسابق على التزلف إلى هذه القوّة أو تلك، والشعوب تنظر إلى هذا المشهد وهي واجمة لا تدري ماذا تفعل لا حول لها ولا قوّة، فالموقف محيّر والإرادة منهارة بسبب ما واجهته من هزائم وإحباطات.

ووسط هذا الجوّ المأزوم المهزوم راحت قوى الهيمنة العالمية تنفّذ ما ظنته الضربة الأخيرة على جسد الأمّة الإسلاميّة حين توجّهت إلى رأس الحربة في مقاومة الأمّة وحاولت كسرها في إطار ما سمّي بمشروع السلام مع العدو الصهيوني. كما نُفذت في هذا الجوّ أكبر عملية إرهابية لكلّ الدعاة الإسلاميين ودعاة إحياء الأمّة واستعادة عزّتها وكرامتها، إلى جانب العمل على تنفيذ عملية واسعة بين المسلمين لنشر ثقافة التمييع والتحلل والهزيمة وفقدان المروءة والكرامة والشخصية الإنسانية.

وسط هذا المكر الاستكباري على منطقتنا الإسلاميّة انطلق صوت زلزل ما بناه المستكبرون، انطلق من قاعدة المكر الاستكباري.. من إيران التي أريد لها أن تكون قاعدة لأمريكا والصهيونية وعملائهما الداخليين فكانت هذه الانطلاقة تحقيقًا لقوله سبحانه: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ »*.

كانت هذه الانطلاقة فريدة في نهجها وأهدافها وقيادتها. فهي في نهجها اعتمدت بعد الله سبحانه على الجماهير والجماهير فقط، لم تستند إلى حزب أو تنظيم ولم تستقو بقوّة عالمية، بل أعلنت أنه لا حزب إلا حزب الله، أي حزب الجماهير الثائرة من أجل الله. وأنه لا شرقية ولا غربية، رافضة الانتماء إلى إحدى القوى الكبرى المتصارعة في العالم.

وهدفها أعلنته منذ اللحظة الأولى وهو إقامة الجمهورية الإسلاميّة، بكل ما يتضمّنه هذا الهدف من عدالة وحرية واستقلال وعزّة وكرامة

---

* سورة النحل، الآية: ٢٦

ومعاصرة (جمهورية) وأصالة (إسلاميّة). أما قيادتها فهي التي لفتت أنظار العالم أكثر من غيرها لأنها تمثّلت في عالم دين أريد له أن يُقصى عن الحياة، وفي خطاب أصيل كاد أن يختفي وسط ضجيج المادية وعمليات التشويه والتزوير، إنه الإمام الخميني رضوان الله عليه وما صدر عنه من خطاب إحيائي للأمّة الإسلاميّة ومن دعوة إلى استعادة عزّة الأمّة وكرامتها وهويّتها وأصالتها.

لقد جمع هذا الرجل الكبير كل ما يحقّق النصر لمشروع الثورة.. أصالة، ومعاصرة، ودعوة إلى العزّة وإلى العدالة ونصرة المستضعفين ومقارعة المستكبرين، والاعتماد على الجماهير والثقة بها، ورفض كل عمليات الإذلال والاستضعاف والهيمنة الأجنبية، وكل ما يؤدّي إلى الهزيمة النفسية وتزلزل الثقة بالنفس. لقد كانت دعوته إلى الله سبحانه وتعالى، بكل ما تحمله هذه الدعوة من هداية الشعوب إلى الكمال والسموّ والحياة الطيّبة والسعي المتواصل الدائب نحو البناء الذاتي والبناء الاجتماعي.

من هنا كان لانتصار هذه الثورة ولا يزال صدى عميق في نفوس الشعوب التواقة لحياة أفضل فقد أيقظت جماهير أريد لها أن تغط في سبات عميق، وأحيت نفوساً كاد يغلب عليها اليأس من عودة الإسلام إلى الحياة.

والواقع أنّ إيران جرّبت في تاريخها الحديث التفافًا جماهيريًّا حول كل عالم دين أخلص في دعوته إلى الله وعبّر عن آمال الجماهير وطموحها إلى غدٍ أفضل، كما حدث في حركة التنباك وحركة المشروطة (الحركة الدستورية) ونهضة تأميم صناعة النفط الإيراني. غير أن التفافها حول

نداء الإمام الخميني اقترن بالوعي واليقظة والتضحية والفداء والعزم على المواصلة والبصيرة وبفهم ما أراد أعداء الثورة أن يلقوه في الطريق من عوامل الصدّ والتعويق. ربما يعود ذلك إلى ما كان يقدّمه الإمام الراحل وتلاميذه ومريدوه من زاد توعية خلال الأعوام التي سبقت الانتصار.

صاحب هذه المذكّرات الإمام السيد علي الحسيني الخامنئي شخصية بارزة في مسيرة الثورة الاسلاميّة. وهو كالإمام الراحل ركّز نشاطه في سنوات نضاله على الجماهير وخاصة فئة الشباب. كان دؤوبا في الاتصال بالشباب الجامعي وسائر الشباب على صعيد مختلف محافظات إيران. وكان خطابه يلامس طموحهم في العزّة والكرامة والتحرر من التبعية لعالم المستبكرين، ومقارعة الطواغيت ومذلّي الشعوب وخاصة أمريكا والعدوّ الصهيوني، ويعبّر عن آمالهم في قيام مجتمع إسلامي حرّ عزيز كريم.

تميّز الرجل بصلابته واستقامته ورباطة جأشه أمام المحققين في السجون، وتميّز بتحرّره من الذاتية والأنانية وذاب في هدفه الكبير حتى لم يُعرف يوماً أنه عاش لأهدافه الشخصية أو طمعاً في فضول العيش. ولايزال يردّد بيتاً بالعربيّة كان قد انطبع في ذهنه بسبب انسجام معنى البيت مع أخلاقيته يقول:

لقد دقّت ورقّت واســـترقّت فضولُ العـــيش أعناقَ الرجال

كما تميّز في حراكه بالجمع التام بين العمل الثقافي الفكري وبين عمله الجهادي المناهض لنظام الشاه.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية تولى بأمر من الإمام الراحل مسؤوليات إدارية وعسكرية وقيادية ضخمة فكان من الإمام كالضوء من الضوء

والذراع من العضد. تولّى الولاية بعد رحيل الإمام الخميني بانتخاب أعضاء مجلس خبراء القيادة، واستطاع بتوكّله على اللّه وقدرته وتجاربه واعتماده على الجماهير ووعيها واستقامتها وبصيرتها أن يقود الجمهوريّة الإسلاميّة وسط جبال من التحديات، وبذلك أحبط آمال الذين كانوا يراهنون على رحيل الإمام الخميني.

تميّز خطابه القيادي بتعميق الروح الثوريّة والبصيرة والاعتدال والابتعاد عن التطرف والخرافة والافكار الرجعية المتخلفة. من هذا العمق اتخذ مواقفه السياسية والاقتصادية والعسكرية على الصعيد الداخلي والعالمي، وأثبت أنه كان ينطلق فيها من رؤية بعيدة وحكمة متجذّرة ورسالية نقيّة.

كيف حُرّرت هذه السطور؟

كلّ المتخصّصين في اللغة العربيّة وعلوم القرآن ممّن يعرفون عن كَتَب صاحبَ هذه المذكّرات يُلفت نظرهم فيه وَلعه المتميّز بالقرآن واللغة العربيّة، وحين يستطلعون الأمرَ يعرفون أنّه أحبَّ اللغة العربيّة من يوم أن عشق لغة القرآن، وتذوّق حلاوتها وتشرّب بلاغتها منذ نعومة أظفاره، حين كان في «الكُتّاب» يقرأ الجزء الثلاثين من كتاب الله العزيز.

وبقي بعدها في مراحل حياته كلّها يعيش أجواء هذه اللغة من خلال القرآن والحديث ونهج البلاغة والجيّد من الشعر العربي والنثر العربي. كلّما التقى من يُحسن هذه اللغة نظمًا ونثرًا ومحادثةً يحاول أن يعيش معه لحظات حوار ومناقشةٍ في شتّى أمور الأدب والحياة.

بعد أن فُوّضت إليه المسؤوليّات الأخيرة لم ينقطع توقه إلى اللغة

العربية وحبّه لها. نعم، لم تنقطع يومًا علاقته بهذه اللغة في حياته العلمية على صعيد المطالعة والبحث والدراسة والتدريس والترجمة، غير أنّه يرى في عالم الأدب العربي القديم والحديث، والحديث بالعربية في شتّى شؤون الحياة ما يجعل هذه اللغة حيّةً في النفس، جميلةً في الذوق، قادرةً على شدّ أجزاء الأمّة من المحيط إلى المحيط.

من هنا، كانت له قبل عقدين - على الرغم من تراكم الأعمال - جلسات أسبوعية يتحدّث فيها بالعربيّة عن مختلف الأمور، ويقرأ خلالها نصوصًا من الأدب العربي حديثه أكثر من قديمه. كان يعود في بعض كلامه إلى ذكرياته عن السجون والمعتقلات والمنفى، وكانت مزيجاً من تجارب شخصيّة وتجارب اجتماعية.

قيل له في بعض تلك الجلسات: إنّ تحرير هذه الذكريات ضروريٌّ، واطّلاع القرّاء عليها مفيدٌ. فاستجاب مشكورًا للطلب وبدأ يملي مذكّراته عن حياته. وهذا الذي نقدّمه للقارئ هو الجزء الخاص بالسجون والمعتقلات فقط.

نشير مرّةً أخرى إلى أنّ هذه المذكّرات أمِليت باللغة العربيّة، وسيطّلع عليها أوّلا قرّاء اللغة العربيّة. وفي هذا دليلٌ على مكانة لغة القرآن في نفس سماحته، ودليلٌ جديدٌ على قدرتها على توحيد الأمّة المسلمة، وتجاوز كلّ الفوارق الجغرافية والقومية واللغوية بين المسلمين.

إنّ هذه المذكّرات المهمّة من تاريخ النهضة الإسلامية وقائدها ستعين كلَّ الباحثين في تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة على معرفة تفاصيل لا غنى لهم عنها، وستزوّد العاملين في سبيل الله بتجارب ثرّة في حقول شتّى، تدلّ على إمكان تحقيق النصر على الرغم من

كل الشجون والمحن، إن استقامت الإرادة، وستكون لكلّ قارئ جولة ممتعة مفيدة ذات معطيات فردية واجتماعية.

بقي أن نذكر أنّ هذا الكتاب هو أوّل مجموعة رسميّة من مذكّرات السيّد القائد تصدر عن مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي، ويقترن نشره بالذكرى السنوية الأربعين لانتصار الثورة الإسلاميّة، سائلين الله أن يوفق أمّتنا لاستيعاب التجارب وأخذ العبر ومواصلة الطريق بعزم وإرادة ويقظة وبصيرة إنّه تعالى وليّ التوفيق.

يفرض علينا الواجب أن نتقدّم بالشكر للأستاذ الدكتور محمّد علي آذرشب لإعداده الكتاب وللأستاذ محمد مهدي شريعتمدار لمراجعته ولمركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي لطباعته ونشره. وعلى الله قصد السبيل.

مكتب حفظ ونشر آثار الإمام الخامنئي

طهران، 2019

تلك الأيام...

* حجرة الطابق العلوي

ولدت في مدينة مشهد[1] في محافظة خراسان، حيث مثوى ثامن أئمة أهل البيت علي بن موسى الرضا[2]عليه السلام. يومُ مولدي هو الثامن والعشرون من شهر صفر عام 1358هـ.ق/1939م.

الدارُ التي وُلدت فيها صغيرة متواضعة ذاتُ حجرتين. حجرة في الطابق العلوي خاصة بالوالدين وأطفالهما الصغار، وحجرة في الطابق الأسفل لأخواتنا اللاتي توفيت أُمهنّ قبل أن يقترن والدي بوالدتي، ثم حدث في البيت ترميم بعد ثلاثين سنة أو أكثر، فتحولت الغرفة العليا بعده إلى غرفتين.

بعد سنة من ولادتي انتقلنا جميعاً إلى بيت جدي لأمي السيد هاشم الميردامادي النجف آبادي[3]، وكان عالمًا معروفًا بعلمه وزهده وتبحره في تفسير القرآن، وكان قد نفي ضمن العشرات من العلماء الذين نفاهم رضا شاه بهلوي[4] قبل سنين من ولادتي، وكانت داره واسعة نسبيّاً، غير أنّا عُدنا إلى بيتنا الصغير مع عودة الجدّ من منفاه. ثم اهتم بعض مريدي والدي ومحبّيه بتوسيع بيتنا، فاشتروا أرضاً متروكة جوارَه، وأُعيد البناء، فصار لنا بيت جديد وصارت مساحة الدارين معاً تقرب من 200 متر، وأصبح الآن محلًّا عامًّا للمجالس الدينية، وسمِّي «حسينيّة».

لم يكن في البيت من المتاع إلا القليل البسيط، وقد تمّ تسعير أثاث البيت يومَ وفاة والدي (أي بعد خمس وأربعين سنة تقريباً من التاريخ الذي نتحدّث عنه) بنيف وأربعين ألف تومان فقط! هذا المبلغ لا يتضمّن قيمة الكتب طبعاً.

أنا ثاني الأبناء الذكور في البيت، فالأكبر مني هو السيد محمد، ولي أخوان أصغر منّي، وأخوات.

* إمام مسجد السوق

الوالد هو السيد جواد الخامنئي من أسرة علمية معروفة في تبريز. ولد في النجف سنة 1313هـ.ق. والده السيد حسين الخامنئي كان إمام المسجد الجامع في تبريز.

أقف قليلاً عند الجدّ: درس السيد حسين في النجف عشرين عاماً، وكان من تلاميذ الفاضل الشربياني والشيخ حسن المامقاني والد الشيخ عبد الله المامقاني وعاد من النجف إلى تبريز سنة 1315هـ.ق، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة الميرزا الشيرازي[5]، وتوفي سنة 1325هـ.ق، بعد شهور من الحركة الدستورية[6]، فشُيّع في تبريز، ثم نُقل جثمانه إلى النجف، ودُفن في مقبرة وادي السلام. وهو أبو زوجة الثائر الخياباني المعروف[7]. فزوجة الخياباني عمتنا. يذكر الوالد عن جدنا السيد حسين أنه كان ينام أوّل الليل بعد العشاء، والأبناء مشغولون باللعب، ثم يستيقظ قبل ساعتين من طلوع الفجر للعبادة والمطالعة، وكانت أكثر مطالعاته قبل طلوع الفجر. كان من أعلام العلم، وكثير من علماء تبريز قد تتلمذوا عنده في النجف. وعندما

عاد إلى تبريز تخلّى إمام المسجد الجامع في هذه المدينة -وهو من عائلة «مجتهد» المعروفة- عن إمامة المسجد، وسلّمها إلى أستاذه السيد حسين.

عمنا السيد محمد الخامنئي كان معروفاً في النجف باسم السيد محمد پيغمبر، ومشهوراً بقضاء حوائج الناس. وكان من خواص حاشية الآخوند الخراساني[8] والسيد أبي الحسن الإصفهاني[9]. أذكر أني حين سافرت إلى النجف سنة 1377هـ.ق قابلت الشيخ حسين آقا الابن الأصغر للآخوند الخراساني، فعرفني، وأثنى على عمّي كثيراً، وقال: أنا كنت واحداً من الأركان الأربعة في إدارة أعمال عمك.

أعود إلى الوالد.. كان معروفاً بالفضل والعلم والاجتهاد، تخرّج على يد كبار العلماء مثل ميرزا النائيني وأبي الحسن الإصفهاني، وكان عفيفاً ذا حياءٍ مترفعاً عن المال والمتاع.

كان إمام مسجد في وسط السوق في مشهد، حيث الكسبة والتجار وأصحاب المال؛ لكنه كان متعففاً عن النظر إلى ما في أيدي الناس، ويكره ذلك، فبلغ الذروة في إباء طبعه. أحبَّ العزلة، وما كنتُ أميل لطبيعته هذه، وتعلمت منه ما يخالفها. كان يدخل المسجد مطأطئاً رأسه، رامياً ببصره إلى الأرض، متجهاً مباشرة إلى المحراب دون أن يتحدث مع أحدٍ من المصلين. وهناك كان يرفع نظارته، ويلقي بذؤابة عمامتِهِ تحت حنكه عملاً بالسنّة، ويصلّي بالناس، ويخرج بطريقة دخوله نفسها.

وفي المجالس، كان يبقى صامتاً، إلّا إذا طُرح عليه سؤال، ولا يتحدث إلّا مع الخواص من أصدقائه العلماء، ولا يقتحم مناقشة إلا في البحث العلمي.

وكانت نتيجةُ هذه العزلة الفقرَ الشديد.

فكان يُضطرُّ أحياناً إلى بيع كتبه من الفقر، مع أنه كان مُغرماً بها ويعشقها. كان لايرتاح إذا رآنا نتصفح كتبه. وإذا رأى في يدنا أحد كتب مكتبته يقول بلهجة الحادب على الكتاب المتلهّفِ للمحافظة عليه: ما هذا؟ ضعه رجاء في مكانه! مع ذلك اضطر أحياناً لبيع بعض كتبه كي يوفّر ما نسدّ به رمقنا.

كان يذهبُ إلى رفوف المكتبة، فيأخذ الكتابَ من أجلِ أن يبيعه، ثم يعزُّ عليه بيعه، فيعيده إلى مكانه. ويأخذ الثاني والثالث.. حتى يقع الاختيار مرغماً على بعضها، فيأخذها ويقول لأحدنا: خذ هذه الكتب إلى الشيخ هادي، وبعها له.

والشيخ هادي كان معروفاً بشراء أيّ كتاب يُعرض عليه، فيضعه في حانوته، ثم لايبيعه إلا بسعر باهظ. كان يقول: أنا معروف بالغلاء في البيع؛ ولذلك لا يشتري مني إلا من هو مضطر لشراء الكتاب، والمضطرّ يشتري الكتاب مهما غلا ثمنه! هكذا كان الشيخ هادي يشتري ويبيع.

أذكر أننا نحن الأبناء كنا نذهب إلى بيت جدنا السيد الميردامادي، فيعطينا ريالاً أو نصف ريال كما يعطي الأجداد والآباءُ أبناءَهم، وهو مبلغ ضئيل، ولكن، صادف أن اضطرت الوالدة لأخذ هذا المبلغ الضئيل منّا لتشتري به ما يسدّ جوعتنا في العشاء.

لقد شاهدت من الفقر في بيت والدي ما قلّ أن يشاهد مثله عادة في بيوت العلماء. والوالد لم يكن يذكر حالة فقره وفاقته لأحد قط؛ بل بالعكس كان يحسبه الناس غنيًّا من التعفّف والاهتمام بالمظهر.

كان في الصيف لا يلبس من العباءة إلا الخاجية، وهي أغلى أنواع

العباءات، ويأتي بعدها نوع المخلوط ثم المكينة. وفي الشتاء كان يرتدي عباءة نائين، وهي أنفس من عباءة الماهوت المألوفة بين العلماء. أما قباؤه فكان يضطر لترقيعه أحياناً لأنّه مستور تحت العباءة!

كان الوالد يشملني بحبّه الخاص، ويأنس بي في أسفاره

لقد أُصيب مرة بالعمى ثم شفي، وكان يواصل علاجه في طهران. فسافر إليها ثلاث مرات، ولم يرتض أن يكون معه غيري. كنت في سنة 1384هـ.ق/1964م في قم[10] حيث كتب إليّ الوالد أن أذهب إلى مشهد لأصطحبه إلى طهران. غير أني تأخرت في الذهاب إلى مشهد بسبب مهمّة كان يجب أن أؤدّيها في زاهدان[11] ترتبط بأمور الدعوة. ذهبت إلى زاهدان، واعتقلت هناك، وكان همّي الأول لدى الاعتقال والدي الذي لا يروم السفر دوني.

أذكر أني كنت جالساً في الطائرة رهن الاعتقال لنقلي من زاهدان إلى طهران، فتذكرت الوالد، فإذا بالهمّ يعتصر قلبي، والاضطراب يموج في نفسي بشكل عجيب. قلت في نفسي: إذا كان حالي على هذا الوضع وأنا في الطائرة، فكيف سيكون إذا دخلت المعتقل؟! توسلت إلى الله سُبْحَانَهُ، وتضرعت إليه أن يسكن قلبي. غفلت عن الأمر دقائق، ثم عدت وتذكرت الوالد فرأيت أني أذكره هذه المرّة دون تلك الحالة من القلق والاضطراب. حالةُ الحنين والشوق والترحّم كانت موجودة في قلبي، ولكن مع سكينة لا أزال أتذكر حلاوتها بشكل واضح حتى الآن. وشكرتُ الله سُبْحَانَهُ أن استجاب لدعوتي، وتفضل عليّ بإنزال السكينة، وهي نعمة لا يعرفها إلّا من عانى القلق والاضطراب.

* اللهجة النجفية

الوالدة نجفية المولد، عربيّة اللهجة، كانت تتكلم في صباها باللهجة العربية النجفية، عارفة بالقرآن، تحسن القراءة بصوت رائع. وفي أواخر حياتها بُحَّ صوتها، فكنت أذكّرها بصوتها الحَسَن.

كانت تواظب على قراءة القرآن الكريم كلَّ يوم في مصحف مُهدى لها من والدها. وكانت طريقتها في القراءة تجتذبنا ونحن صغار، فنلتف حولها، ونصغي إلى تلاوتها. وهي كانت تغتنم الفرصة فتترجم لنا معاني بعض الآيات إلى الفارسية، وتحكي لنا قصص الأنبياء. شغفها بحياة موسى عليه السلام كان يدفعها لأن تقصَّ علينا حياة هذا النبي العظيم بكل تفاصيلها، وتتكلم عن موسى بإعجاب يثير فينا لهفة لاستماع أخباره.

كانت مأنوسة بديوان حافظ[12]، وتحفظ بعض أشعاره، وتتفأل به. كما كانت عارفة بالحديث، وتذكر الحديث فيعترض الوالد عليها قائلاً: لم يصادفني هذا الحديث، فتذكر له المصدر! كانت مثل الوالد عفيفة لا تذكر فقرها لأحد أبداً، وتستر معاناتها بشتى الصور.

تعلّمت من الوالدة أوليات قراءة القرآن وقواعد اللغة العربية، كما غذَّتني بروح الشجاعة والمقاومة. لقد عانت الوالدة كثيراً من اعتقالاتي المتواصلة واقتحامات السافاك[13]؛ لكنها كانت تقف أمام الجلاوزة المهاجمين بصمود وجلادة، تردّ عليهم وتجادلهم؛ بل وطالما شجَّعتني على مواصلة هذا الطريق الشائك، كما سأذكر في وقته.

* المعلّم القاسي

بدأت حياتي الدراسية في الكتّاب، وقُدّر لي أن أتعلّم في اثنين من

الكتاتيب قبل أن ألتحق بالمدرسة الابتدائية.

كان على رأس الصف الأول امرأة. دخلته وأنا في الرابعة من عمري، وكنت أميل إلى الانزواء، وأراني غير منسجم مع الدرس، وقد يعود ذلك إلى ضعف بصري كما سأذكر. ما يرتسم في ذهني الآن عن هذه المرحلة أكثر من غيره سوء الأساليب التعليمية والتربوية. لم يكن ثمة منهج تعليمي، وكانت القسوة التي لا مبرّر لها هي المسيطرة على الكُتّاب. أتذكر أن الشيخة كانت تذهب أحياناً إلى بعض المناسبات، فتترك مكانها جارتها رباب. وهذه كانت تتفنن في ملء وقتنا بالتوافه. منها أنها كانت تصفّنا في طابور، ثم تأخذنا إلى زوجها، وكان مُقعداً، فنمرّ عليه الواحد بعد الآخر ليضربنا على أكفنا بعصاً كانت بيديه! كان أخي الأكبر معي في هذا الكُتّاب.

وفي سنة 1364هـ.ق/1943م، وحين كنت بين الخامسة والسادسة نقلنا الوالد إلى كُتّاب آخر يقع في غرفة بمسجد. حجرة الدرس كانت مظلمة على ما أتذكر، ولعل هذا الانطباع يعود إلى ضعف بصري أيضاً. احتفى هذا المعلم بنا كثيراً، وأجلسنا على يساره، وكنا موضع اهتمامه دائما. ابتدأت أنا وأخي في هذا المكان بدراسة جزء «عمّ»، وكان المعلم يبدأ بتعليم الحروف الهجائية العربية، ثم يليها الجزء الثلاثون من القرآن الكريم ابتداءً من سورة الناس.

كان المعلم قاسياً غليظاً في تعامله مع غيرنا من التلاميذ. وما أحمله في ذاكرتي الآن عن هذا الكُتّاب هو غلظة الرجل، والبرد، والظلمة. كنت أقطع الطريق من البيت إلى محلّ الدرس بحذاء مثقوب يتسرّب منه الوحل إلى رجليَّ في الشتاء.

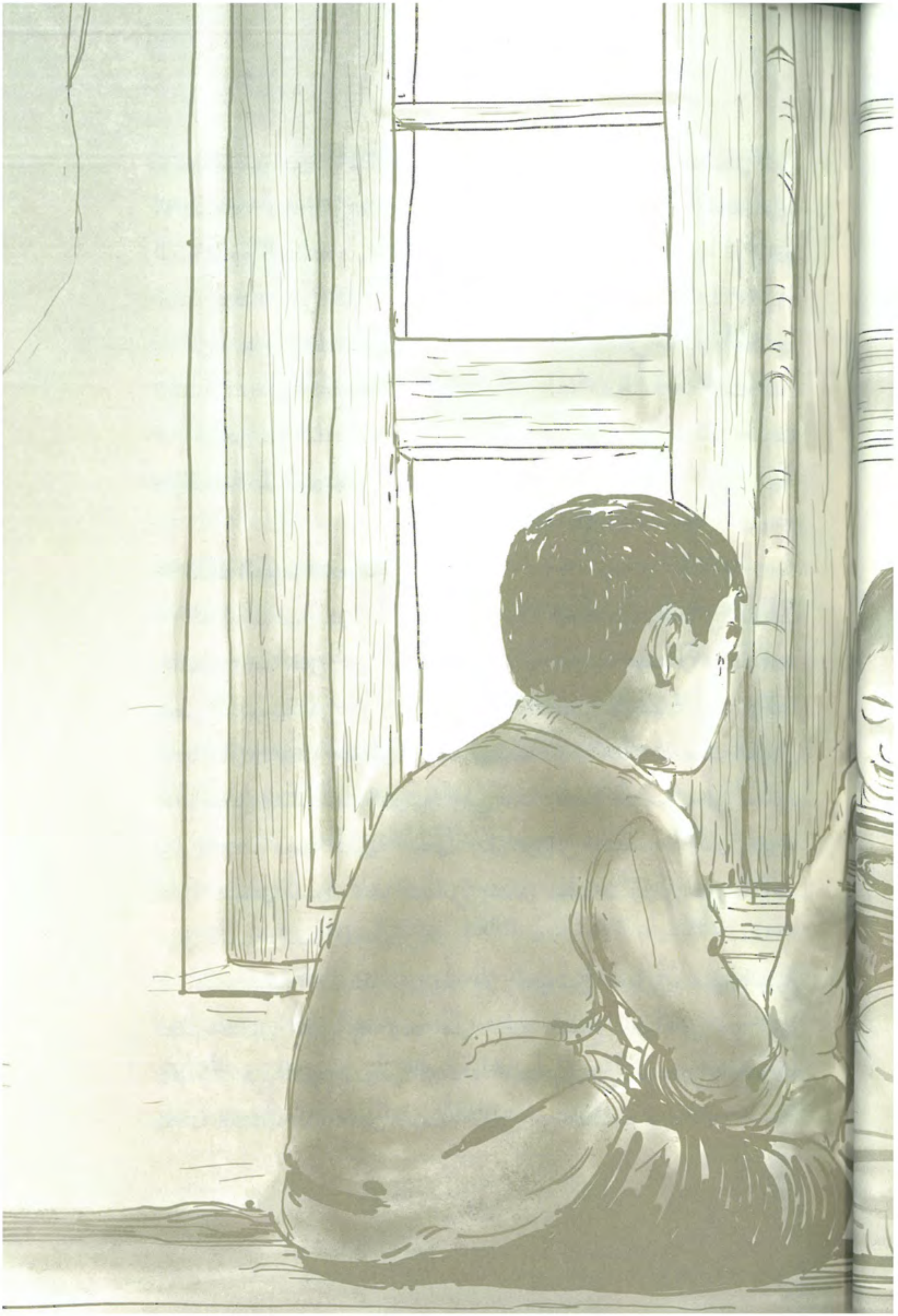

والغريب من عاداته أنه كان يصفّ الطلاب يوم الخميس قبل الانصراف، ويقول لهم: سأختم تحت ألسنتكم، فمن حافظ على الصلاة يوم الجمعة سيبقى الختم على لسانه وإلّا سينمحي، ثم يأخذ خاتماً ويضعه في الحبر، ويطبع به تحت لسان كل تلميذ!

في صباح السبت تقوم القيامة. يقف الطلاب في طابور وألسنتهم تمتد للتفتيش، ويقع بعضهم تحت طائلة العقاب الشديد. كنت أقف في الطابور مع التلاميذ، وأبكي خوفاً، لا من الضرب؛ لأنّه كان يحترمنا ولايضربنا؛ بل من هول المشهد!

* ذلك اليوم المشرق

العشرينيات من القرن الهجري الشمسي الحالي بدأت بإقصاء رضا خان عن الحكم، وانتهت بقضية مصدِّق[14]. تصاعد خطر الشيوعية في إيران خلال هذا العقد، لا سيما بعد واقعة آذربايجان[15]. ومن أجل أن تواجه السلطة هذا الخطر فسحت المجال أمام بعض النشاطات الدينية. وفي هذا العقد تأسست في مشهد أول مدرسة دينية حديثة اسمها «دار دیانتي للتعليم»، وكان يديرها ميرزا حسين تديّن، وهو كرماني يسكن مشهد. زارني في ما بعد حين كنت رئيساً للجمهورية.

أسس هذه المدرسة مجموعة من المؤمنين الخيّرين، منهم الشيخ غلام حسين التبريزي، وهو من زملاءِ الشيخ الخياباني في تبريز ومُباحِثُه في الدرس، ومن العلماء الناجحين في الدعوة. والمدرسة كانت ابتدائية كاملة من السنة الأولى إلى السادسة.

كنت في السادسة من عمري حين دخلت هذه المدرسة فأجلسوني في الصف الأول، وأخي كان في العاشرة فأجلسوه مع طلاب السنة الرابعة.

أذكر أني كنت أحسّ بالتأخُّر في الدروس خلال السنوات الثلاث الأولى، ثم أصبحتُ الطالب الأول في السنوات الرابعة والخامسة والسادسة.

هذا التحول كان سببه غامضاً عليّ، لكني قبل أعوام اكتشفت الحقيقة. تذكرت أنني جلست في مقدمة قاعة الدرس في السنة الرابعة، وبدأت أرى ما يكتبه المعلم على اللوح، ثم أفهم بالنتيجة ما يقول. وكنت في السنوات الثلاث السابقة أجلس بعيداً عن اللوح، فلا أرى لضعف بصري ما يُكتب عليه، ولا أفهم بالتالي درسَ المعلم.. لا أزال أتذكر ذلك اليوم المشرق المضيء الذي انفتَحتُ فيه على الدروس. كانت الحصة الأولى فيه درس الحساب، ولقيت فيه من المعلم كلَّ تشجيع. وهذه مسألة تربوية وتعليمية نبهتُ إليها المعلمين في مقابلة جرت معي حين كنت رئيساً للجمهورية بمناسبة بدء السنة الدراسية.

كنت في هذه المدرسة بارزاً في تجويد القرآن الكريم بصوت جميل، وأتلو القرآن في حفلات المدرسة، وعند استقبال الشخصيات الزائرة. ومنها أني قرأت القرآن أمام آية الله الكاشاني[16] الذي زار مشهد في نهاية العشرينيات الهجرية الشمسية، وكنت آنئذ في الثانية عشرة من عمري (1369 أو 1370هـ.ق/1950 أو1951م)؛ إذ ذهبت المدرسة لاستقباله. ولا أزال أتذكر السيد جالساً مع ثلة من العلماء، لكن الوجوه ليست واضحة في ذهني، لضعف البصر حينها! وقرأت القرآن أيضا أمام السيد حسن القمي[17] في بداية قدومه إلى مشهد بعد وفاة أبيه. كان بعض مؤسسي المدرسة من مقلّدي والده، فجاء السيد القمي

إلى المدرسة ونحن مصطفون، وتقدمت أنا وأحد التلاميذ فقرأنا القرآن وبعض المحفوظات الدينية، وأخذت منه جائزة. وأذكر الجائزة الآن وهي كتاب «تعليمات دينى» لكاتبه سيد حسام الدين فال أسيري شيرازي، ثم رأيت هذا الكاتب حينما كان مبعداً إلى مشهد، حيث كان يتردد على والدي.

* تعلّم القرآن

تعلمت القرآن منذ طفولتي من والدتي، ثم من كاسب كان يجيد قراءة القرآن، ويرأس دورات القراءة في المنازل. الوالد أوكلني وأخي إلى هذا الرجل المؤمن المسمى بالحاج رمضان علي. كان الرجل يكرّمنا، ويقدّمنا على نفسه في الخروج، وهو ابن خمسين، ويجلسنا على جنبيه. كنت أقرأ القرآن عنده وهو يُصحّح.

قال لنا يوماً: بلغتما مرحلة لا أستطيع أن أواصل التدريس بعدها معكما، وأوصانا أن نذهب إلى أستاذه ملّا عبّاسي، وكان يدرّس في صحن حرم الإمام الرضا عليه السلام، وعمره 70 عاماً.

ذهبنا إليه ودرسنا عنده. وكان من خصائصه التقيّد بالنسخة المطبوعة في الهند من المصحف الشريف على الرغم من صعوبة خطها، معتقداً أن النسخة الهندية صحيحة. كما كان من خصاله التقيد بالسنّة في السلام عند اللقاء ولدى الوداع، بينما الشائع في إيران هو السلام لدى اللقاء فقط، وتُذكرَ عبارات فارسية أخرى في التوديع.

قرأنا عنده كتاب «التجويد»، وهو بالفارسية للسيد محمد عرب زعفراني، وكان عربيًّا يسكن مشهد، تتلمذ أستاذنا المقرئ ملّا عباسي عنده.

* أزمة العمامة

العمامة في إيران يرتديها عادة المشتغلون بأمور العلوم الدينية طلّاباً وأساتذة ودعاة. وهي رمز لوجود الطائفة التي تتفقه في الدين، وتدعو إليه، وتقاوم خصومه. لذلك كانت العِمّة محاربة من قِبل عملاء الاستعمار ودعاة العلمانية. ولقد أمر رضا شاه بخلعها وارتداء القبّعة البهلوية، وتراجع ابنه[18] عن هذا القرار الفاشل؛ لكن الجهاز الحاكم خطّط لخلق روح جماعية مستهينة ومستهزئة بالعمامة.

تعمَّمتُ أنا في صباي حين كنت في السنة الثانية من الابتدائية. ويعود سبب هذه العمة المبكرة إلى أن العادة جرت بين الناس آنئذ على تغطية الرأس، والوالد كان يرفض طبعاً أن نرتدي القبعة البهلوية، فلا بدّ إذاً من العمامة.

الوالدة كانت تشدّ عمامتنا، وتضع الذؤابة إلى اليمين بدل اليسار.

ظاهرة الاستهزاء بالعمة واجهناها منذ الصغر، ولقد سمعنا من كلمات الاستهزاء ما جعل الظاهرة طبيعية في أنظارنا، فلم أفكر في سببها، إلا حينما كبرت، فبدأت أراجع ذاكرتي، وأتعجّب! لم يَسلَم من هذه الظاهرة أيّ معمّم، صغيراً كان أم كبيراً!

* لماذا أنت يا سيّد؟!

الاستهزاء بالعمامة وبعلماء الدين كان شائعاً في إيران بمختلف السبل، وتحوّل إلى روح جماعية لفّت كلّ قطاعات المجتمع. ولم أسلم أنا من هذه الروح الجماعيّة!

كان في محلتنا معمّم اسمه الشيخ الفائقي، وهو رجل فاضل، كان يقرأ مصائب الحسين عليه السلام في المجالس. كان ذا لحية خفيفة، وعلى رأسه عمامة كبيرة، وكان يركب حماراً صغيراً سريع العدو. كان بيته في الزقاق المجاور لزقاقنا، ويمرّ كلّ يوم من أمام بيتنا قاطعاً الأزقّة بسرعة على حماره.

ذات يوم كنت ألعب الكرة الطائرة مع أصدقائي، وقد مارست هذه الرياضة أكثر من غيرها، فكنت أنزع العمامة حين اللعب مكتفياً بارتداء القباء، وهو أيضا من ملابس الطلبة وعلماء الدين. وخلال اللعب لمحنا الشيخ الفائقي مسرعاً على حماره من بعيد، فاتفق الصبية أن يسخروا من الشيخ، وحينما اقترب صاح الجميع، وأنا معهم: «آشَيخ، آشَيخ»! الكلمة وحدها ليست لفظة نابية؛ لأنّها مخففة «آقا شيخ» أي: السيد الشيخ، ولكنها حين تطلق جماعيّاً مقرونة بالضحك فإنها أمارة السخرية.

حين وصل إلينا، أدار رأس حماره نحونا، وكرّ علينا غاضباً، ففرّ الصبية، ووقفت. ترجّل عن حماره، ودنا مني، وكان يعرفني ويعرف والدي، ويعرف أنني معمّم. وقال بابتسامة هي مزيج من دهشة وعتاب ولطف: لماذا أنت يا سيدي العزيز؟!

* حرب الشائعات

كان هذا الجوّ نتيجة خطة مدروسة جُنّدت لها الشائعات لفصل علماء الدين عن المجتمع والحياة. لا أزال أتذكّر شائعة كانت رائجة بين الناس، قصتها تدور حول جماعة من علماء الدين كانوا جالسين للسمر في مشارف مشهد. وكان أمامهم «سماوَر»* عليه إبريق شاي. فوضعوا

---

* مرجل معدني خاص لغلي الماء وعمل الشاي.

في السماور عرقاً وفي الإبريق شراباً، وكانوا يسكرون ويعربدون!

كان كثير من الناس يقول: رأيتُ هذا المشهد بعيني، وبعضهم كان يقول: سمعت من رأى ذلك بأم عينه!

والقصة واضحة الافتعال، فلماذا وضعوا الشراب والعرق بهذا الشكل؟ وما الداعي لأن يجلسوا في العراء وأمام الأنظار مثل هذه الجلسة؟! كل ما في القصة يوحي بكذبها، ومع ذلك سمعتها من أكثر من شخص، وكلهم يقول: رأيت.. أو سمعت من رأى!

إن علماء الدين يحملون مسؤولية الدفاع عن الإسلام تجاه كل انحراف في المجتمع، ويرون أن واجبهم يقتضي مقارعة تسلط كل ظالم أو أجنبي على المجتمع الإسلامي.. وانطلاقاً من هذه المسؤولية كانت لهم مواقف صلبة في تاريخ إيران المعاصر إزاء المحتلين والطغاة والمستبدين. من ذلك موقف الميرزا القمي[19] تجاه الروس، فقد أصدر فتواه الشهيرة في رسالته المعروفة باسم «الرسالة العباسيّة» في زمن عباس ميرزا ابن فتح علي شاه حين كان يحارب الروس، وعباس ميرزا كان مخلصاً نسبيًّا، ولم يكن خائناً لوطنه. ومن ذلك موقف المرجعية الدينية في حادثة التنباك[20]، وكذلك موقف علماء الدين في الحركة الدستورية.

خذ أيضاً على سبيل المثال موقف المرحوم مدرّس[21]. لقد رشّح نفسه في الدورة الأولى لمجلس الشورى نائباً عن مدينة إصفهان، فحاز على الأكثرية الساحقة من الأصوات، وأصبح أحد الفقهاء الخمسة في المجلس ممن لهم حق نقض القانون إن كان مخالفاً للشريعة الإسلامية.

وفي الدورة الثانية رشح نفسه عن مدينة طهران، فكان الأول من حيث عدد أصوات الناخبين.

وهكذا في انتخابات الدورة الثالثة والرابعة. وفي الدورة الرابعة حدث أن انتقلت السلطة من القاجارية إلى البهلوية، فعارضها مدرّس، وعارض تصرفات رضا بهلوي. تأتي انتخابات الدورة الخامسة، ويرشح مدرّس نفسه، فتخرج النتيجة دون أي صوت لصالحه! ويرفع مدرّس صوته قائلاً: لقد صوتت لنفسي، فأين صوتي إذاً؟!

من هذه الأمثلة نعلم أن علماء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ اجتماعي عظيم، وينطلقون في مواقفهم من مبادىء تؤمن بها الأمة وتقدّسها، وتسترخص الحياة في سبيلها. وهذه المبادىء ترفض الظلم والسلب والنهب والخضوع للأجنبي. لذلك كان لا بدّ للطغاة من أن يخططوا من أجل عزل علماء الدين عن المجتمع، وفصلهم عن كلّ جوانب الحياة، بما في ذلك الحياة السياسية. فلجأوا إلى كلّ السبل من أجل تحقيق هذا الهدف، ولو تطلب الأمر قتل العلماء وسجنهم ونفيهم.

في سنة 1354هـ.ق/1935م حدثت مأساة مسجد گوهرشاد[22]، فقتل فيها من قتل من الناس واعتقل كثير من العلماء، منهم:

السيد هاشم الميردامادي جدّي لوالدتي، والسيد على أكبر الخوئي والد السيد الخوئي، وكان يكبر والدي بعقدين تقريباً، وكان صديقاً لوالدي، والشيخ حبيب الله ملكي، وهو أيضاً من أصدقاء والدي، وعقد لوالدي في زواجه، وعقد لي أيضاً، ومن تلاميذ الآخوند، والسيد عبد الله الشيرازي، والشيخ صاحب الزماني الأرومي، والحاج المحقق، والد الدكتور مهدي المحقق، والشيخ إسماعيل التائب، صاحب الرسائل العرفانية، والحاج آقا حسين القمي الذي ذهب إلى طهران[23] لنصيحة رضا شاه، فأُخذ ونُفي إلى خارج إيران.

وبالمناسبة كان والدي في طريقه إلى المسجد؛ إذ لاقاه صديق له في الطريق، وأخبره بما حدث في مسجد گوهرشاد[24]، وصرفه عن الذهاب. نعم، اعتقل ما يقرب من عشرين عالماً في حادثة گوهرشاد، وأنا طلبت بعد الثورة صورهم من ملفاتهم، فرأيت تحتها عبارة: «الجريمة: السياسة»، أي: التدخل في السياسة!

كانت فلسفة نظام بهلوي هي الفصل بين الدين والمجتمع، ومذكرات فردوست[25] توضح ذلك بجلاء.

في حضرة الأساتذة

* المدارس والمراحل

واصلت أنا وأخي الأكبر الدراسة في الحوزة العلمية بعد الابتدائية؛ لأنّ الوالد منعنا من الدراسة في المدارس الرسمية خشية الخروج من زيّنا الديني. طالب العلوم الدينية يبدأ أولاً بدراسة علوم اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع.

كنت قد قرأت بعض كتاب «جامع المقدمات» حتى نهاية الأنموذج وأنا في الابتدائية. بدأت دراسة كتاب «الأمثلة» مع والدتي، لكنها لم تواصل، فواصلت مع أستاذ آخر، وقرأت عند والدي صرف مير ثم قرأت عند أستاذٍ «العوامل المنظومة»، وكنت مشغولاً بالأنموذج حين فرغت من الابتدائية.

في مدرسة سليمان خان[26] (السليمانية) التي كانت تحت إشراف الشيخ حسين البجستاني، واصلت دراسة المقدمات والسطوح. كان الشيخ البجستاني من العلماء الفضلاء وصديقاً لوالدي، وكان يرأس المدرسة من قِبل الشيخ أحمد الكفائي ابن الآخوند الخراساني.

والبجستاني عيّن لي أستاذاً هو الأستاذ علوي فدرست عنده «الصمدية»، وذهب هذا الأستاذ بعد ذلك لدراسة الطب وأصبح طبيباً. ثم عيّن البجستاني لي أستاذاً آخر هو الشيخ المسعودي وقرأت عنده السيوطي و«المغني».

في سنة 1372هـ.ق/1953م انتقلت من مدرسة السليمانية إلى مدرسة نواب[27]، وفي هذه المرحلة تفجّرت في نفسي الكفاءات والطاقات، وشعرت بنَهَم لتلقي الدروس، وبقدرة فائقة على استيعابها.

بعد المغني درست «المطوّل». وهنا أؤكد على أهمية كتابَي «المطوّل» و«المغني»، فالأول مفيد في علوم البلاغة؛ لكنه يستغرق وقتاً طويلاً، والثاني كتاب لا نظير له في علم النحو.

وفي الفقه وأصوله بدأت بالشرائع مع والدي، وواصلت حتى باب الحج. وكان والدي آنئذ يدرّس أخي الأكبر «شرح اللمعة»، ووصل معه إلى باب الحج في هذا الشرح، فالتحقت بالوالد، وبذلك انتقلت إلى دراسة هذا الباب في شرح اللمعة، وأصبحت زميلاً لأخي بعد أن كنت تلميذه في بعض الدروس. درست ثلاثة أرباع كتاب شرح اللمعة عند الوالد، وربعه عند السيد أحمد مدرس اليزدي.

قبل ذلك درست «معالم الأصول» عند السيد جليل الحسيني، وكان صديقاً لوالدي. ثم درست «الرسائل» و«المكاسب» عند والدي، وعند الشيخ هاشم القزويني، وهو بحقّ أستاذ مقتدر لم أرَ أفضل منه في أسلوب التدريس.

انتهيت من «الرسائل» و«المكاسب» و«الكفاية» وأنا في السابعة عشرة من عمري. شاركت في بحث الخارج سنة 1376هـ.ق/1956م،

وفي السنة التالية رحلت إلى العراق في زيارة، ومكثت في النجف الأشرف أشهراً حضرت خلالها دروس كبار العلماء هناك، لأقارن بين دروس هؤلاء الأساتذة ودروس حوزة مشهد. حضرت بعض دروس السيد الخوئي[28]، والسيد الحكيم[29]، والسيد البجنوردي[30]، والسيد الشاهرودي[31]، والميرزا باقر الزنجاني[32]، والميرزا حسن اليزدي.

في أواخر دراستي للكفاية التحقت بتشجيع من والدي بدرس السيد الميلاني[33]. والسيد الميلاني ورد مشهد سنة 1374هـ.ق/1954م، وبدأ بتدريس الفقه من أول كتاب الإجارة، واستمر سنتين، ولم أحضر هذه الدروس. وحضرت في درسه حين بدأ كتاب الصلاة. بقيت سنتين ونصف السنة مع السيد الميلاني، حتى أواسط سنة 1378هـ.ق/1958م؛ إذ انتقلت إلى مدينة قم، وبقيت في هذه المدينة حتى سنة 1384هـ.ق/1964م؛ إذ عدت إلى مشهد، وبقيت فيها حتى انتصار الثورة الإسلامية عام 1979م.

كنت أدرس الخارج مع والدي أيضاً، ولأنّ تدريس الخارج يحتاج إلى جهدٍ كبير في المطالعة والتحضير من خلال المصادر المتعدّدة، بينما لم يكن والدي قادراً على بذل هذا الجهد الكبير، لذلك لم يكن الدرس معه جادًّا. وقد اعتدت على كتابة الدروس بالعربيّة، بطريقة حاولت أن تكون مبتكرة في العرض والتبويب.

* الوالد الأستاذ

عوّدنا الوالد أن لا نضيّع أي فرصة، ولا يفوتنا أي يوم دون استثماره في الدرس والمباحثة. كان يستغل فرصة تعطيل الدراسة في الحوزة أيام

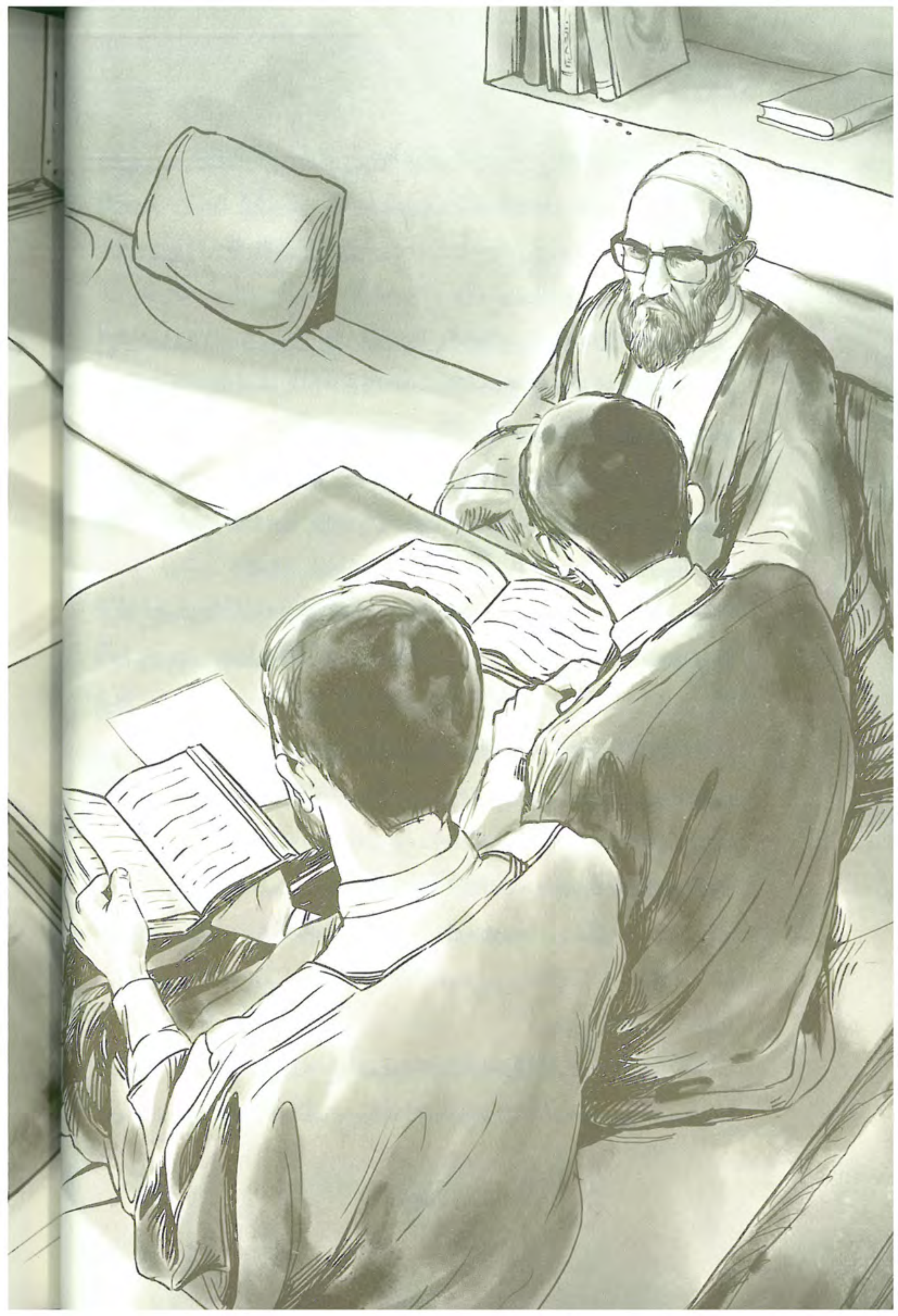

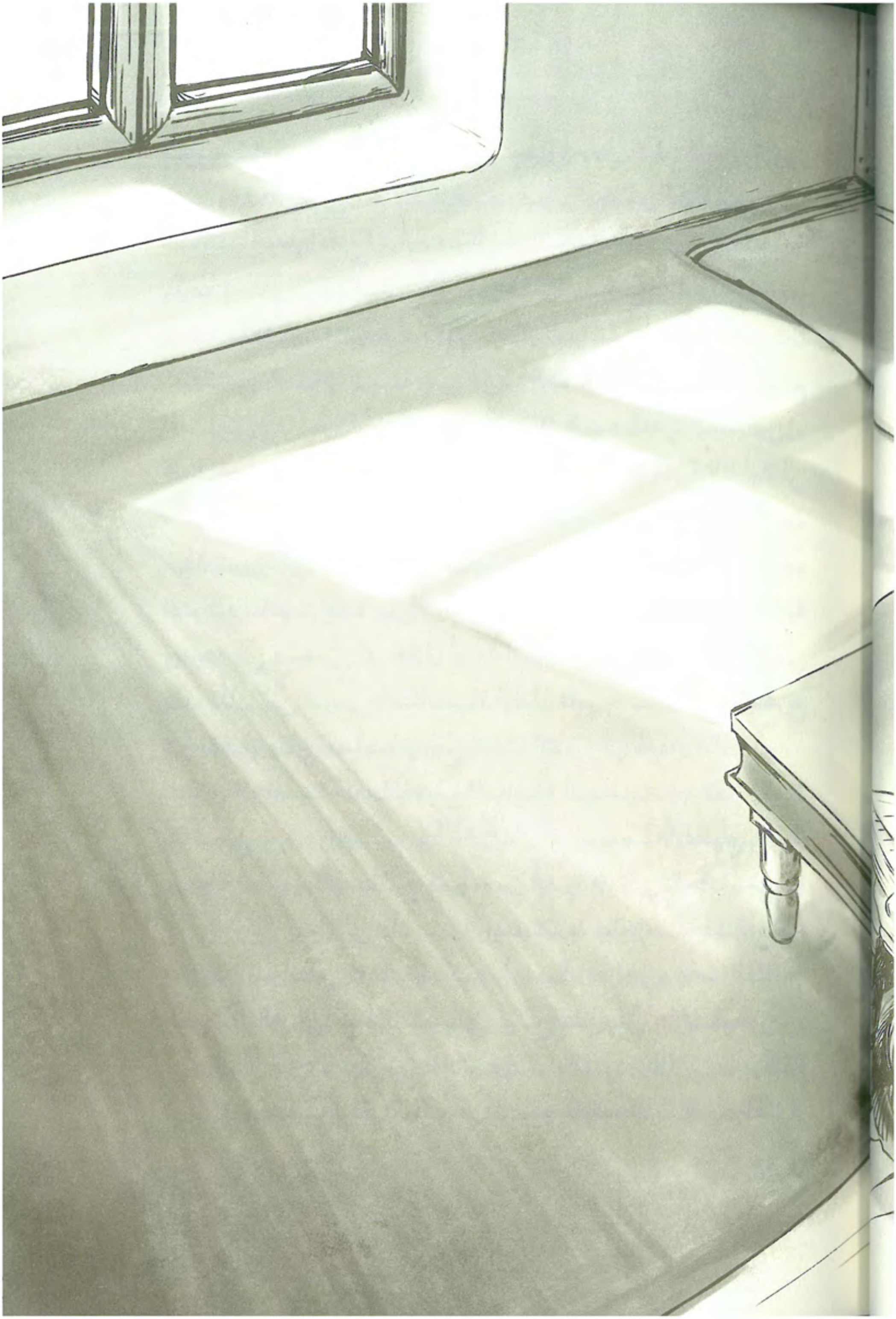

شهر محرّم، وخلال أشهر الصيف، فيدرّسني خلال الأيام السبعة الأولى من شهر محرّم، وفي الثلاثة التالية ينصرف إلى مجالس العزاء الحسيني. كان يرفض وجود شيء اسمه «عطلة صيفية»، ويقول: نحن كنا نواصل دروسنا خلال أشهر الصيف في مدينة النجف الأشرف على الرغم من قسوة جوّها وشدّة حرارتها، فكيف تُعطَّل الدراسة في مشهد؟!

وكتاب المطوّل درسته في أشهر العطلة الصيفية. كان الشيخ الفشاركي يأتي من قم إلى مشهد في الصيف، ويقضي فيها شهرين. كنت قد عرفته من بعيد؛ لأنّه سبق أن درّس علوم اللغة العربية في مشهد قبل أن ينتقل إلى قم، ثم درّس هذه العلوم في قم. طلبت منه أن يدرّسني المطوّل في مشهد، فاستجاب. وكنت أواصل معه الدراسة ساعات طوالاً من اليوم، فأنهيت المطول ببيانه وبعض معانيه وبديعه في صيفين، أي خلال أربعة أشهر. ثم عرف الشيخ الفشاركي بعد ذلك أني أَدرس «المكاسب» أيضاً، فاستغرب لتقدمي السريع في الفقه، وكان هو أيضا يَدرُسُ هذا الكتاب في قم.

كان الوالد يشرف على هذه المواصلة المستمرة، ويدفعنا نحوها بالتشجيع تارة، وبالشدّة تارة أخرى، وكنت منصاعاً لمنهج الوالد ومنفّذاً لرغبته. كان ينشرح كثيراً حين أُبدي له رأيي الخاص في ما أدرس. وكان يقول لي وأنا بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة: أنت مجتهد وقادر على الاستنباط. كنت أتباحث مع أخي، وبعد المباحثة يدعونا الوالد إلى غرفته، فيسأل ويوضّح ما انغلق علينا فهمه.

أذكر أن البيت كان من ثلاث غرف، لوالدي غرفتان، غرفة كبيرة نسبيًّا لضيوفه، وغرفة لمطالعته وطعامه (كالحجرة لطالب العلم)،

وغرفة واحدة لنا جميعاً: 4 إخوان و 4 أخوات والوالدة! وإذا صدف أن كان للوالدة ضيوف أو مجلس ذكر، كنا نضطر إلى البقاء خارج البيت. كان في غرفة الوالد الخاصة منضدة يبلغ طولها 80 سنتيمتراً وعرضها 40 (وهي تستعمل للتدفئة أيضاً في الشتاء بوضع مجمر تحتها، وتسمى: «الكرسي»). كان الوالد يتربّع عند عرض المنضدة، ونحن نجلس في جانب الطول على جهة واحدة، وكنا أنا وأخي نتنافس على المكان البعيد عن الوالد، لهيبته وجدّه أثناء مذاكرته لنا.

لا شك في أنّ لحدّة الوالد وشدّتِهِ سلبياتٍ، لكني لا أنكر إيجابياتها، فهذه الشدّة جعلتنا منضبطين، وأبعدتنا عما وقع فيه بعض أبناء العلماء من انحرافات بسبب تسيّبهم. وكان من آثار ذلك أيضاً أني أنهيت علوم اللغة العربيّة وسطوح الفقه وأصوله خلال خمس سنوات ونصف السنة.

*** هواياتي**

خلال الأعوام الستة من دراستي في حوزة مشهد، كانت لي ذكريات كثيرة، أذكر واحدة منها: وهي ولعي بمطالعة القصص والروايات المشهورة العالمية والإيرانية. ولعلي قرأت كل روايات ميشيل زيفاكو وتبلغ عشراً، وقرأت روايات ألكساندر دوما الأب والابن، كما طالعت جميع الروايات الإيرانية أو أكثرها.

ولقراءة هذه الروايات أثر محسوس على الذهن وأسلوب الكتابة.

زرت العراق لأشهر سنة 1377هـ.ق/1957م، فاصطحبتُ بعض الكتب معي لاعتزازي الشديد بها. ثم ذهبت إلى المكتبة الشوشترية في النجف الأشرف، وفيها -بالمناسبة- عدد كبير من كتب عمي السيد

محمد، موقوفة عليها. وهناك استنسخت بعض الكتب. ثم عدنا مع الأهل إلى إيران عن طريق البصرة، ومنها إلى خرمشهر، وركبنا القطار من خرمشهر إلى طهران. وفي طهران فقدت هذه الكتب مع عدد من الجنسيات! أقمت الدنيا وأقعدتُها، وبحثت في كل مكان، وذهبت إلى مستودعات سكك الحديد، وفتشت عنها طويلاً، ولكن دون جدوى! عدت إلى مشهد مهموماً حزيناً آسفاً. بعد سنتين تقريباً وصلت رسالة من صاحب سيارة أجرة (تكسي) يقول: لقد وجدت صُرّة متروكة في سيارتي، ففتحتها لأتعرّف على علامة لصاحبها، فلم أجد سوى كتب وجنسيات. ثم رأيت صاحب الجنسيّة معمَّماً، فسألت بعض المعمّمين في طهران، فدلّني أحدهم على عنوان «المسجد» في مشهد. وهكذا عادت الكتب.

ضفاف دجلة

* حبّ اللغة العربيّة

أمي عربية النشأة، رحل جدّها من إصفهان إلى النجف، وهو من أسرة الميردامادي المتوطّنة في نجف آباد من أعمال إصفهان، ولها فروع في النجف الأشرف.

والدها من العلماء الفضلاء، ولغته عربية، فالوالدة نشأت في بيت يتكلم العربية. قبل بلوغها رحلَتْ إلى إيران مع أسرتها، ولذلك كانت تتقن العربية الدارجة في النجف. وكانت الوالدة تتقن القرآن، وعلى علم بالحديث الشريف وبالكتب العربية.

هذه كانت البداية..

وفي المدرسة الابتدائية تعلمت قواعد اللغة العربية من خلال كتاب «جامع المقدمات» عند بعض المعلمين المعممين في المدرسة.

في الحادية عشرة أو الثانية عشرة بدأت بدراسة علوم العربية بشكل جادٍّ متواصل. كل أشقائي كانوا يشاركونني هذا الجوّ، غير أني كنت مولهاً باللغة العربية بشكل خاص.

كان العراقيون يزورون مشهد على شكل مواكب، ويتجمعون في صحن الإمام الرضا عليه السلام، فيتلون الأشعار، ويلقون القصائد. كنت أقف ساعات طويلة مشدوداً إليهم، أستمع بإصغاء شديد إلى كلماتهم، وأستأنس كثيراً لأقوالهم.

يعتريني شعور خاص حين استمع إلى اللغة العربية، وأهتزّ من الأعماق لسماع هذه اللغة. كنت دائماً أحب لو عشت شطراً من أيام طفولتي في منطقة عربية، سواء في إيران أو غيرها؛ لكثرة حبي لتعلّم العربية. والواقع أن الإيرانيين عامة، والمتدينين منهم بشكل خاص، يحبّون اللغة العربية بدرجة وأخرى. والعلاقات الأخوية القائمة على مرّ التاريخ الإسلامي بين الإيرانيين وجيرانهم العرب ليس لها نظير بين أي شعبين من شعوب العالم في سعتها وعمقها وشمولها. من هنا نستطيع أن نفهم فداحةَ الخسارة وعظمَ الجريمة في الموقف الذي اتخذه بعض العرب، باسم العروبة، في الدفاع عن العدوان الغاشم على دولة الإسلام في إيران، وهم على علم بما يحمله المعتدي من روح عدوانية، وبما يؤدي إليه موقفهم هذا من تبديد لهذه المشاعر الإنسانية الفريدة.

* بين الفصحى والعاميّة

كنت في سفري إلى العراق أبذل الجهد كي أتكلم باللغة العربية فقط. لكني كنت أواجه أحياناً مشكلة الفرق بين الفصحى والعامية.

من ذلك ما وقع لي في النجف سنة 1377هـ.ق/1957م؛ إذ أرسلتني والدتي لشراء الأرز من بقّال المحلة. كانت في البقالة امرأة بائعة، فقلت لها: «عندكم رُز؟»، قالت باستغراب: «رز؟! شنو رُز؟!»،

قلت: لها: «رز»، ثم بدأت أوضّح لها بالإشارة معنى الرز، فلم تفهم، ولكي ترتاح مني قالت: «ما عندنا رز». عدت إلى أمي وأخبرتها، فضحكت، وقالت: قل: «تِمّن»، لا رز. وذهبت هي واشترت «التمن».

ولحبّي للغة العربية كنت أبحث خلال سفري إلى العراق عن منطقة لا تتحدث الفارسية. ولما كان أهالي المدن المقدسة يحسنون الفارسية غالباً، كنت أذهب من الكاظمية إلى بغداد كي أتكلم بالعربية وحدها.

ذات يوم كنت أتمشى على ضفاف دجلة، فوصلت إلى مقهى جلست فيه، فتحت صحيفة، وأشعلت سيجارة* ، وطلبت الشاي. ما كان المقهى مزدحماً؛ بل كان فيه عدد قليل من الزبائن. رأيت عامل المقهى يصبّ الشاي وينظر إليّ بتعجّب، ويتحدّث إلى صاحبه. ثم طلبت كوب شاي آخر. عندما أردت الخروج ودفع المبلغ، لفتت نظري صورة معلقة في المقهى تدلّ على أن صاحبها مسيحي. فعرفت سبب استغراب عامل المقهى الذي رأى رجلاً معمماً يجلس في مقهاه. ومرّة كنت أتجوّل في شوارع بغداد، فضللت الطريق، وسألت أحد المارّة عن شارع الرشيد؛ لأنّي إذا وصلته أعرف كيف أعود منه إلى الكاظمية. عرف من لهجتي أنني إيراني، فقال: «شارع الرشيد را مى‌خواهى؟» أي «أتريد شارع الرشيد؟»!

* الترجمة من العربيّة

في سنة 1379 أو 1380هـ.ق/1959 أو 1960م، وحين إقامتي في قم كنت أتردّد على بيت الشيخ الكرَمي -وهو من علماء خوزستان- لمطالعة الكتب العربية المعاصرة. قرأنا بعض كتب جبران خليل

---

* كان ذلك ما قبل انبلاج نور الثورة الإسلاميّة، ولم يستمرّ بعد ذاك.

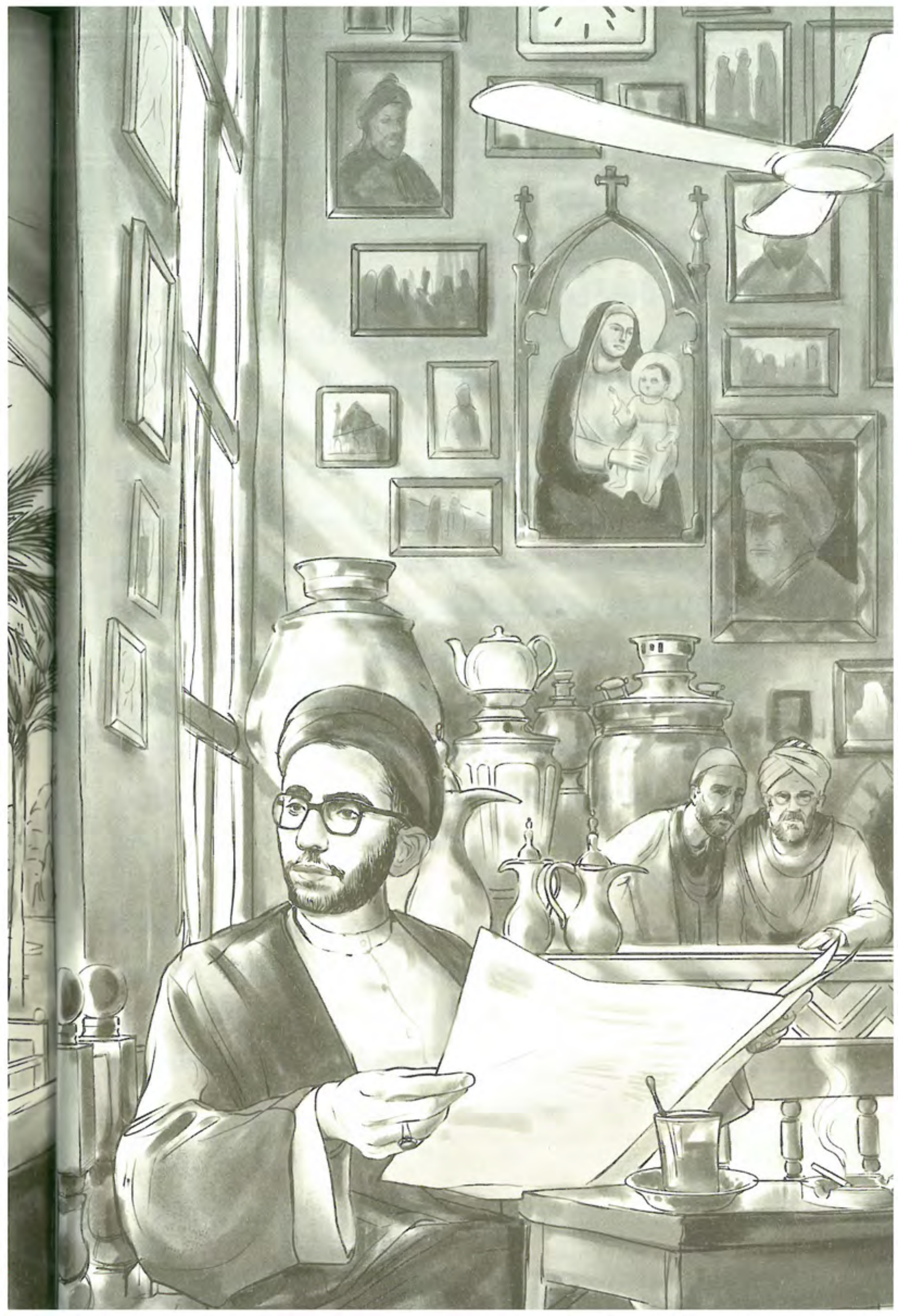

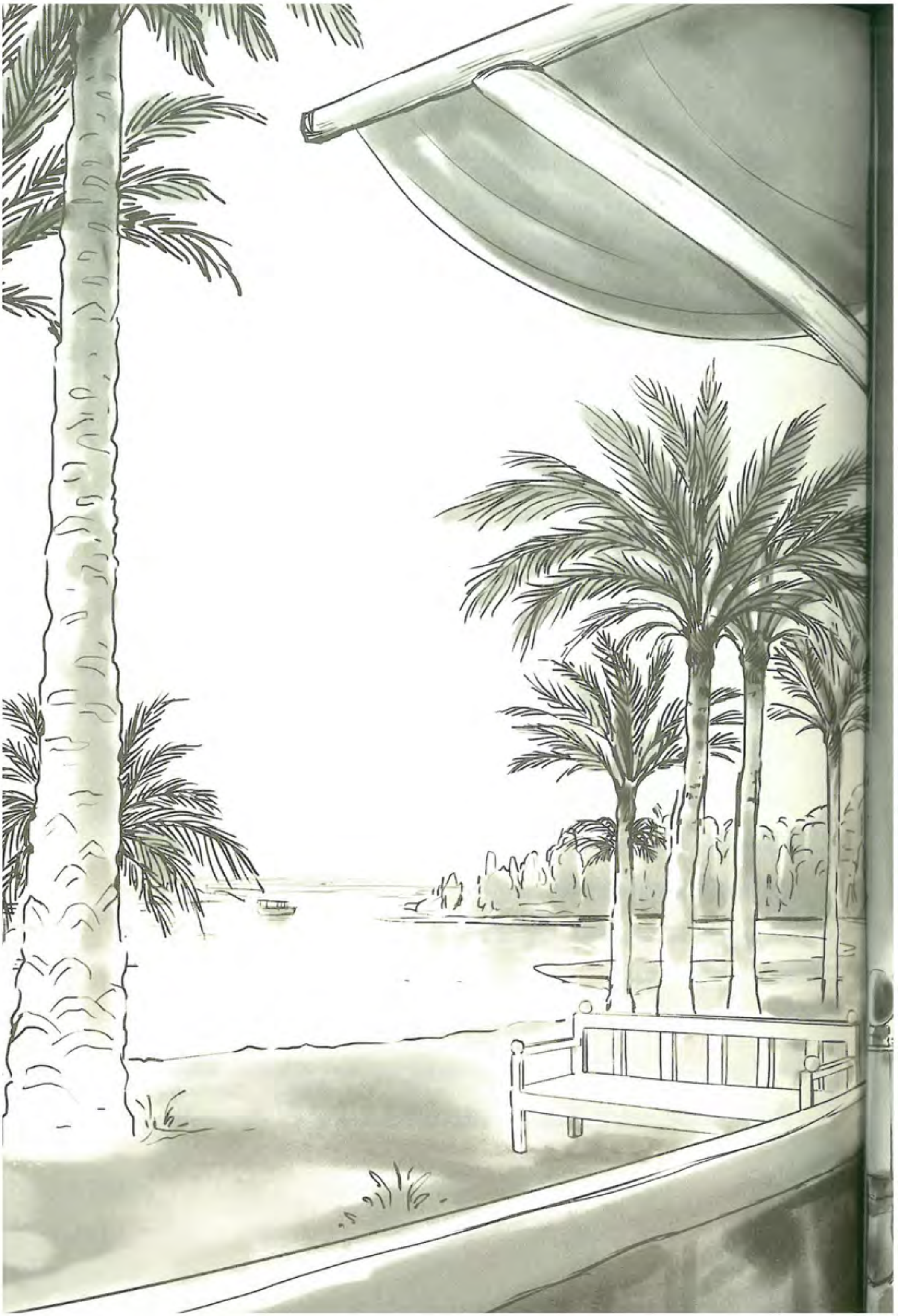

جبران[34]، وترجمت آنئذ كتابه «دمعة وابتسامة»، ولا أزال أحتفظ بالترجمة. وهي أول أعمالي في النقل من العربية إلى الفارسية.

ثم ترجمت بعد ذلك لمحمد قطب وسيد قطب[35]، وكان أكثر ذلك داخل زنزانات السجون. ترجمت أكثر كتاب «شبهات حول الإسلام» لمحمد قطب، ثم علمت أنه تُرجم قبلي مرتين، فتركته. وترجمت كتاب «المستقبل لهذا الدين» لسيد قطب. وأثار هذا الكتاب في ذهني موضوعات كثيرة للتفكير والبحث أضفتها إلى الكتاب. وكانت هذه الإضافات سبباً لمزيد من الإثارة لجهاز السافاك. وترجمت كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» لسيد قطب أيضا مع مقدمة هامّة.

ومما ترجمته أيضا من العربية إلى الفارسية الجزء الأول من كتاب «في ظلال القرآن» في طبعته السادسة. كان أحمد آرام قد ترجم كلّ الطبعة الأولى، غير أنّ المرحوم سيد قطب أضاف كثيراً على كتابه في طبعته السادسة، فاقترح أحدهم عليّ ترجمة هذا الكتاب لقاء 2500 تومان، وكانت ظروفي المالية آنذاك صعبة، فوافقت على الاقتراح. كنت متفاعلاً مع الكتاب بشدّة، وترجمته بكل مشاعري وأحاسيسي، أنفعل ببعض العبارات، فينتصب لها شعر بدني، لا سيما في المقدمة. وترجمت أيضاً كتاب «صلح الإمام الحسن» للشيخ راضي آل ياسين[36]، ضمن اهتماماتي لتقديم أطروحة الإمامة إلى المجتمع في إطارها الإسلامي الصحيح الأصيل.. كما ترجمت كتباً أخرى.

* من النحو إلى البلاغة

ذكرت سابقاً أني درست علوم اللغة العربية على أعلى المستويات، وكنت منشدّاً إلى هذه العلوم، ومتذوقاً لها. ولقد كان انشدادي

بشكل خاص إلى كتاب المغني في النحو، والمطول في البلاغة.

كان قسم البديع في المطول من ألذّ الدروس إليَّ، فقد عشت موضوعات هذا القسم، وتشرّبت نفسي بها، وحفظت كثيراً من الشواهد الشعرية فيها، وهكذا قسم البيان. وأجدني أحياناً أتمتم حتى الآن ببعض تلك الأبيات، كقول الشاعر:

وكــــأن مُحــــمَّر الشـــــقيـ ... ـقِ إذا تصــوّب أو تصــــعّدْ

أعــــلام ياقــوتٍ نُشـــــر ... نَ على رمــاحٍ من زَبَرجَــــدْ

وقول الشاعر:

وكأنّ النــــجوم بين دجـــاها ... ســنن لاح بينــهنّ ابتـــــداع

وهذا من روائع التشبيه. ومن روائع شواهد التشبيه في البلاغة قول بشار:

كأنّ مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

والغريب أن هذا التشبيه الرائع الدقيق يصدر عن إنسان بصير، لايرى الحرب ولا نقعَها ولا سيوفَها.

ومن روائع الشواهد في البديع قول أبي تمام:

يَقُولُ فِي قُومس قَومي وَقدْ أخَذتْ ... منا السَّرى وخُطى المَهرية القُودِ

أمطلع الشـمس تبغي أن تؤمّ بنا ... فقلت كلّا ولكن مطـــلعَ الجودِ

وأبو تمام لم يبلغ شأنه شاعر حتى المتنبي، والمتنبي أخذ كثيراً من أبي تمام.

وقرأت كتاب «الأغاني» بأجمعه، وكان مما شجعني على مواصلة قراءته تذوّقي لأشعاره، ولديّ بعض المقتطفات من الكتاب. طبعاً، كان لي هدف آخر في قراءة هذا الكتاب[37].

كما قرأت الموسوعات العربية الكبيرة في التاريخ وتاريخ الأدب، وكتبت الهوامش والملاحظات خلف غلاف كلّ كتاب.

*** الأبوذيّة**

في سجن «قزل قلعة» سنة 1383هـ.ق/1963م التقيت مجموعة من السجناء العرب الخوزستانيين. وسأذكر تفاصيل علاقتي بهؤلاء الإخوة في السجن عند حديثي عن الاعتقالات، وأكتفي هنا ببيان حرصي على تطوير لغتي العربية خلال لقائي بهؤلاء السجناء العرب.

كانوا جميعاً يعرفون الفارسية؛ لأنّهم إيرانيون، لكني كنت أتحدث معهم باللغة العربية. كان بينهم أديب يحفظ الشعر، وحفظت عنه أبياتاً كثيرة. كان مولعاً بشعر السيد الحبّوبي، ويردده دائماً، واسمه السيد باقر النزاري، وكان يردّد كثيراً هذا البيت:

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وهذا البيت أيضاً:

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرتُ على شيء أمرّ من الصبر

كما كان الإخوة العرب يرددون في السجن نوعاً من الشعر العامّي يسمونه «الأبوذية»، ومما بقي في ذاكرتي منه:

البدر شعّ بجبينك والله لِيله والبَرَد بشفاك يا أدعج والله لِيلَه

مضت ليله بوصالك والله ليله عثر بيها الدهر وهداك ليَّ*

وكان بينهم شاب مثقف لقبه آل ناصر الكعبي، كنت أتحدث معه بالعربية كثيراً. كنت أعلّمه شيئاً من قواعد اللغة العربية؛ لأنّه ما كان يعرف قواعد اللغة على الرغم من أنه عربي. كما طلب مني أن أعلمه اللغة التركية، وتعلمت منه شيئاً من اللغة الإنجليزية.

---

* شع البدر في جبينك وتلألأ، والبرد على شفاهك أيها الأدعج كاللؤلؤ. وقد أمضيت ليلة بوصالك وأي ليلة، عثر بها الدهر وأهداك إليّ.

* الشاعر الجواهري

الأدب العربي المعاصر لم يستهوني بأجمعه؛ بل وجدت في بعضه ما يسيء إلى الذوق العربي واللغة العربية. وأخصُّ بالذكر ذلك النموذج المتأثر بالآداب الأوربية أسلوباً ومضموناً. إنه ليس بأدب عربي ولا أوربي، إنه مسخ يمجّه كل طبع سليم، وذوق جيد. ولذلك رحت أبحثُ عن ذلك الأدب الذي ينسجم مع ما نشأت عليه من تذوق اللغة العربية، ويستند إلى أصالة في اللغة والأسلوب. ولقد قرأت لكبار الكتاب والشعراء المعاصرين المصريين والشاميين والعراقيين.

ولقد وجدت ضالتي فيما وجدت في شعر الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري[38]. والجواهري يتمتع بالأصالة في التعبير العربي، بحكم نشأته الأدبية والدينية الأصيلة في عائلة الجواهري، وفي بيئة النجف الدينية الأدبية. ويمتاز أيضاً بتفاعل شعره مع آلام الجماهير وآمالها، كما أنّه يتميّز بتسجيل مواقف شجاعة تحدّى فيها الحكام الظالمين، وتعرّض بسببها للاعتقالات والسجون.

ولقد ازداد إعجابي بالجواهري حينما حدّثني صديقي الأديب اللبناني الفاضل المرحوم السيد محمد جواد فضل الله[39] عن ثورية هذا الشاعر ومواقفه الصلبة. كما حدّثني عن إنشاد الجواهري قصيدة أمام المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وهذه القصيدة هزّت الشيخ من الأعماق، فلم يتمالك نفسه من فرط الإعجاب، فصاح: أنت والله متنبي هذا العصر، فأجابه الجواهري على الفور: شيخنا كان المتنبي شاعر سيف الدولة، وأنا شاعر سيف الإسلام، ويقصد بسيف الاسلام الشيخ نفسه.

ولا أخفيكم أني بكيت حينما قرأت عدداً من قصائد الجواهري، منها تنويمة الجياع:

نامي جيـــــاع الشعب نامي حرستـــــك آلهة الطـــــعام
نامي فإن لم تشبـــــعي من يقـــظة فمن المـــــنام

ولكني تألمت حين قرأت في هذه القصيدة أبياتاً تنمّ عن فهم خاطئ للدين، ولواجب علماء الدين. يقول فيها:

نامي على تلك العـــــظات الغُـــــرّ من ذاك الإمـــــام
يوصيكِ أن تَدَعي المبـــاهج واللـــــذائذ للّـــــئام
وتعـــوّضي عن كـــلّ ذلك بالســـــجودِ وبالقـــيام

ولقد علّقت في وقتها على هذه الأبيات في هامش صفحة الكتاب، وأبديت استغرابي من غياب حقيقة رسالة الإسلام الثائرة عن فكر الشاعر.. ولكن ترى هل يتحدث الشاعر عن وعاظ السلاطين الذين يحملون مهمة تخدير الناس باسم الدين؟! إذا كان يقصد هؤلاء الوعاظ بالذات، فكان جديراً به أن يخصهم في كلامه.

ومن قصائده التي هزّتني من الأعماق «يوم الشهيد»، وفيها يقول:

تبّاً لدولةِ عاجزين توهـــــموا أن الحكومةَ بالســـياط تُدامُ
وإذا تفجّرت الصدور بغيـــظها حَنَقاً، كما تتفـــــجر الألغام
وإذا بهم عصفاً أكيـــــلاً يرتمي وإذا بما ركنـــــوا إليه ركـــام

ولقد هاجت في نفسي عاصفة حين قرأت أبيات قصيدته «أطبق دجى»:

أطبـــق دجى، أطبـق ضباب أطبق جهـــــاماً يا سحاب
أطبـــق على متبـــــلد ين شـــــكا خمولهمُ الذباب
أطبـــق على المِـــعزى يُرا دُ بها على الجـــوع احتلاب

أطبـــق على هـــذي الكرو شِ يمطّـــها شحـــم مذاب
أطبق: فأنتَ لهـــذه الســـو ءاتِ -عـــارية- حجـــاب
كن ستـــرها لا ينبـــلج صُبـــح ولا يَخـــفق شهاب

وكنت كلما اشتقت إلى الأدب العربي المعاصر، أفتح ديوان الجواهري فأقرأه وحدي أو مع من آنس فيه رغبة في الأدب العربي، فأتذكر الشاعر وغربته، وأتمنى أن يعود إلى وطنه ليجده كما أراد، وقد انجلت عنه ظلمة الليل الطويل. وقبل عامين (شعبان 1412هـ.ق/1992م) وقع في يدي كتاب للجواهري تحت عنوان «ذكرياتي»، فقرأته بشوق كبير، وأتيت على آخره خلال أيام قلائل على الرغم من زحمة الأعمال وتراكمها، وهمّشت على كثير من صفحاته، وربّما وجدته يشير إلى حادثة، فأراجع الديوان لأرى كيف عبّر عنها في شعره.. ثم سمعت بعدها أنه يرغب هو وزوجته أن يزورا مرقد الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في خراسان، فطلبت من الإخوة أن يسهّلوا لهما أمرَ هذه الزيارة، ولكن زوجته توفيت رحمها الله قبل أن تتحقق أمنيتها في زيارة ثامن أئمة أهل البيت، فأوعزت بإقامة مجلس الفاتحة على روحها في الروضة الرضوية المقدسة إكراماً لآل الجواهري ولشاعرهم.

ثم ذهبَ من مكتبي من يعزّي الشاعر، ويدعوه لزيارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية. فلبّى الدعوة فوراً، واتجه إلى إيران. وكان بودّنا أن يعيش الشاعر في ظلّ الإسلام وثورة الإسلام ودولة الإسلام أياماً يرى فيها ما صبت إليه نفسه طوال أيام حياته من أمة عزيزة كريمة ثائرة على الظلم والظالمين، وعاملة على تحقيق الانتصار في شتى ميادين الهدم والبناء.. كنا نودّ أن يرى الإسلام كما تمنّاه حيّاً نابضاً متحركاً ثائراً، ليركن

إليه وتستقرّ عنده نفسه، ويختتم بذلك مسيرة حياته الطويلة بخير.. لكن نفس الشاعر القلقة المضطربة المضطرمة أنّى لها أن تستقر، وأنّى لها أن تهدأ، وقد اعتادت أكثر من ثمانين عاماً على حياة صاخبة مليئة بالصراع والاصطدام والعداء والخصام؟

بقي مدة قابلني فيها وأبدى مشاعره الطيبة تجاهي وتجاه الجمهورية الإسلامية، وقدّم لي كتابه «ذكرياتي» مع أبيات من شعره.*

أردت بهذه الوقفة عند الجواهري أن أبين جانباً من انشدادي إلى الجيِّد من الشعر العربي المعاصر الذي آمل أن يحمل أعباء مسؤولياته في التعبير الصادق عن طموح جماهير الأمة لحياة أفضل.

---

* كان مطلع القصيدة:

سيــدي أيهــا الأعزّ الأجــل　　　أنت ذو منّــة وأنت المــدلّ

وبعث الشاعر بقصيدة أخرى للإمام الخامنئي كان مطلعها:

أبا الحســين تحياتٌ معــطرة　　　في يوم عيــد (غدير) رُحت ترعاه

كــان الوليّ (أمير المؤمنــين) به　　　واليـــوم أنت (ولي الأمر) مولاه

كما بعث قصيدة ثالثة كان مطلعها:

إيران عاد الصــبحُ من أفــراحِ　　　حذر الفــوات فآذني بصــباحِ

وفيها يردّ على بعض الإخوان الذين لاموه -على ما يظهر- لسكوته، فيقول:

قالوا سكــتّ وأنت أفظع ملهب　　　وعيَ الجموع لزندها القــدّاحِ..

لكنه وجد أصحابه ساكتين فسكت:

لكن وجدتُ سلاحَــهم في عطلة　　　فرميت في قعر الجحــيم سلاحي!

الشرارة
الأولى

* رائد الجهاد

عشت منذ صباي فترة هامّة من فترات الصحوة الإسلامية في إيران، امتدّت من انطلاق حركة نواب صفوي[40] رحمه الله، وتواصلت عبر نهضة الإمام الخميني قدس سره، والثورة الإسلاميّة وإقامة الدولة الإسلامية المباركة.

كان المرحوم الشهيد نواب صفوي الشرارة الأولى التي أضاءت أمامي طريق الإسلام بمعناه الحركي الشامل. فهذا الرجل ممّن أثار في المجتمع الإيراني هزّة أيقظت الضمير المسلم من سباته، وحرّكت الهمم، وأوجدت في النفوس غَيرة على الإسلام والمقدسات الإسلامية. ولم يكن تأثيره مقتصراً على إيران؛ بل طاف بعض أرجاء العالم العربي، وألهب الحماس في نفوس المجاهِدين، ونَصَحَ بعض الحكام العرب أن لا يقعوا فريسة خداع المستعمرين.

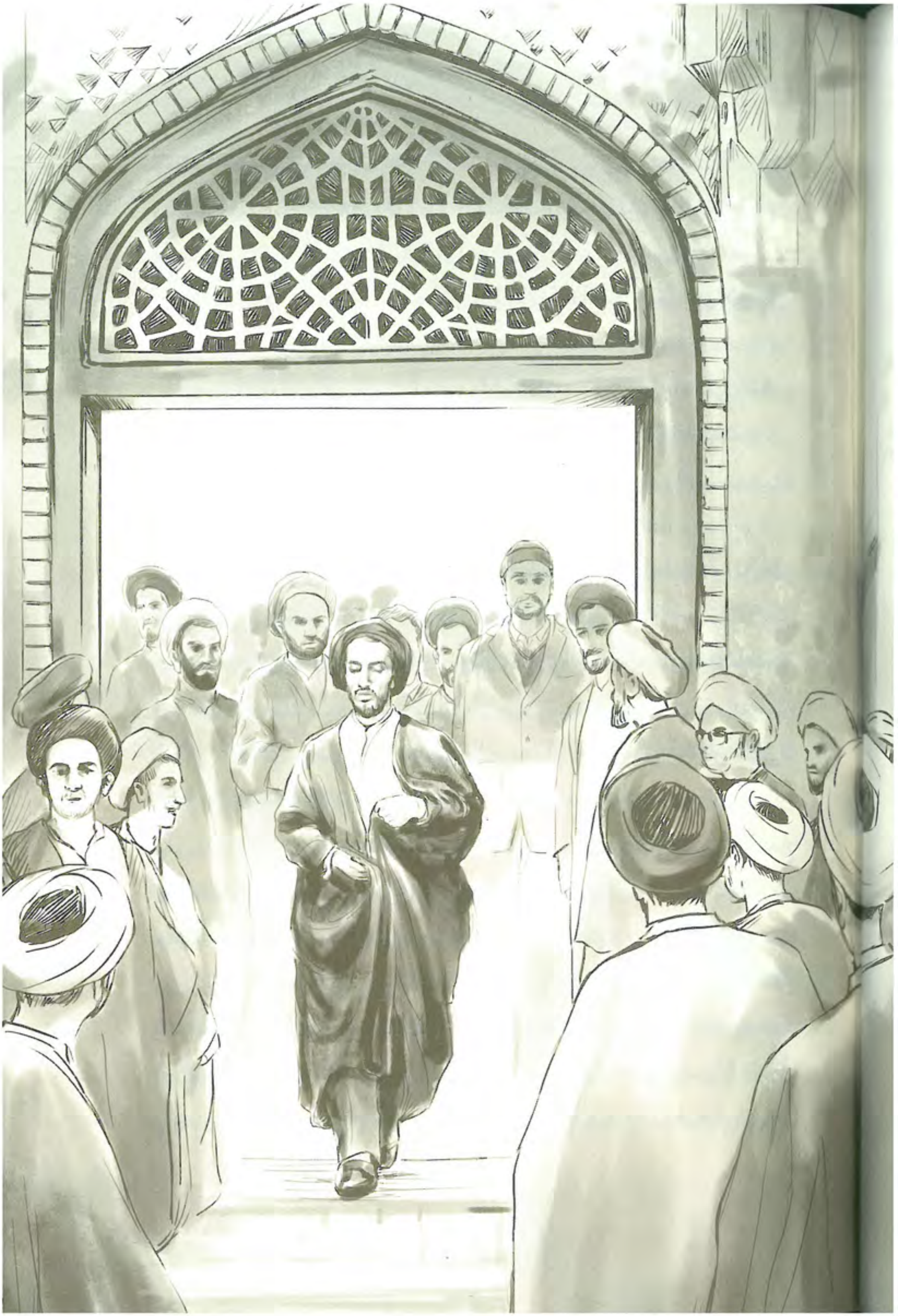

* شوقي لرؤية نواب

سافر نواب إلى مشهد سنة 1373هـ.ق/1953م، ونزل في محل اسمه «المهدية»، وهو شبه مدرسة تهتمّ بذكر المهدي المنتظرعليه السلام، وكان مؤسسها عابد زادة يهتمّ كثيراً بإحياء الخامس عشر من شعبان، ذكرى مولد المهدي المنتظرعليه السلام.

لم ينزل نواب في بيت أحد؛ بل اختار هذا المقرّ الديني العام. كنت آنذاك طالباً في مدرسة سليمان خان، وفي الرابعة عشرة من عمري. ومع شدّة شوقي لرؤية نواب لم أستطع الذهاب إلى المهدية؛ لأنّ الوالد لم يسمح بذلك.

وفي أحد أيام تلك السفرة عزم نواب على زيارة مدرسة سليمان خان ليردّ زيارة من زاره من طلبة هذه المدرسة. سمعت بالخبر فسررت به كثيراً. لقد كان نواب يمثل رمز البطولة والمقاومة الإسلامية في أنظارنا، وكنا نشعر بالعزّة والفخر حين نسمع بتفاصيل نضاله ضد النظام الحاكم، ومنها قتل عميل الاستعمار في إيران ورئيس الوزراء الذي كان وراء الكثير من المظالم وعمليات الكبت الجنرال رزم آرا على يد أحد أعضاء «فدائيان إسلام»[41] وهو خليل طهماسبي، ونسمع أن السيد الكاشاني بارك لطهماسبي إقدامه البطولي هذا، ونعلم أنّ نواب، له أصحاب، وله تنظيم أرهب جلاوزة الحكم وطغاته.

كان في المدرسة حجرة كبيرة تسمّى «مَدْرَس»، كنسناها ورتّبناها، وأعددناها لقدوم الضيف مع صحبه، وبدأنا ننتظر الساعة الموعودة.

فتحت بوابة المدرسة، فدخل مجموعة من الضيوف، وأنا أتطلّع بينهم إلى نواب الذي أحمل عنه في ذهني صورة رجل ضخم عريض

طويل. لم أرَ هذا الرجل الذي كنت أتخيّله؛ بل رأيت بدلاً منه رجلاً نحيفاً قصيراً، على رأسه عمامة سوداء، وله وجه بشّاش، يهشّ لكل من يراه، ويسلّم عليه، وإذا رأى سيداً هاشميًّا يقول له: سلام عليك يا ابن العم. عجيب! هذا هو نواب صفوي الذي دوّخ نظام الشاه؟! في الواقع، منذ أن وقعت عيني على الرجل، وجدت أني منشدٌّ إليه بكل عواطفي، وأني أحبّه من أعماق قلبي.

صحب نواب في هذه السفرة مجموعة من «فدائيان اسلام»، وكان أكثرهم شباباً يرتدون على رؤوسهم قلنسوات خاصة من الفرو، وفيهم ثلاثة يرتدون العمائم. امتلأ المدرس بالناس. وقف نواب، وخطب وتحدّث عن أهدافه السياسية، وحثّ الناس على الاستشهاد في سبيل نصرة الإسلام وإعلاء كلمته. راحت كلماته تموج في نفسي، وتلهب عواطفي، وتشدّني إلى آفاق قوّة الإسلام وعزّته.

* شعلة متوهّجة

بعد يومين سمعت أن نواب يريد أن يزور مدرسة نواب. ومع أن حركتي كانت محدودة ذهبت إلى تلك المدرسة، فرأيتُ الناس ينتظرونه. كان مَدرَسُ هذه المدرسة وإيوانُها مفروشَين استعداداً لاستقباله. انتظرت برهة مع المنتظرين، فرأيتني لا أقوى على البقاء والانتظار لفرط شوقي، فَهمَمْتُ لاستقباله. خرجت إلى الطريق المؤدّي إلى المهدية، فرأيته قادماً والناس وراءه، يمشي ملتفتاً يمنة ويُسرة، ويسلّم على الناس، ويتحدث إليهم بحرارة شديدة، يخاطب المارّة، يشدّ من عزيمتهم تارة، وينصحهم تارة، وكلّ جسمه يتحرّك في

الخطاب، ويرتجف عندما يتحدث. رأيت بعيني من رفع قبّعته متأثراً بكلام نوّاب الذي كان يذمّ التشبّه بزيّ الغربيين، ثم طواها بشدّة بيده، وأدخلها في جيبه.

سارعت لأن أكون في الصفّ الأول من الجالسين أمام نواب في المدرسة. المنظر يتجسّد أمامي الآن بكل تفاصيله. وقف الرجل في مكان مشرف على إيوان المدرسة وفنائها. وكنتُ جالساً أمامه وعند رجله، ومشدوداً إلى كلِّ حركة وكلمة تصدران عنه. أذكر أنه كان يعظ الطلاب، ويدعوهم إلى التزام الورع والتقوى، ويتلو من المأثور في هذا المجال، ولا يزال صوته يدوّي في أذني؛ إذ كان يقرأ: «يا ابن آدم! وفّر الزاد فإنّ الطريق بعيد بعيد.. وجدّد السفينةَ فإنّ البحرَ عميق عميق».

نواب، في الواقع، تحوّل إلى شعلة متوهجة تثير في أعماقي باستمرار الاهتمامَ بأمر الإسلام والمجتمع والتفكيرَ بمستقبل الإسلام.

وجدير بالذكر أنّ بعضَ الخطباء الواعين جاءنا إلى مشهد في زمن السيد الكاشاني وقبل مجيء نواب بعام 1372هـ.ق/1952م، وكنت أشتاق جدّاً إلى مجالسهم والتشرّب مما يلهمونه من روح حماسيّة.

* أهكذا يُفعل بأبناء رسول الله؟!

بعد مضيّ سنتين على تلك السفرة (1375هـ.ق/1955م) استشهد نوّاب، وكنت آنذاك في «مدرسة نواب» أدرس عند الشيخ هاشم القزويني. ومع إعدامه ساد البلاد عامة، والحوزات العلمية خاصة، جوٌّ من الرعب والوحشة والفزع. وكان أستاذنا الشيخ هاشم العالم الوحيد في مشهد الذي كسَرَ حاجز الرعب آنذاك، وأبّنَ نواب في

مقدمة جلسة درسه، واحتجّ بشدّة على إعدامه، وقال بصوت مهيّج: أهكذا يُفعَل بأبناءِ رسول اللهﷺ؟! ورُحنا نحن الطلبة الشباب نعقد الجلسات، ونذكر فيها فضائلَ نواب وصحبه، ومنهجَهم وأهدافَهم، ونعلن اعتراضنا على إعدام هؤلاء المجاهدين.

في السنة التي تلت استشهاد نواب اتفق أن التقينا بمدرّس جاء إلى مشهد ليقضي عطلته الصيفية، ولقبه «قَلّه زاري»، ومن أعضاء «فدائيان اسلام»، لكنه لم يكن مطارَداً من قبل السلطة لعدم وجود وثيقة تدينه. تعرّفنا إليه وأنسنا به، وحدّثنا عن سيرة نواب ورؤاه الفكرية والسياسية، فشُغفت به أكثر، وازداد إيماني بإخلاصه وتفانيه وأهدافه. كنا مجموعة من الشباب المترابطين فكريًّا وعاطفيّاً، وكان قلّه زاري يكبرنا بعشر سنوات تقريباً، لكننا وطدنا معه علاقة وثيقة، وتوالى مجيئه إلى مشهد في صيف كل عام من الأعوام التالية.

* أوّل عمل سياسي

كان الحماس الطافح في مجموعتنا ينتظر فرصة ليُعبّرَ عن نفسه عمليًّا. وحانت الفرصة في محرم سنة 1375هـ.ق/1955م؛ إذ أمر محافظ مشهد أن تُنقص عطلة دور السينما في المدينة لتكون من الأول حتى الثاني عشر من محرم فقط. فقد كانت العادة أن تُعطَّل احتراماً لذكرى عاشوراء وواقعة كربلاء وأربعين الشهداء لا سيما أنها كانت كثيراً ما تعرض أفلاماً مفسدة. كان هذا كافياً ليكون لنا وازعاً للعمل المعارض، فاجتمعنا وكتبنا بياناً يدين هذا القرار، وحرّضنا فيه العلماء والأمة على النهوض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحذّرنا

من مغبّة السكوت أمام المنكرات. لم يكن عندنا أجهزة طباعة، فكتبنا كلَّ نسخ البيانات بأيدينا، وعندي الآن واحدة من تلك النسخ. كان البيان يقع في أربع صفحات، وكانت تستغرق كتابة كل نسخة ساعتين تقريباً. وكان هذا أول خطوة عملية في ساحة العمل السياسي.

* أفكار تغييريّة

حين ذهبت إلى مدينة قم سنة 1378هـ.ق/1958م كانت أفكار التغيير الاجتماعي تموج في ذهني. وبما أني كنت في الحوزة العلمية، فمن الطبيعي أن تستأثر عملية تجديد الحوزة بأكثر اهتمامي. ولقد تحدثت أخيراً (1412هـ.ق/1991م) في قم عن مشروع تجديد الحوزة العلميّة، وهذا الحديث تعود جذوره إلى تلك الأيام.

وبالمناسبة زارني أمس عالم كان يومها من حاشية السيد البروجردي[42]، فتذكرت نقاشاً جرى بيني وبينه في أوائل هجرتي إلى قم. حيث التقيته في بيت أحد أصدقائنا في قم، وكان أخي السيد محمد وصاحب البيت حاضرين، فانتقدت نظام الحوزة أمامه بشدّة، وكان زعيم الحوزة آنذاك السيد البروجردي. واشتدّ النقاش، فهو يدافع وأنا أنتقد، حتى ترك البيت. وبعد ذهابه عاتبني صاحب البيت على تجرؤي في هذا الكلام الذي قد يصل إلى أسماع السيد البروجردي.

* خطّ المعارضة وخطّ التوعية

لا بدّ من أن أذكر هنا مَعلَماً هامّاً من معالم النهضة الإسلامية في إيران، وهو: وجود خطين في هذه النهضة كان التفاعل بينهما يشكّل

المسيرة التكاملية للتوجّه نحو الإسلام في هذا البلد.

الأول: خط المعارضة الدينية للجهاز الحاكم المنبثقة عن عقيدة دينية.

الثاني: خط التوعية الفكرية وتقديم المشروع الإسلامي للحياة بخطاب جديد، أو بعبارة أخرى: خط تجديد الفكر الديني.

ثمة من انتهج خط المعارضة غير أنه لم يحمل فكراً متطوراً عن الإسلام؛ بل كان متحجّراً جامداً في أفكاره، تدفعه غيرته على الإسلام إلى معارضة السلطة المستهينة بحُرمات المسلمين.

وثمة من سار على خط التوعية، وحمل فكراً نيّراً عن الإسلام، وسعى إلى تقديم الدين إلى المجتمع بلغة العصر، وحارب الانحرافات الفكرية، لكنه لم ينتهج خط معارضة السلطة.

في بداية نهضة الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه (1383هـ.ق/1963م) كان عنصر المعارضة هو البارز في النهضة، على الرغم من أن الإمام كان رائداً في مجال التوعية الفكرية. لقد كان التركيز في البدايات على مقارعة الجهاز الحاكم لكونه معادياً للدين. وبعد أن ترسخت روح المقاومة الدينية في المجتمع، وتسنّى للنهضة أن تتّجه نحو تقديم أطروحة الفكر الإسلامي بالشكل المطلوب، تخلّف المتحجّرون، وبقي في المسيرة من كانت له بصيرة في الدين، وأوتي نصيباً من التفتّح. ثم إن كثيراً من شخصيات النهضة الإسلامية آثروا الاتجاه نحو الخط الثاني (خط التوعية الفكرية)، ولا سيما خلال السنوات بين (1386-1397هـ.ق/1966-1977م) حيث كانت أشدّ السنوات على الثائرين، صفّى الشاه فيها كلّ فصائل المقاومة السياسية، وأخلى الساحة منها.

وثمة من كانوا في ساحة المقاومة في بداية حياتهم الجهادية وفي

نهايتها أيضاً؛ لكنهم انهمكوا خلال السنوات المذكورة في التوعية الفكرية، ومنهم الشهداء السعداء مطهري[43] وبهشتي[44] وباهنر[45].

وهنا أقول للتاريخ وللحقيقة إني كنت من المعدودين القلائل ممن مزج بين الخطين في كلّ آنات النهضة، وكنت معروفاً بهذا الجمع. لم أنفك في حياتي الجهادية عن الجمع بين المقاومة والتوعية، وأعتقد أني مزجتهما كمال الامتزاج.

كنت حريصاً على فهم الدين وتقديمه كما أراده الله ﷻ، أسلوباً للسلوك العملي، ومنهجاً للحياة، وتغييراً مستمرًّا نحو التكامل المنشود. وكنت أركز في كلّ أعمالي الفكرية والعلمية وفي محاضراتي ودروسي على هذا المنحى. وهذا التوجّه نحو فهم واعٍ متفتحٍ للإسلام هو الذي دفعني لأن أُقبل على كتب المفكرين الإسلاميين من العرب وغيرهم.

إلى جانب ذلك، كنت أمارس كل نشاط يستطيع أن يعبّئ الجماهير ضد السلطة الحاكمة، وأن يشكّل النواة لقيادة الجماهير في اتجاه إقامة الحكومة الإسلامية.

وكان بين إخواننا من جمع بين هذين الخطين أيضاً، ومن أبرزهم الشيخ هاشمي الرفسنجاني[46]. فقد قلت له مرّة بعد انتصار الثورة الإسلامية: لم يخلُ يوم واحد من أيام حياتنا خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية من مقاومة النظام، وقلت له: لَمْ أنَمْ خلالها ليلة واحدة دون قلق، فليالينا إما في السجن والمنفى، أو في انتظار السجن والمنفى. والشيخ هاشمي رد قائلاً: أنا أيضاً مثلك.

الإخوة في الخط الفكري كانوا يؤيدوننا ويؤازروننا طبعاً. فالشهيد مطهري كان يكبرني بثمانية عشر عاماً، أي بجيل، ومع ذلك كانت بيننا صداقة غير

عادية. كان يسعى إلى دعم مكانتي الاجتماعية، ويذكرني في مجالسه.

الدكتور شريعتي[47] هو الآخر ممن بدأ حياته الإسلامية في ساحة المقاومة ثم انتقل إلى التوعية الفكرية، ولي ملاحظات على فكره.

أشقائي كان بعضهم يمارس المعارضة السياسية، وبعضهم لم يكن، ولكن كنا متعاونين ويؤازر بعضُنا بعضَنا الآخر كما ذكرت.

العمل الإسلامي يتطلب استيعاب كل الطاقات على تنوّع كفاءاتها وأذواقها، والناس مختلفون في ذلك. وفي المأثور: «لَوْ عَلِمَ ٱلنَّاسُ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا ٱلْخَلْقَ لَمْ يَلُمْ أَحَدٌ أَحَداً»*، وهذا لا ينافي الاختيار؛ بل يؤكد وجود الاختلاف في طبيعة أفراد البشر.

أنا أؤمن أنّ العمل الفكري الديني الواعي إذا انفك عن الحركة والمعارضة يصبح جافًّا، وروح المعارضة الدينية إذا انسلخت عن الوعي الفكري تُبتلى بالرجعية والتحجّر، وتركيب المقاومة والتوعية الفكرية يشكل خط الثورة الإسلامية.

---

* الكافي: ج 2، ص 44

بركان الثورة

* حاج آقا روح الله!

سمعت باسم السيد الخميني حينما كنت في مشهد، وهو آنذاك: «حاج آقا روح الله»، وشهرته بين الطلبة كانت في جدّه في التدريس، وكل طالب شابّ مجدّ في الدراسة كان تَوّاقاً للحضور في دروس السيد في حوزة قم.

بعد رحيلي إلى قم سنة 1378هـ.ق/1958م شاركت في دروس أصول الفقه للسيد الخميني، وواصلت هذه الدروس خلال السنوات الست التي قضيتها في قم، وشاركت أيضاً في دروس الفقه للسيد الخميني، ولكن لم أواصل معه، لانتقالي إلى درس الشيخ مرتضى الحائري[48]. ولم يكن هذا الانتقال بسبب ترجيح درس الشيخ؛ بل لعدم ازدحامه، فقد كان الطلبة في درس الشيخ الحائري قليلين؛ لأنّ أسلوب تدريسه لم يكن يجتذبهم على الرغم من أنه كان معروفاً بالفضل.

لكن هذا القليل من زملائي تركوا درس الشيخ الحائري، وبقيت وحدي أواصل الدراسة عنده، وما كان يوجد درس على مستوى الخارج يشترك فيه طالب واحد غير هذا الدرس.

لم يكن الإمام الخميني قبل نهضته سنة 1382هـ.ق/1962م تظهر عليه أي بوادر ثورية. كان أستاذاً جادًّا، زيّه مرتب وفي غاية النظافة، يدخل قاعة الدرس وهو مطأطئ الرأس، لا ينظر إلى أحد من الطلاب، يلقي درسه بجدٍّ، ويجيب عن أسئلة الطلاب ومناقشاتهم بمنتهى الاهتمام، ثم يخرج بالطريقة نفسها دون أن يهتم بإيجاد ارتباط مع الطلاب، لكنه كان محبوباً جدّاً بين الطلبة من تلامذته وغيرهم.

والآن حين أفكر في تلك الأيام أستغرب جدّاً من سكوت هذا الرجل قبل إعلان نهضته. بياناته التي أصدرها بعد إعلان النهضة تدلّ على أنه كان يغلي كالمرجل، ومع ذلك كان ساكتاً. ولطالما قلت: رياضة السيد في السكوت من أكبر الرياضات. إنه المصداق التامّ للإنسان المؤمن.

كان السيد الخميني صديقاً لوالدي، وكلما عزمت السفر من قم إلى مشهد كنت أذهب لأودّعه، فيحمّلني تحياته إلى والدي، وهكذا أفعل عند العودة من السفر، فيسألني عن الوالد. وكنت أراوده أيضاً للسؤال عن بعض الأمور.

حين بدأت نهضة الإمام كنت مستعدًّا تماماً للانضواء تحت لوائها. لقد وجدت فيها كل ما أبتغيه. وأذكر أني كنت مارّاً في أحد أزقة قم سنة بدء النهضة، فرأيت البيان الثاني للإمام الخميني معلقاً على مدخل مدرسة «الحجتية»[49] يخاطب فيه «أسد الله علم»[50] بلغة تموج بقوة الإسلام وعزة علماء المسلمين. التهمت كلماته، وهممت أن

أسجد؛ لأنّه كان يعبّر عن كل عواطفي وتطلعاتي، وعرفت أنه يبقى مع الحقّ ولو بلغ ما بلغ. لقد كانت الحوزة العلميّة في قم تحسّ بيُتم في الواقع بعد وفاة السيد البروجردي، وفي مثل هذه الظروف يبرز الإمام كالطود الأشمّ، يتحدّث مع السلطة الظالمة بمنتهى الشجاعة والقوة والعظمة. وكان من الطبيعي أن يمتلك هذا الموقف كلّ مشاعر الإنسان المتطلّع إلى عزّة الإسلام والمسلمين. وبعد انبثاق النهضة ومساهمتي الفعّالة فيها ازداد ترددي على بيت السيد.

* كيف بدأت الثورة؟

من أجل أن أوضح دوري في نهضة الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، لا بأس في أن أستطرد للحديث بشكل موجز عن بداية النهضة.

بدأت حركة الإمام خريف سنة 1382هـ.ق/1962م حين أعلن استنكاره لقرارات حكومية مخالفة للشريعة، ومنها تبديل القَسَم بالقرآن إلى القسم بالكتب السماوية، وقرارات من أمثالها كانت تستهدف إضعاف شوكة الإسلام في إيران وتحريك مشاعر علماء الدين. تنازلت الحكومة بعد شهرين عن قرارها بعد الضجة التي سادت البلاد، ولكنها بيّتت خطة أخرى. بعد هذا التنازل بشهر عرض الشاه على مجلس النوّاب مشاريع قوانين سميت «إصلاحية»، وهي في الواقع مشاريع أمريكية. استنكر الإمام مشاريع القوانين هذه أيضاً. أعلن الشاه إجراء استفتاء على هذه المشاريع، فاستنكر الإمام الاستفتاء كذلك.

وحينما اشتدت حدّة المجابهة عمد الشاه إلى تحدّي الإمام وكلّ علماء الدين. جاء إلى قم.. إلى عقر دار علماء الدين، ووقف في ميدان

يقع وسط المدينة (أمام مرقد السيدة فاطمة المعصومةعا بنت الإمام موسى بن جعفرعليه السلام)، وألقى خطاباً متهتكاً تهجّم فيه على علماء الدين، وكان متوتراً في كلامه ومضطرباً. وبذلك أقدم على مناورة خطرة.

لم ينثنِ الإمام عن مواصلة الطريق، فراح يصدر البيانات يوميًّا، أو بين يوم وآخر، وكانت تحمل لهجة حادّة صارمة. في مثل هذا الجو أجري الاستفتاء. قالت السلطة: إن 6 ملايين شاركوا في التصويت.

كان الاستفتاء في 29 شعبان 1382هـ.ق/1963م، وفي هذا اليوم وصلنا طهران -أنا وأخي السيد محمد وشخص ثالث- قادمين من مشهد، ومبعوثين من قبل السيد الميلاني إلى الإمام. رأيت بعيني خلوّ مراكز الاقتراع من الناس، حتى في مركز المدينة المزدحم، اللهم إلّا من بعض الأفراد.

صعّد الإمام الموقف بعد الاستفتاء، فناقش العملية والنتيجة. وفي خضمّ هذا التصعيد ظهرت بدايات الاختلاف في الرؤى بين الإمام وبقية المراجع.

* ليس لنا عيد هذا العام

اقترب حلول السنة الهجرية الشمسية الجديدة، واعتاد الإيرانيون على الاحتفال في رأس السنة باستقبال الربيع بفرح وبهجة وملابس جديدة وتزاور و.. ولكن الإمام أعلن قبل ذلك أننا في حالة حداد، وليس لنا عيد هذا العام.

كان سبب هذا الإعلان هو الهجوم على مظاهرة سلمية في طهران ضمت مجموعة من المؤمنين، ومنهم السيد أحمد الخوانساري وهو

من مراجع إيران آنئذ. لقد كان حضور مرجع في مظاهرة شعبية أمراً عجيباً. والأعجب منه هجوم جلاوزة الشاه على مثل هذه المظاهرة التي تضم هذا المرجع الكبير، واعتداؤهم على المتظاهرين بالضرب، حتى أصيب السيد الخوانساري نفسه بضربات عديدة!

بعد إعلان الحداد لبس كل الطلبة الشباب ملابس سوداء كما جرت العادة في الحداد. بعضهم اكتفى بقميص أسود وبعضهم زاد على ذلك، وأذكر أني ذهبت إلى الخياط ليخيط لي قميصاً أسود.

صادف اليوم الأول من أيام السنة الجديدة يوم 24 شوال، أي ليلة 25 شوال، ذكرى وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، حيث يقيم مراجع الدين في قم مجالس ذكر وعزاء في مثل هذا اليوم عادة. كان مجلس السيد الإمام في بيته ومجلس السيد شريعتمداري[52] في مدرسة «الحجتية»، وكلا المجلسين قبل الظهر، ومجلس السيد الگلپايگاني[53] كان عصراً في مدرسة «الفيضية»[54].

بيّت نظام الشاه خطة للانتقام من علماء قم في هذا اليوم بالذات. فجاء إلى قم مجموعة من حرس الشاه الخاص، وكانت خطتهم تقتضي إثارة فتنة في مجالس العزاء، ليبدوا بعدها سطوتهم وقوتهم، ويبطشوا بالعاملين في الحوزة العلمية.

أرادوا أن يثيروا المشكلة في مجلس الإمام، غير أن المجلس كان منعقداً في بيته، وبيته يقع داخل أزقة ضيّقة ملتوية، ولا يمكن لخطتهم أن تنجح في مثل هذا المكان. إضافة إلى أن بعض المعممين قام، ورفع صوته عالياً بوجود مثل هذه الخطة، وهدّد وتوعّد وفوّت الفرصة على أصحاب المؤامرة. حاولوا إثارتها في مجلس شريعتمداري، غير

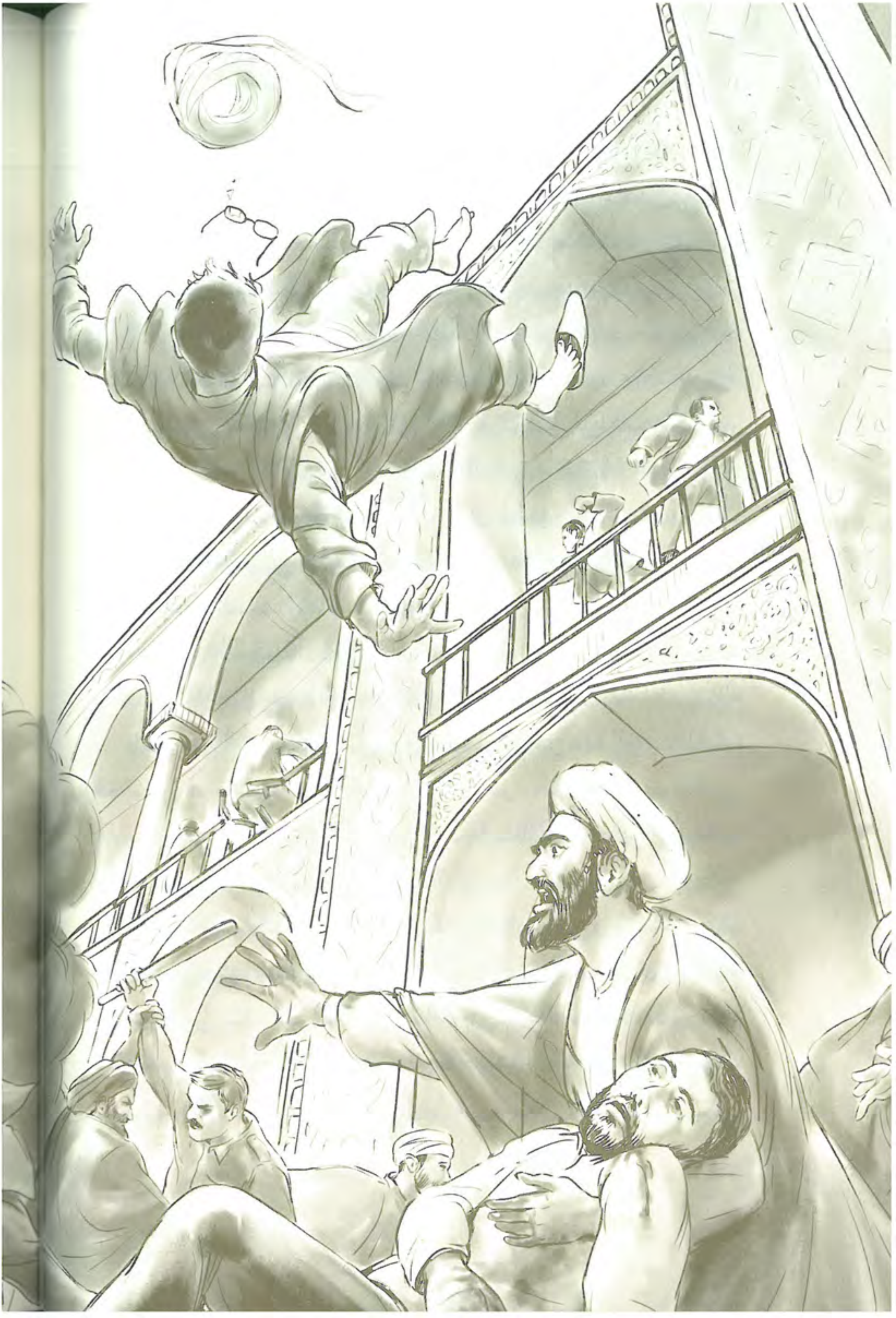

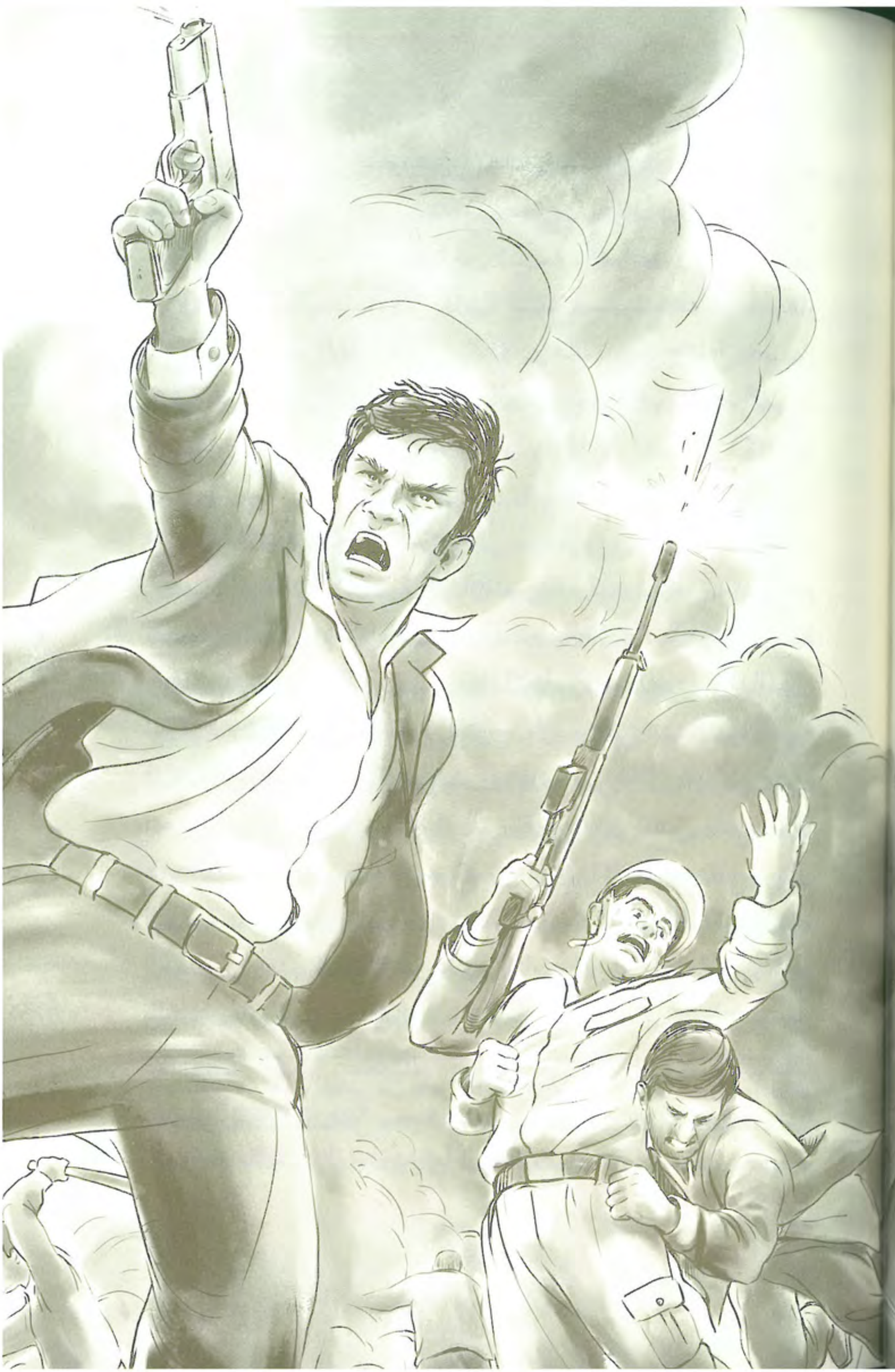

أن أحد «الفتوّات»* المعروف بولائه لشريعتمداري أحسّ بالأمر، فقام وخاطب الحاضرين قائلاً: سأقصم ظهر من يحاول إثارة مشكلة في هذا المجلس. غير أنهم نجحوا في مدرسة «الفيضية».

فقد تحوّل المجلس إلى مأساة كبيرة وسَمَت نظام الشاه بعار لم يفارقه. هجم الجلاوزة على الطلاب فضربوهم، وقتلوا بعضهم، ورموا بعضهم من السطح إلى فناء المدرسة، وأخرجوا أثاثهم البسيط المتواضع من غرفهم وأحرقوه، وفعلوا ما فعلوا مما يطول شرحه.

* خطّة الإمام لشهر محرّم

على أثر حادثة الفيضية أثار الإمام ضجّة كبرى، وأقام الدنيا ولم يقعدها. وكثّف أتباع الإمام جهودهم لفضح ما ارتكبته السلطة في مدرسة «الفيضية»، ولتوعية الناس على خطة النظام الرامية لقمع علماء الدين.

ثم خطط الإمام لشهر محرم، وهو من الأشهر التي تنشط فيها الحوزة للاتصال بالجماهير في كل المدن والقرى من خلال مجالس العزاء الحسيني ومنابر الوعظ والإرشاد التي تقام بشكل شعبي واسع خلال هذا الشهر. وكانت خطة الإمام تقضي أن يبدأ الخطباء بفضح أعمال السلطة على المنابر ابتداء من يوم 7 محرم، بينما تبدأ مواكب العزاء الجماهيرية هذه العملية من اليوم التاسع. وأبلغ العلماء والمراجع بالخطة، وأنا كنت من رُسُل إبلاغ الخطة، فقد بعثني ﷺ إلى مشهد

* مصطلح مستخدم للتعبير عن بعض الأشخاص الشجعان الذين يتصرّفون بمروءة، ويأخذون مواقف شجاعة في بعض الحالات. ويُعبّر عنهم في العراق بالشقاوات وفي بعض البلدان العربية بالقبضايات، كما في لبنان وسوريا مثلاً. (المحرّر)

لإخبار السيد الميلاني والسيد القمي بقراره. وفي بداية محرم توجهت إلى مدينة بيرجند لأقوم بمهمة فضح السلطة وفق خطة الإمام، وجرى ما جرى هناك مما سأذكره في الحديث عن سجني الأول.

نجحت خطة الإمام في إثارة مشاعر الجماهير، وتحولت مجالس العزاء إلى براكين متفجرة ضد الظلم والظالمين من الشاه وأعوانه.

وفي هذا الجوّ المشحون بالسخط على السلطة، والطافح بالعواطف الإسلامية الثورية، أُعلن أنّ الإمام سيرتقي المنبر يوم العاشر من محرم. انشدّت القلوب إلى قم لتعرف ما سيقوله الإمام. وفي اليوم الموعود ألقى الإمام كلمته التاريخية العجيبة، ولم يكن يخطر ببال أحد في إيران أن الإمام سيتحدث بهذه اللهجة الحادّة الصريحة التي خرق فيها كلَّ الحجب والسُّتُر.. ومما قاله في هذه الكلمة:

«...إن إسرائيل قمعت مدرسة «الفيضية» بيد عملائها المفضوحين، فهي تسحقنا وتسحق الشعب، وتريد أن تسيطر على اقتصادنا، وتبيد زراعتنا وتجارتنا.. أيها الشاه! إني أنصحك.. كفّ عن هذه الأعمال.. أرجو أن لا يأتي يوم تضطر فيه للخروج من إيران، والشعب يشكر الله على خروجك!.. لا تتلاعب بمقدرات الشعب.. لا تقف بوجه علماء الدين.. أنصحك.. لقد مضى على عمرك خمس وأربعون سنة. فاسمع النصيحة، وفكّر في عاقبة أمرك، واعتبر ممن سبقك.. اعتبر من أبيك، واستمع إلى نصائح علماء الدين.. هل هم رجعيون؟! هل الإسلام رجعي؟! أهو رجعية سوداء؟! وهل أنت أعلنت ثورة بيضاء؟! أي ثورة بيضاء؟! لماذا تكذب؟ لماذا تخدع الناس؟! أقسم بالله أن إسرائيل لا تنفعك.. والقرآن ينفعك. علمت اليوم أن السافاك اعتقل مجموعة من الوعاظ، وأخذ منهم تعهداً أن لا يتعرضوا إلى الشاه وإسرائيل،

وأن لا يقولوا إن الدين في خطر!.. ما هي العلاقة بين الشاه وإسرائيل؟ هل الشاه إسرائيلي؟! هل الشاه في رأي السافاك يهودي..؟!...»

كان يوم 10 محرم 1383هـ.ق، يصادف 2 حزيران/يونيو سنة 1963م في مساء ذلك اليوم اعتقل الإمام سرًّا، ونُقل إلى طهران. وما إن شاع الخبر حتى وقعت انتفاضة 15 خرداد[55]، ومجزرتها الرهيبة المعروفة. اعتقل الإمام في البداية بنادي الضباط بطهران، حيث أمضى أياماً قلائل، ثم نقلوه إلى زنزانة صغيرة جدّاً ما كان الإمام قادراً على أن يؤدي الصلاة قائماً فيها لصغرها. مكث الإمام هناك ليلتين، ثم نُقل إلى سجن آخر بقي فيه شهرين. ثم أطلقوا سراحه فجأة، وبقي يوماً ونصف اليوم مطلق السراح، وأقام خلالها في بيت بطهران. وحين سمع الناس بإطلاق سراحه، وعرفوا محلّ إقامته هرعوا جماعات وأفراداً نحو البيت، فامتلأت المنطقة بكل شوارعها وأزقتها بالناس. أحسّ النظام بالخطر، فنقلوا الإمام إلى محل إقامة إجبارية في منطقة قيطرية شمال طهران. وبقي هناك ثمانية شهور تقريباً، ثم أطلق سراحه في أوائل سنة 1384هـ.ق/1964م، وعاد إلى مدينة قم، وبقي حرّاً حتى شهر آبان (23 أكتوبر21- نوفمبر) من السنة نفسها، حيث نفي إلى تركيا.

سجني الأول رافق زمن اعتقال الإمام وانتفاضة 15 خرداد، وسجني الثاني رافق وجود الإمام في قيطرية حيث زرته هناك بعد الخروج كما سأذكره في موضعه. وخبر إطلاق سراح الإمام لمدة يوم ونصف اليوم بلغنا، ونحن مع مجموعة من الأصدقاء الشعراء في مصيف من مصايف مشهد، اسمه «أخلمد»[56].

ظلال الشمس

* البدايات

بعد انتفاضة الإمام ماجت قم بنشاطات وحركة متواصلة، غير أنها ما كانت متمحورة حول تنظيم. فكل أصحاب الاهتمامات الإسلامية كانوا يعملون وفق ما يناسب ذوقهم، وما كان أحد يفكر بتنظيم هذه النشاطات حتى الإمام نفسه.

أذكر الآن طلبة العلوم الدينية الذين كانوا يمارسون النشاطات المختلفة بأسمائهم.. كانت مجموعة تهتم بتوزيع إعلانات الإمام.. وجماعة تستنسخ البيانات على آلة الرونيو.. وجماعة تتصل بالإمام لتشير عليه في الأمور المختلفة، وتطرح عليه آراءها واقتراحاتها.. ومنهم من كان يضع الإمام في صورة الأحداث السياسية والاجتماعية.. ومنهم من كان يشكّل حلقة وصل بين الإمام والعلماء.. ومنهم من لم يجد شغلاً فيجد راحتَه ومستقرَّه في بيت الإمام، فكانت غرف بيت الإمام غاصّة بالطلاب حتى مع عدم حضور الإمام بينهم. كان

الطلاب يتجاذبون أطراف الحديث بينهم حول مختلف الشؤون العلمية والسياسية يشاركهم فيها أحياناً السيد مصطفى نجل الإمام[57]. وغير الطلبة كانوا يوفدون إلى بيت الإمام في أوقات الصلاة للائتمام به، وفي مجالس العزاء الحسيني.

وبيوت سائر مراجع الدين المشاركين في النهضة كانت كذلك أيضاً، مثل بيت الگلپايگاني، والمرعشي النجفي[58]، وشريعتمداري، لكن الإمام كان المحور والشخص البارز الجادّ في الساحة، والآخرون كانوا ظلّاً له، وسائرين في ركبه. كان الإمام قائماً بنفسه لا بأحد، بينما الآخرون يتكئون عليه.

وكنت أضطلع أنا بمهام عديدة منها:

- استنساخ بيانات الإمام على آلة الرونيو، ومعي عدد من الإخوة في بيت السيد جعفر الشبيري، ثم تسليمها لمجموعة أخرى من الأصحاب لتوزيعها.

- استنساخ البيانات الأخرى التي تصدر عن جهات سياسية، وكلما وقع بأيدينا بيان مناسب للنشر استنسخناه ووزعناه.

- كتابة بيانات بتوقيعات ذات طابع عام مثل «جمع من العلماء»، أو «جمع من الطلبة»، وكانت اللهجة في هذه البيانات شديدة وعنيفة لعدم وضوح الجهة الموقعة عليها.

- تقديم المشورة إلى الإمام في المسائل المختلفة. وما أتذكره الآن في هذا المجال ذهابي مع أخي السيد محمد والشيخ علي الحيدري (أحد شهداء حزب الجمهورية الإسلامية) والشيخ حسين إبراهيمي ديناني (الدكتور وأستاذ قسم الفلسفة حاليًا) إلى بيت الإمام، واقتراحنا

عليه إصدار بيان مناسب لتوزيعه في موسم الحج. وأذكر أن وجه الإمام تهلّل مستبشراً بهذه المبادرة منا، وقال: لقد أعددت ذلك.

- كنت أقوم أحياناً بدور الرابط بين الإمام وبقية العلماء. من ذلك أن الإمام بعثني مرة إلى السيدين الميلاني والقمي في مشهد، لأبلغهما رسالة شفهية تتضمن ثلاثة أمور هامة، منها المشترك بينهما وبقية العلماء، ومنها الخاص بهما. فالرسالة المشتركة جاء فيها: إن إسرائيل مسيطرة على كل شؤون الحكم في إيران، وعلى كل مقدرات البلاد، وتعمل على إبادة الدين وعلماء الدين في إيران.. والرسالة المخصوصة بهما ورد فيها: ضرورة تصدي كل الوعاظ من يوم 7 محرم لفضح السلطة وجرائمها في مدرسة «الفيضية»، وضرورة بدء مواكب العزاء الحسيني بعملية الفضح هذه من 9 محرم.

- كانت لي مع السيد مصطفى الخمينيؒ صداقة وثيقة، وهو كان يعرف مكانتنا من الإمام ودورنا في النهضة الإسلامية، وكان لهذه العلاقة تأثير على تيسير تحركنا في النهضة.

وأذكر أنّ الشيخ هاشمي الرفسنجاني كان مكلفاً بجمع الأخبار، والإمام أعطاه مئتي تومان، فاشترى بها مذياعاً كبيراً قد يكون موجوداً حتى الآن، للاستماع إلى الأخبار ثم إطلاع الإمام عليها.

* مسؤوليات تنظيمية

كنت أنا وبعض الرفاق متميزين بالتنظيم، وكان ذلك أمرا جديدًا ومبتكراً في قم. لقد أنشأنا أول تنظيم في قم بين العلماء، ودوّنّا نظامه

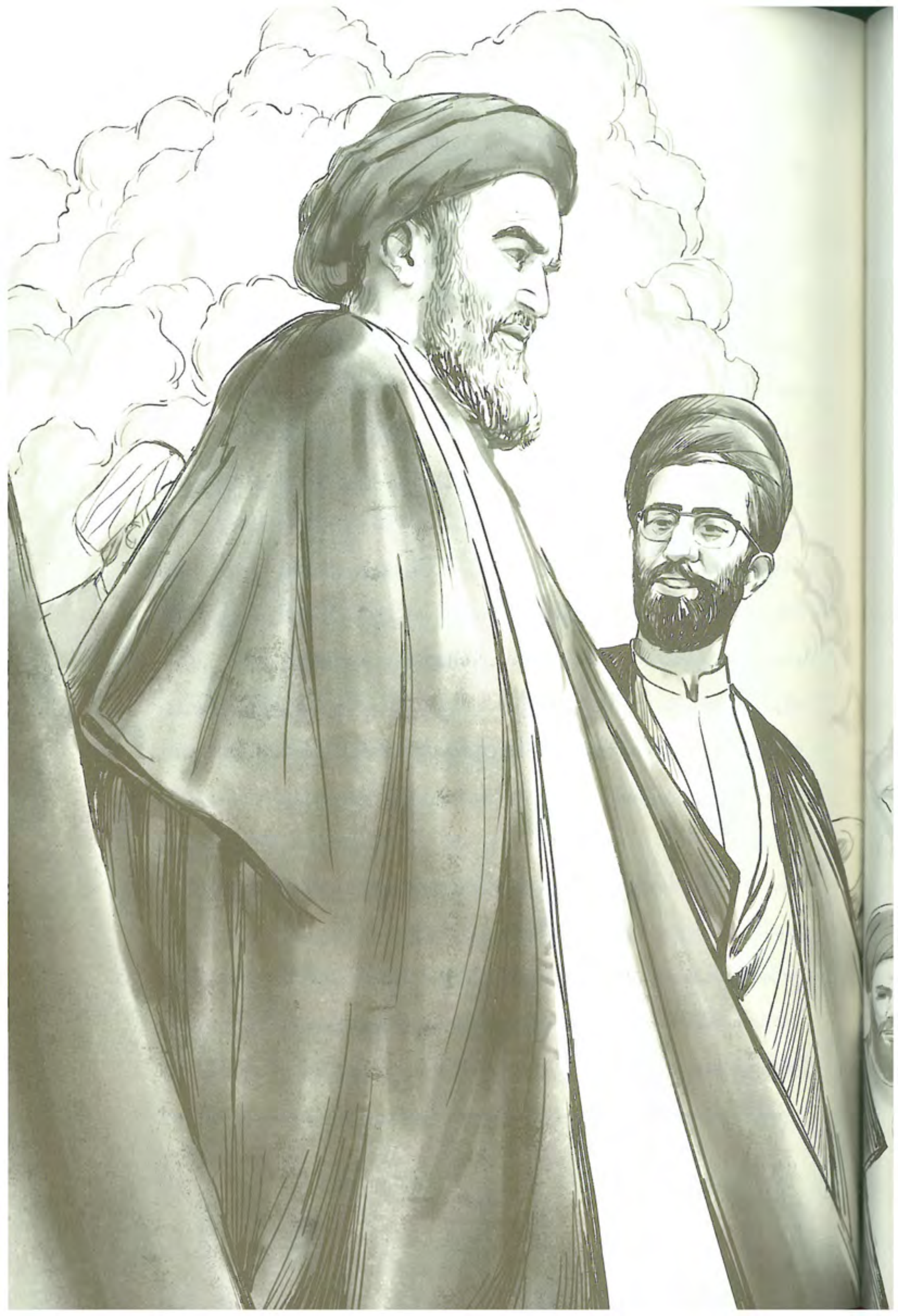

الداخلي، واشتركت مع أخي السيد محمد[59] في إعداد هذا النظام الداخلي. ولأخي ذوق خاص في تدوين هذه الأمور. وأنشأنا خلال فترة النهضة منذ انطلاقتها حتى خروجي من قم (حوالى السنة ونصف السنة) تنظيمات عدة، منها المتزامنة ومنها المتوالية، ومنها:

- مجموعة علماء قم، وقد ضمت عدداً كبيراً من العلماء، وهي التي اتخذت بعد ذلك اسم «رابطة مدرسي الحوزة العلمية في قم» أو ما يعرف بالفارسية الآن بـ: «جامعه مدرسين». وكثير من الأعضاء الحاليين لم يكونوا يعرفون دوري في تأسيس هذا التنظيم.

- ومنها مجموعة الأحد عشر، وهم أنا، وهاشمي رفسنجاني، وأخي السيد محمد، ومصباح اليزدي[60] (وهو كاتب هذه المجموعة)، والأميني[61]، والمشكيني[62]، ومنتظري[63]، والقدوسي[64]، والآذري القمي[65]، وربّاني الشيرازي[66] ومهدي الحائري الطهراني[67].

وكان مصباح اليزدي يكتب محاضر الاجتماعات في دفتر بلغة رمزية اخترعها بنفسه تشبه خط العلوم الغريبة. ولزيادة التمويه كتب في أوله بالفارسية: «وجدت كتاباً في العلوم الغريبة واستنسخته»، وربما تكون تلك المدونات موجودة حتى الآن.

- كان هناك تجمع آخر يضم بعض أعضاء المجموعة السابقة مضافاً إلى الشيخ الرباني الأملشي[68]، والشيخ علي أصغر مرواريد[69]، وكانت مهمّته اتخاذ القرارات العملية بشأن أمور الدعوة ومنها وضع خطة توزيع الأفراد على المدن ليعتلوا المنبر في شهر رمضان الذي تلا انتفاضة خرداد من أجل فضح السلطة في ما ارتكبته من جرائم بمدينة قم. وأنا في هذا التوزّع قرّرت الذهاب إلى زاهدان حيث كان فيها اعتقالي وسجني الثاني.

* سجون الطاغوت

حين نهجت طريق مقاومة السلطة الغاشمة منذ بداية مسيرتي الإسلامية، كنتُ أعلمُ أنّه طريق مفروش بالدماء والدموع؛ ولذلك كنت مستعدّاً نفسيّاً لتحمل كل ألوان البطش والتنكيل. وقد بدا ذلك عليَّ بوضوح حين واجهتُ التجربة الأولى في الاعتقال عندما قُبض عليَّ في مدينة «بيرجند»[70]. ونتيجة لهذا الاستعداد استطعت بفضل الله ومَنّه وتوفيقه أن أواصل الطريق على الرغم من توالي السجون والاعتقالات والتهديدات وألوان الحرب النفسية والتعذيب الجسدي.

ومنذ بداية النهضة الإسلامية سنة 1382هـ.ق/1962م حتى قيام الثورة الإسلامية في إيران اعتُقلت ثم سجنت ستّ مرّات. وفي مرة واحدة اعتقلت ثم نُفيت، واستُدعِيت مرّاتٍ لا تُحصى إلى مقرّ «السافاك» للتحقيق. ولا بدّ أن أذكر في المقدمة أنّ السجن لم تغفله الأنظمة والشرائع القائمة على أساس الحكمة والمصلحة الإنسانية، وله في الشريعة الإسلامية أحكامه الخاصة. والسجنُ موجودٌ في الجمهورية الإسلامية؛ ولكنّه سجنٌ يتّجه بشكلٍ عامٍّ، ولا أريد أن أنكر وجود بعض الأخطاء الفردية، إلى إصلاح السجناء وتأهيلهم لحرفة يستطيعون أن يعيشوا بها حياة كريمة بعد إطلاق سراحهم.

أما في سجون الشاه فلم يكن الأمر على ذلك النحو؛ لأن تلك السجون كانت إما للانتقام من الفرد، أو لحجزه كي لا يستطيع أن يفعل شيئاً. وهذا ما تلمسته بنفسي في كلّ ما عانيته من سجون نظام الطاغوت.

ثم لا بأس أن أذكر قبل سرد ذكريات السجون والمعتقلات أموراً:

منها: إنّ معتقلات العلماء لم تكن قاسيةً في البداية، فلم يكن المكوث فيها طويلاً، ولم يكن فيها التعذيب الجسديّ؛ لكن كان فيها جميع ما ذكرته من خصائص سجون الشاه، ثمّ بدأت تقسو بالتدريج مع تصاعد النهضة الإسلامية، فدخل فيها التعذيب وألوان الضغوط والأحكام الطويلة الأمد وأمثالها من الممارسات العنيفة.

ومنها: إنّ السنوات الستّ عشرة التي بدأت بسجني الأول وانتهت بخروجي من المنفى إبّان الثورة الإسلامية كانت قد شهدت حملة اعتقالات واسعة لعلماء الدين، وكان عددُ علماءِ الدين المعتقلين فيها أكثر من عدد أيّ فئة سياسية أخرى من الجامعيّين أو الكسبة نسبيّاً؛ بل كان في بعض الأحيان يفوق عدد جميع المعتقلين السياسيين من كل الفئات.

ومنها: إنّ مجموع ما أمضيته في السجون خلال الأعوام المذكورة يزيد قليلاً على سنتين؛ ولكنها كانت تعادل أضعاف هذه المدة؛ لأنّني كنت في جميعها ملقى في الزنزانات ولم أكنْ يوماً في السجون العامة. والزنزانة بالنسبة إلى السجن العام هي كالسجن بالنسبة إلى خارج السجن. والإنسان في الزنزانة يعدّ الأيام لينتقل إلى السجن العام، وكأنه يقبل على عملية إطلاق سراح. لكني لم أرَ السجن العام أبداً. وكنتُ أشتاق جدًّا لأراه، لما أسمعه من رفاقي عن هذا السجن وما يجدون فيه من فرصة للتعليم والتعلّم والمعاشرة في ما بينهم وممارسة بعض الألعاب الرياضية، والتي كنتُ محروماً منها.

بعد هذه المقدمات نبدأ بذكريات السجن الأول.

ملحمة الدمع

* فضح السلطة

في حزيران 1963م (وهو الشهر الثالث من فصل الربيع، وفيه وقعت تلك السنةَ المجزرةُ العظيمة في طهران وبعض المدن الأخرى، قُتِل فيها آلاف المواطنين، وصادف شهر محرّم 1383هـ.ق) كنت في مدينة «بيرجند». وكان ذهابي إلى تلك المدينة آنئذ ضمن خطّة مرسومة استهدفتْ فضحَ أعمال السلطة وانتهاكها حرمةَ علماء الدين في مدينة قم وفي مدرسة الفيضية بالذات، والكشف عن الخطط التي بيّتها النظام لمسخ الهوية الإسلامية للشعب الإيراني المسلم.

وبمناسبة ذكر حوادث قم لا بأس أن أشير باختصار إلى ما حدث في تلك السنة وفي السنة التي سبقتها.

بدأت حركة الإمام الخميني في خريف 1382هـ.ق/1962م حين أعلن استنكاره لقرارات كانت تستهدف إضعاف شوكة الإسلام في إيران واستفزاز علماء الدين، كما ذكرنا سابقاً.

وعلى أثر حادثة الفيضية أثار الإمام ضجّة كبرى. ثمّ خطّط الإمامُ لشهر محرم، وكانت خطة الإمام تقضي أن يبدأ الخطباء بفضح أعمال السلطة على المنابر ابتداء من يوم 7 محرم، وهيئات العزاء الجماهيرية من اليوم التاسع. وكنتُ من رُسل إبلاغ الخطة، فقد بعثني ﷺ إلى مدينة مشهد لإخبار آية الله السيد الميلاني وآية الله السيد القمي بقراره. ثمّ في بداية محرّم توجّهت إلى مدينة «بيرجند» لأقومَ بمهمة فضح السلطة وفق خطة الإمام.

* قلعة عَلَم

اخترت بيرجند لأنّها كانت قلعةَ «أمير أسد الله عَلَمْ» الذي كان يشغل يومئذ منصب وزير البلاط على الظاهر، بينما كان في الواقع أكبر من هذا المنصب بكثير. كان رجلاً مقتدراً في البلاد، ومذكرات «فردوست» تشرح في المجلد الثاني مكانةَ «عَلَم» في إيران.

لقد اكتسبت أسرة «عَلَم» هذه المكانة جرّاء خدمتها المخلصة للبريطانيين، وكان لها دورٌ كبيرٌ في ترويج الأفيون في منطقة خراسان.

فهي أسرة عريقة في العمالة وفي خدمة الأجانب. كنت قد ذهبت قبل هذه السفرة مرتين إلى بيرجند ورأيتُ سطوة هذا الرجل في تلك المنطقة. وكانت خطبة المواسم الدينية تقرأ باسمِ «عَلَم». وكل علماء الدين كانوا يشاركون في المجلس، والويل لمن لا يشارك. وفي شهر محرم من إحدى السنين كنت في بيرجند وسمعت الخطيب يتلو آيات الثناء بالعربية على «عَلَم»، ولا أزال أتذكر عبارته يرددها بصوتٍ ممتد: «صاحب السيف والقلم.. أمير أسد الله علم»!

كان أغلب أعيان بيرجند من خدم «علم» وخَوَله بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. حتى المشاهير من أمثال رئيس جزيرة «كيش» السابق كانوا خَدَماً لِعَلم. والشاه كان إذا أراد أن يقضي فترة استراحة تامة يذهب إلى بيرجند ويحلّ في أحد بساتين علم. وكانت هذه البساتين الخاصة معروفة بالخمور المعتّقة وبالمهرة من الطبّاخين.

* البكاء السياسي

كان لي في بيرجند أصدقاء تعرفت إليهم خلال السفرتين السابقتين. وصلت في 3 محرم، وهو يوم متأخر بالنسبة إلى من يريدون أن يعتلوا المنبر في منطقة من المناطق. فلا بدّ أن يأتي الخطيب قبيل محرّم لكي يُرتَّب له مجلس، غير أن الأصدقاء وفّروا لي فرصة اعتلاء المنبر في مساجد عدة.

حان يوم 7 محرم، وهو اليوم الموعود الذي أوصى فيه الإمام الخميني أن يبدأ الخطباء بفضح السلطة. صادف هذا اليوم الجمعة، ورتبت الأمر لأَن أُدعى إلى مجلس كبير في «مسجد المصلّى». لم تسنح الفرصة لأن أبدأ بالخطابة حتى قُبيل المغرب؛ لأنّ خطيباً آخر كان من المقرّر أن يرتقي المنبر قبلي، أطال هذا الخطيب حديثه بشكلٍ غير معهود، وكنت قلقاً من ضياع الفرصة الثمينة، غير أنه أنهى وعظه قبل 20 دقيقة من صلاة المغرب، فاعتليت المنبر. وفي هذا الاجتماع الحافل بالناس نفثتُ كلَّ ما في صدري، وقلت كلَّ شيء. بدأت بذكر خطّة الأجانب في فصل الدين عن الحياة، وواصلت الكلام باستعراض مؤامرة النظام على الإسلام والمسلمين وعلى علماء الدين،

ثم اختتمتُ بذكر ما جرى في مدرسة الفيضية وشرحتُ حوادث اليوم الثاني من فروردين (الشهر الأول من السنة الهجرية الشمسية). ضجَّ الناس بالبكاء، وساد الجوَّ هياج عظيم، ثم أنهيت حديثي بذكر مصيبة الحسين بن علي عليه السلام على العادة الجارية، لكن بكاءهم على الحسين عليه السلام ما كان أكثر من بكائهم في ذكر مصيبة «الفيضية».

* تجربتي الأولى في المعتقل

واصلت إلقاء مثل هذه الخطب حتى اليوم التاسع من محرم إذ ألقي القبض علي، وأُخِذتُ إلى مركز الشرطة. وهذه تجربتي الأولى مع أجهزة التحقيق البوليسية. لم أرَ قبل ذلك اليوم مركز شرطة. أدخلوني على ضابط شاب برتبة ملازم، فأخذ في تقريعي وتأنيبي بلهجة حادة وبأوداج منتفخة. أجبته بهدوءٍ تامٍّ: أنت لا تملك أكثر من إعدامي، وصلاحيتك لا تخولك أن تعدمني، وما بيدك أقل من الإعدام، فافعل ما شئت، فأنا مستعد؛ لأني حينما خرجت من بيتي أعددت نفسي للموت، فلا تتعب نفسك.

ما كان الضابط يتوقّع هذا الردّ، فاستغرب وبُهِتَ، وهدأت ثورته، وتغيّرت لهجتُه، وراح يردّد: ماذا أقول لك؟! ثم سكت برهة وقال: هل لك أبٌ أو أمٌّ أو زوجةٌ؟ قلت: لي أبٌ وأمٌّ ولست متزوجاً. أعاد كلامه متحيراً: ماذا أفعل بك؟

قلتُ له: أنا مأمور وأنت مأمور، فأدِّ مهمّتك وأنا أؤدّي مهمّتي.

بقيتُ في مركز الشرطة حتى ظهر يوم عاشوراء. لم أكن أعلم بما يجري خارج المعتقل. علمت بعد ذلك أنّ الأوضاع في كل إيران كانت

حُبلى بحوادث جسام. وفي «بيرجند» نفسها كانت الأوضاع معرضة للانفجار حين اعتقالي، كما حكى لي في ما بعد «آية الله التهامي»، وهو الرجل المتميّز بين علماء بيرجند وكان فقيهاً أديباً خطيباً شجاعاً.

قال لي التهامي: كان الناس متأهبين لمحاصرة مركز الشرطة من أجل إنقاذك من المعتقل، وكانوا على استعداد للاصطدام بالبوليس. والهيئات[71] الحسينية كانت تراجعني في هذا الأمر.

يبدو أن المسؤولين علموا بذلك، وخافوا أن يحدث في بيرجند ما حدث في طهران وسائر المدن الإيرانية من انفجارات شعبية عارمة. ولذلك عقدوا اجتماعاً طارئاً لمجلس أمن المدينة، وكان لهذا المجلس صلاحيةُ إصدار حكم النفي، فأصدر حكماً بنفيي إلى مدينة مشهد! ويبدو أنّ المسؤولين أرادوا أن يمتصّوا نقمةَ الناس قبل النفي، فأطلقوا سراحي، واشترطوا عليَّ أن لا أرتقي منبراً. كان الناس ينظرون إليّ بتعاطف، وأنا كنت مسروراً بهذا الانشداد العاطفي بين جماهير هذه المدينة، المفزوعة من سطوة عَلَم، وبين دعاة الإسلام.

خلال الأيام التي قضيتُها في بيرجند بين الاعتقال والنفي (10-15 محرم) كان الوضع في كل إيران يموج بحركة متفجّرة بوجه السلطة. في طهران تحولت مجالس العزاء الحسيني إلى مجالس بكاءٍ ثورية أرهبت الطاغوت. وفي 10 محرم ألقى الإمام الخميني في قم كلمته التاريخية التي كانت بداية النهاية لنظام الشاه، وفي 12 محرم (وهو يوم 15 خرداد المعروف في تاريخ إيران المعاصر) اعتُقل الإمام.

وخلال هذه الأيام قَدِم محقق عسكري برتبة عقيد من مشهد إلى بيرجند وطلب أن يراني. ولم أكن أعلم شيئاً عن المهمّة التي جاء من أجلها. قال لي:

سوف نرسلك إلى مشهد، لكن الأمور مضطربة هناك، واعتُقل عدد كبير حتى لم يبق مكان في سجون مشهد.

وأخذ يصوّر لي اضطراب الأوضاع في مشهد محاولاً إلقاء الرعب في نفسي. ثم قال:

من الأفضل أن تبقى بضعة أيام في بيرجند ريثما تستقرّ الأوضاع!

يبدو أنّ مهمة هذا العقيد كانت مقتصرة على إبلاغي كلامه المذكور؛ ولكن لماذا بعثوا شخصاً من مشهد ليبلغني هذا الكلام، بينما كان بالإمكان إبلاغه بواسطة عسكري من بيرجند؟! ثم لماذا برتبة عقيد؟! يبدو أنّ الاضطراب بلغ مداه في أجهزة الدولة، فصار يُحسبُ ألفُ حساب لكل شيء.

* سجن المعسكر

في 15 محرم أرسلوني مخفوراً إلى مشهد يصحبني ثلاثة من الشرطة. والمسافة بين بيرجند ومشهد 540 كيلومتراً طوتها سيارة «الجيب» العسكرية التي أقلتنا بسرعة فائقة دونما توقف، اللهم إلّا وقفة قصيرة عند مقهى على قارعة الطريق لتناول الطعام، بينما اجتزنا في طريقنا مدناً عدة منها «قائن» و«گناباد»[72] (جناباذ) و«تربت حيدرية».

كان الشرطة المرافقون في حالة ذعر وخوف. وحين وصلنا مشهد سلموني إلى أحد مراكز الشرطة، وأمضيت ليلة صعبة هناك. كانت دوريات الشرطة تجوب الشوارع والأزقّة على ظهور الخيل. وفي الليل امتلأ فناء المركز بالشرطة المناوبين الذين اغتنموا فرصةَ استراحتهم ليهجعوا فيه، وما بقي لي مكان للاضطجاع، فأخذوني إلى غرفةٍ

ضيّقة، وفي الصباح سلّموني إلى مبنى السافاك، ومنه إلى سجن المعسكر في مشهد. وكان فيه عدد من السجناء أكثرهم من الشباب لاشتراكهم في المظاهرات أو توزيع البيانات، أو من الخطباء وطلّاب الحوزة والجامعة. وأذكر منهم شخصيات دخلت بعد ذلك مسرح الكفاح السياسي والحركي، منهم «پرويز پويان» الذي صار في أواخر الأربعينات (الهجرية الشمسية) من قادة الحركة اليسارية المسلّحة، وقُتِل في إحدى العمليات المسلحة، ومنهم الشيخ فاكر[73] وهو الآن من أعضاء مجلس الشورى الإسلامي.

حين دخلتُ غرفة السجن التي لم تكن تشبه الزنزانات التي ألفتها في ما بعد أَحسست في الساعات الأولى بالغربة والوحدة. لم أكن أعرف من هم السجناء الموجودون في الغرف المجاورة ولا عددهم، ورغم أنّهم يجاورونني شعرت أني بعيد عنهم كلّ البعد.

بعد فترة قصيرة سمعت صوتاً من الغرفة المجاورة يتغنّى ببيت من الشعر، وفي الصوت من الإيقاع وفي البيت من المعنى ما يبعث السكينة في النفس والعزيمة على مواجهة الموقف. والبيت من شعر جلال الدين الرومي في ديوان المثنوي ويقول:

عار نبود شيـــــــر را از سلسله　　　　ما نداريم از قضـــــا حقّ گله*

عرفتُ صاحب الصوت، فقد كان من خطباء مشهد المشهورين وعلمت أنه أيضاً قد سُجِن.

تعرّفي على جاري السجين وسماع ما أنشده بعثا فيّ شعوراً بالراحة أزال عنّي وحشة الغربة.

---

* أي: لا تعيب السلسلة الأسد وليس لنا أن نعتب على القضاء.

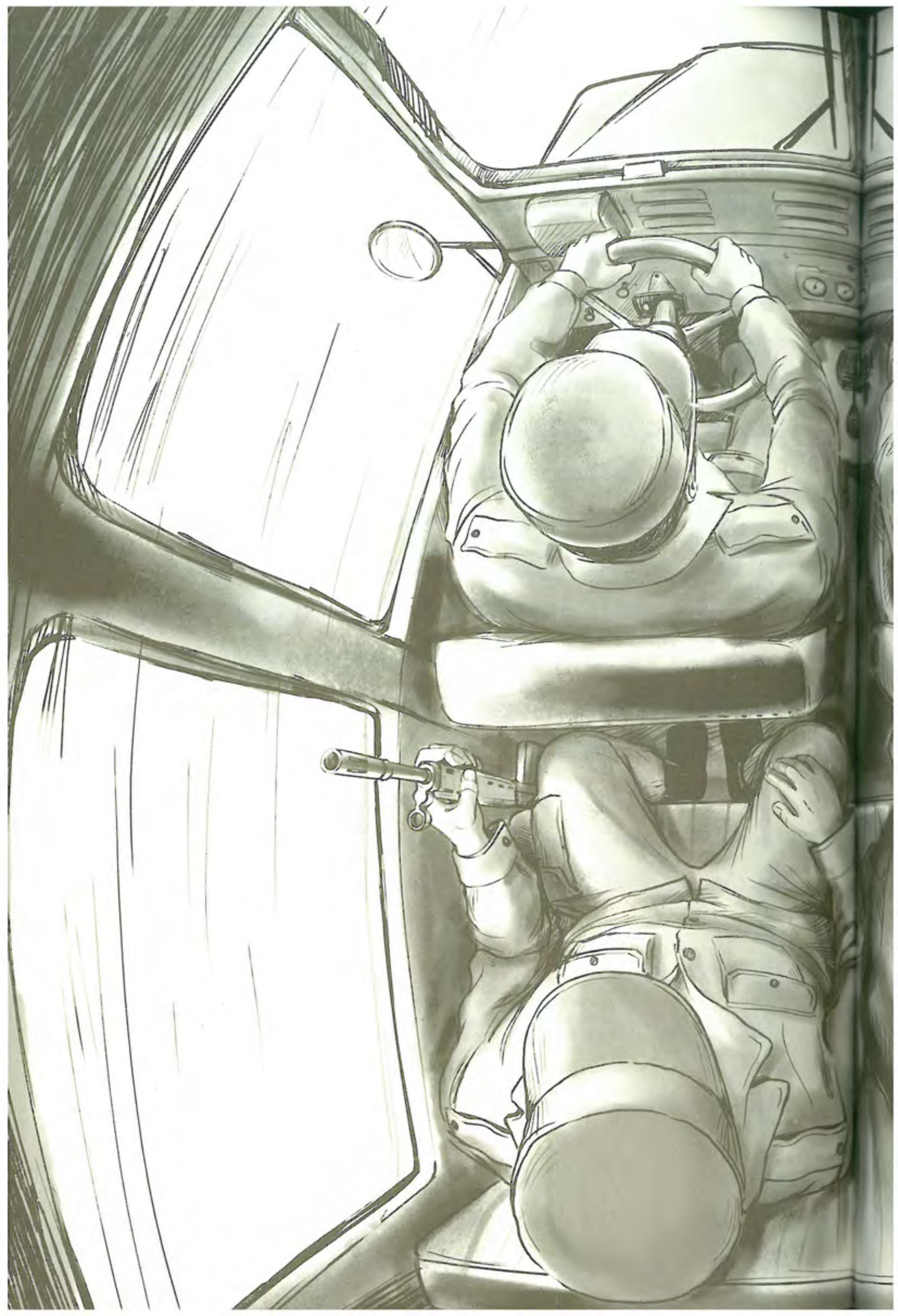

لم يكن المبنى من سجن المعسكر الذي يعتقل فيه العسكريّون؛ بل لم يكن سجناً أساساً؛ بل مستودعاً حوّلوه إلى سجن على أثر الأوضاع المتفجّرة في البلد، فقد دفعت هذه الأوضاع السلطة إلى إعداد سجون ومعتقلات مستعجلة، من هنا لم تكن الغرف صالحة للسكن أبداً، والغرفة التي أودعوني فيها في البداية كانت عالية الرطوبة بحيث اجتمع الماء في أرض الغرفة، ولذلك نقلوني بعد ساعات إلى غرفة أخرى.

كنا نخرج صباح كل يوم إلى أعمال السُّخرة، ومن ذلك قلع الأعشاب والنباتات الطبيعية من ساحة المعسكر. كانت الساحة مملوءة بالنباتات الطبيعية، وكنت أُتمتم ببعض العبارات وأنا أقتلعها:

مرا به كار گُل گماشــــــــتند نَه　　　همچُو اُسـتادِ فارسْ به كارِ گِل*

كانوا يجبروننا على تسطيح الممرّات داخل المعسكر، وبَعد انتصار الثورة، زرت المعسكر نفسه، وألقيت فيه كلمة قلت ضمنها للعسكريين: أنا اشتركت في تسطيح أكثر ممرّات هذا المعسكر.

* ياشيخ حلقوا لحيتك؟!

بقيتُ هناك أكثر من أسبوع، وخلاله حلقوا لحيتي، وهذه هي المرة الأولى التي حُلقت فيها لحيتي، وحُلقت ثانية في اعتقال

---

* أي: «سخّروني في العمل بالورود، لا كما سخّروا أستاذ فارس في عمل الطين». وأستاذ فارس هو شاعر القرن السابع المعروف الشيخ سعدي الشيرازي. وعمله في الطين له قصة ملخصها: أن الشيخ أُسر وهو في فلسطين في إحدى غارات الحروب الصليبية ثم أُخذ إلى أرض الروم، وهناك سخّروه للعمل على أرض طينيّة. والجمالية في القول، الجناس بين كلمتي «گُل» بضم الگاف (بمعنى الورد) و«گِل» بكسرها (بمعنى الطين).

آخر سأذكره في موضعه. وعن حلق اللحية فقد كنت قد سمعت أنّ اللحية تحلق في المعسكرات حلقاً جافّاً بالموسى دون استعمال الماء والصابون. وهي عملية فظيعة مؤلمة، لذلك كنت في الطريق من بيرجند إلى مشهد أعوّد نفسي لاستقبال هذه اللحظات الرهيبة بإيذاء بشرة وجهي. ثم حانت ساعة حلق اللحية. وجاء الحلاق، وكنت أنظر إليه مضطرباً. فتح حقيبته، وأخرج منها ماكنة الحلاقة، تنفست الصُعَداء، وعلمت أنّ الأمر غير ما كنت أتصوره.

بعد الحلق، طلبت السماح لأذهبَ إلى المرافق ولتجديد الوضوء. سمحوا لي أن أذهب مع عسكريّين. وفي الطريق رآني ضابط شاب معروف بالوقاحة، فناداني من بعيد مستهزئاً: يا شيخ حلقوا لحيتَك؟! أجبته على الفور: لم أرَ ذقني منذ سنين، ولقد رأيته الآن والحمد لله! وبذلك فوّتُّ عليه فرصة التشفّي.

* أنا فخورة بك يا ولدي!

بعد مرور ثلاثة أيام على اعتقالي جاءني أحد ضباط السجن وقال: غداً سيطلق سراحك. تعجبت من الخبر وقلت في نفسي: لعلّ أحد الأصدقاء توسّط لدى من له ارتباط بالسلطة من أجل إطلاق سراحي. وبينما كنت أفكر في هذا الموضوع تفألت بالقرآن فكانت الآية الكريمة: «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ»*. حان اليوم التالي وحلّت الأيام التالية فلم يطلق سراحي.

---

* سورة يس: الآية 50

أيام هذا السجن مع قلّتها كانت رهيبة للغاية. فهي التجربة الأولى، ثم إنها كانت خلال أيام مخاض عظيم وصراع دموي عاشته البلاد. وكانت الأخطار محدقة بالحركة الإسلامية والدعاة المسلمين من كل جانب، والنظام يبطش دون رحمة. وشاء الله أن يجعل «بعد عسر يسراً» واكتملت أيام السجن ثمانية أو تسعة، أطلق بعدها سراحي، مع سائر المعتقلين في ذلك السجن.

لا أنسى يوم الإفراج، ففي عصر أحد الأيام الأخيرة من شهر خرداد (وهي الأيام الأخيرة من الربيع في شهر حزيران، أطول أيام السنة) جاء أحد ضباط السجن وأخبرنا بنبإ الإفراج. جمع كل منّا متاعه البسيط من ملابس وغيرها، ومكثنا ننتظر في غرفنا، ثم جمعونا في الدهليز الممتد بين الغرف، وفتحوا باب السجن، وقالوا: اذهبوا. هكذا بدون تسجيل أو ملء استمارة مما يصحب عادة عملية إطلاق السراح من السجن. ودّع بعضنا بعضاً، واندفعت إلى الشارع وطويته بخطى سريعة واتّجهت إلى دارنا التي لم تكن بعيدة كثيراً عن المعسكر.

كان يستولي عليّ شعور خاصٌّ وأنا متّجه إلى البيت، شعورٌ هو خليط شوق وخشية وخجل. الخجل من فقد لحيتي، والخشية من لوم والديّ إذ ربّما سيقولان لي: لماذا تدخّلت في أمور أدّت بك إلى السجن؟!

عندما وصلتُ البيت استقبلني الأهل أحرّ استقبال، تهلّلوا واستبشروا، وأوّل ما قالت لي أمّي رحمها الله بعد أن جلسنا على بساط الشاي: إنّي أفخر بابن مثلك، يفعل ما فعلت في سبيل الله. تنفّست الصعداء، وحمدت الله، وكان لقولها هذا تأثيره في نشاطاتي على هذا الطريق.

القلعة
الحمراء

* الأنشطة التنظيمية

كان اعتقالي الأوّل في أواخر ربيع سنة 1383هـ.ق، وفي أواخر شتاء تلك السنة اعتُقلت ثانية.

ولا بد أن أذكر هنا شيئاً عن نشاطاتنا التنظيمية التي رافقت نهضة الإمام الخميني، لارتباطها بهذا الاعتقال.

أنشأنا خلال فترة النهضة منذ انطلاقتها حتى خروجي من قم (حوالى السنة ونصف السنة) تنظيمات، منها المتزامنة ومنها المتوالية.

- مجموعة علماء قم، وضمّت عدداً كبيراً من العلماء، وهي نفسها التي اتخذت بعد ذلك اسم «رباطة مدرسي الحوزة العلمية في قم» أو ما يعرف بالفارسية الآن بـ «جامعه مدرسين».

- ومنها مجموعة الأحد عشر، وهم أنا، وهاشمي رفسنجاني، وأخي السيد محمد، ومصباح اليزدي (وهو أمين هذه المجموعة)، والأميني، والمشكيني، ومنتظري، وقدّوسي، وآذري القمي، وربّاني الشيرازي،

والحائري الطهراني، وهم الآن جميعاً أحياء يرزقون* ومن كبار العلماء والمسؤولين السياسيّين في الجمهورية الإسلاميّة عدا اثنين منهم وهما: الشيخ القدوسي الذي استُشهِد سنة 1982م؛ أي في السنة الثالثة من انتصار الثورة الإسلامية بيد الزمرة المجرمة المعروفة في إيران باسم المنافقين[74]، والشيخ الرباني الذي توفي سنة 1982م.

كانت هذه المجموعة أهمّ التجمعات الحركية في قم يومذاك، وخطّت لنفسها أهدافاً بعيدة، واستمرّت بضع سنين.

- كان ثمة تجمّع آخر يضمّ بعض أعضاء المجموعة السابقة مضافاً إلى الشيخ الرباني الأملشي، والشيخ علي أصغر مرواريد، وكانت مهمّته اتخاذ القرارات العملية بشأن أمور الدعوة، ومنها وضع خطة توزيع الأفراد على المدن ليعتلوا المنبر في شهر رمضان الذي تلا «انتفاضة خرداد» من أجل فضح السلطة في ما ارتكبته من جرائم بمدينة قم. وكان في هذه الخطة الذهاب إلى «زاهدان» من نصيبي؛ حيث كان فيها اعتقالي وسجني الثاني.

* محطات طريق زاهدان

بعد قرار ذهابي إلى زاهدان استخرت الله بواسطة القرآن الكريم، فكانت الآية الكريمة: «لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ»**. وكانت بداية الصفحة التي فتحتها من المصحف

---

* باعتبار زمن نقل هذه الذكريات؛ لأن كلّاً من السادة العلماء هاشمي الرفسنجاني، والمشكيني، ومنتظري، والآذري القمي توفاهم الله بعد ذلك التاريخ.

** سورة التوبة: الآية 84.

جملة: «وَقَلَّبُوا لَكَ». عرفت من الآية أنّ مهمتي إلى زاهدان ستكون صعبة؛ ولكن سوف تقترن بالنجاح إن شاء الله، وكانت كما توقعت.

ما كنتُ أعرف أحداً في زاهدان. كنتُ أعرف أنّ الشيخ «الكفعمي»[75] هناك، وهو عالمٌ متميّز في المنطقة. كتبت إلى آية الله السيد الميلاني في مشهد أن يرسل رسالة تعريف بي إلى الكفعمي، ويطلب منه مساعدتي في ما قد يواجهني من ظروف.

والسيد الميلاني كان يومئذ من كبار العلماء في إيران، ومن الطبقة الأولى؛ أي من المراجع الذين يقلّدهم الناس في أمور دينهم، وكان يسكن مدينة مشهد. وكان يحبّني كثيراً، ويلطف بي كثيراً، وكان يعرف أنّ هدفي من السفر إلى زاهدان هو أداء مهمة جهادية.

غادرت «قم» في يوم عصيب. كنت مع مجموعة من الأصحاب مطاردين لحادثة لا أذكرها بالضبط. خرجنا من باب خلفي غير معروف في «مدرسة خان»[76] يقع في سرداب غسل الألبسة. ركبتُ باصاً كان جلّ ركابه من طلبة العلوم الدينية والعلماء الذاهبين إلى شؤون الدعوة، وانطلق الباص من قم متجهاً إلى «كرمان»[77] حيث مقصده الأخير الذي يبعد ألف كيلومتر عن قم تقريباً. أكثر من ثلاثين مبلّغاً كانوا في الحافلة ونزلوا بالتدريج في المدن والقرى الواقعة على الطريق. وكان بين الركاب على ما أذكر «الشيخ السبحاني»[78]. حين وصل الباص إلى إصفهان[79] كان الليل قد حلّ، ولا بدّ من استراحة للسائق والركاب. استأجرنا منزلاً صغيراً بكامله لكل المجموعة، وقضينا فيه ليلة جميلة، دارت خلالها بيننا أحاديث شتى هي خليط من السمر والهموم والآمال وشؤون التبليغ. وكانت مثل تلك الجلسات أحبّ الساعات إلى نفوسنا.

حين وصلنا «يزد»[80] التقينا صدفة بالشيخ الشهيد صدوقي[81] رضوان الله تعالى عليه الذي كان يومئذ من علماء يزد المعروفين، وصار من الوجوه البارزة في الثورة الإسلامية، وكان الإمام الخميني رحمه الله يحبّه كثيراً واستشهد سنة 1361هـ. ش في محرابه بيد زمرة المنافقين المجرمة وهو في العقد الثامن من عمره. ثم وصلنا «كرمان» فنزل كل من في الباص، وكان عليّ أن أواصل الطريق في باص آخر من «كرمان» إلى «زاهدان» في مسيرة تبلغ خمس مئة كيلومتر. كان لي في كرمان أصدقاء أعزاء أَبَوا عليَّ إلّا أن أُمضِيَ أياماً عندهم مثل الشيخ محمد جواد حجّتي كرماني[82] زميلي في درس «الشفاء» لابن سينا عند المرحوم العلامة الطباطبائي[83] رضوان الله تعالى عليه، والسيد كمال الشيرازي[84]. والاثنان غادرا «قم» بعد الأحداث المؤلمة التي ألمّت بهذه المدينة. الشيخ محمد جواد كان موطنه كرمان، بينما السيد كمال اختار كرمان للسكن فيها قبل شهرين من وصولي المدينة وتزوّج هناك. وقضيت مع الأصدقاء في كرمان ثلاثة أيام هي من أجمل أيام حياتي، بصحبة زملاء العلم والدراسة والجهاد. وكان لا بدّ أن أغادر كرمان في اليوم الثالث لأداء مهمتي في زاهدان، فالوقت قد تأخّر.

ومن الصعب جدًّا على الإنسان أن يترك صحبةً أَنِس بها أياماً ووجد فيها لذّته النفسية والروحية وراحته الجسدية، خاصة وأني أترك كرمان وحيداً متّجهاً إلى مكان مجهولٍ لا عهد لي به سابقاً، مواجهاً مصيراً مجهولاً لا أعرف عواقبه. اعتصر قلبي ألمٌ شديدٌ وأنا أودّع الإخوان، ولا أزال أشعر بانقباض نفسي حين أتذكر تلك اللحظات الحزينة.

انطلق بنا الباص ليلاً نحو زاهدان، ووصلناها فجراً. فسألت أحد المارّة عن مسجد المدينة، دلّني على مسجد الشيخ الكفعمي فقصدته.

كان في فنائه غرف بناها الشيخ لإقامة الدعاة والمبلّغين القادمين إلى المدينة. وضعت حقيبتي في إحدى تلك الغرف، وسألتُ عن بيت الشيخ الكفعمي وتوجّهت إليه. طرقت الباب وإذا بي أواجه لأول مرة شيخاً مهيباً في الخمسين، طويلاً بديناً ذا لحية طويلة وعمامة بيضاء ناصعة كبيرة. هشّ في وجهي وبشَّ وانطلق لسانه يرحّب بي بأجمل العبارات. وبعدها عرفتُ أن الرجلَ ذو هيبة ومكانة هامة في زاهدان.

قال لي: إنّ السيد الميلاني بعث لي رسالة، أوصاني فيها بك، ووضع داخلها رسالة خاصة لك. وكان لرسالة السيد الميلاني الموجهة لي معنى خاص. فهي تدل على اهتمام السيد بأمري وأمر مهمتي، ويريد بها أن يبين هذا الاهتمام للشيخ الكفعمي.

والسيد الميلاني كان رجلاً كبيراً في اهتماماته الاجتماعية، مضافاً إلى أنه كان عالماً وعارفاً وشاعراً. وكان الشيخ الكفعمي رجلاً نبيلاً في خلقه الاجتماعي، ومقتدراً في إدارته للشؤون الإسلامية بزاهدان.

تسلّمتُ رسالة السيد الميلاني، فرأيت فيها بخطه الجميل قد كتب في ما كتب: أرجو لك طيب الإقامة في زاهدان.

* الشيخ العميل

عاتبني الشيخ الكفعمي على التأخّر؛ لأنّ العادة جرت على أن يأتي خطيب المنبر قبل شهر رمضان لينتظم برنامجه مسبقاً، في حين كان وصولي أول الشهر. وقال: المسجد تحت تصرفك ليل نهار. ولكن جاء رجل من مشهد هو الشيخ «فلان» ليعتلي المنبر أيضاً.

كنتُ أعرف ذلك الشيخ، فهو رجلٌ عميلٌ للسلطة، اتخذ من المشاريع

الستة التي أعلنها الشاه موقف المؤيّد، وتهجّم على المعارضين لها.

فوجئت بالخبر، وقلتُ للشيخ الكفعمي: لا بدّ من أن تهمله وأن لا تفسح له مجال اعتلاء المنبر. وبينا نحن نتجاذب أطراف الحديث في هذا الموضع إذ دخل الشيخ، فتغيرت ملامح الكفعمي وبدا عليه الاضطراب. أما أنا فلم أعبأ به ولم يظهر عليّ أيّ تغيير. وكان الشيخ الكفعمي في ما بعد ذلك يذكر منّي هذا الموقف غير المكترث وغير المبالي من الرجل ويتحدّث عنه بإعجاب.

الشيخ المذكور كان رجلاً متملّقاً، وما إن دخل حتى بدأ يسلّم عليَّ بملاطفة وابتسامة عريضة مصطنعة مع حركات تنمّ عن ملق زائف. أجبته ببرود ولم أقم من مكاني، ولم أنظر إليه. سارعت في مسك زمام الحديث مع الشيخ الكفعمي وسيطرت على المجلس... جديرٌ بالذكر أني كنت آنئذ في مقتبل الشباب، وكان الشيخ المذكور معلم الأناشيد لنا في الابتدائية.

ذكر لي الشيخ الكفعمي بعد ذلك أنه اضطرّ إلى دعوة الرجل لأنّ له أتباعاً في زاهدان من المرتبطين بالجهاز الحاكم، وهؤلاء ضغطوا على الكفعمي لدعوته إلى المسجد بعد وصوله زاهدان. وكان مسجد الكفعمي هو مسجد الشيعة الوحيد وكانوا أقلية في المدينة.

* أم هاشم وأم قاسم!

أصرّ الشيخ الكفعمي أن أقيم في بيته. عرفت بعد ذلك أن له زوجتين تسكن كل منهما في بيت. والبيتان متجاوران ومتشابهان تماماً. كان يراعي العدالة في التعامل معهما بشكلٍ كاملٍ، ويتردّد على البيتين بنظام دقيق. يدخل البيت الأول في ساعة معينة، ويخرج منه

للدخول في البيت الثاني في الساعة نفسها من اليوم التالي. وهكذا يفعل مع البيت الثاني. إنفاقه على البيتين كان دقيقاً في المساواة غاية الدقّة. وشاء الله سُبحانه أن يعامله كما يتعامل هو مع البيتين، فرزقه من الأولى أربعة أولاد وثلاث بنات، ومن الثانية أيضاً أربعة أولاد وثلاث بنات. لا أكثر ولا أقل! كان الشيخ الكفعمي يسمّي كل بيت باسم النجل الأكبر لتلك الزوجة. فأحدهما بيت أم هاشم والثاني بيت أم قاسم. ونحن كنّا نطلق على سَكَنة البيت الأول عشيرة هاشم وعلى الثاني عشيرة قاسم. والأصهار أيضاً معروفون بانتسابهم إلى البيتين، فالسيد العبادي[85]، وهو اليوم إمام جمعة مشهد الموفّق والمبرّز، من عشيرة قاسم، والشهيد المزاري[86] الذي استُشهِد على يد الزمرة الأرديّة الآثمة في بلوشستان، من عشيرة هاشم!

* وعّاظ السلاطين

أقمت في بيت الشيخ الكفعمي، وتقرّر أن يكون المنبر يوماً لي ويوماً لذلك الشيخ الوافد. ساءني هذا التقسيم، ولكن ما كان أمامي إلّا القبول. ثم طلب الشيخ المذكور مزيداً من الوقت للخطابة؛ لأنّه كان يرى نفسه خطيباً محترفاً. قال: اسمحوا لي أن أرتقي المنبر قليلاً بعد منبر السيد (ويقصد منبري). لم يُرَدَّ طلبه، واستمرت الحال على هذا الشكل حتى حان ظهر يوم 15 رمضان وكان يوم جُمُعة والمسجد غاصٌّ بالمصلّين. بعد الصلاة ارتقيتُ المنبر، وركّزت في كلامي على علماء الدين، وذكرت أنهم على قسمين: عالمٌ يعمل بواجبه، وعالمٌ لا يؤدّي مسؤوليته. أردت بهذا المجلس أن أُمهّد للموضوع الأصلي

الذي جئتُ من أجله لألقيه يوم 21 رمضان، حيثُ تشهد المساجد جمعاً حاشداً؛ لأنّه يوم عطلة وذكرى استشهاد أمير المؤمنين علي عليه السلام، والناس يجتمعون في المسجد قاطبة هذا اليوم.

في محاضرتي هذه أثنيتُ على العلماء العاملين بمسؤولياتهم وهاجمت العلماء المتملّقين للجهاز الحاكم الظالم والمهادنين له والعاملين لصالحه.

كانت طريقة حديثي هي توجيه الخطاب إلى شخصٍ مفترض جالس أمامي من وعّاظ السلاطين. تحدّثت بلغة التقريع والتأنيب مع هذا الرجل المفترض، ولُمته على ما يرتكب من جريمة بحقّ الإسلام والمسلمين في تركه العمل بمسؤولياته، وفي رضوخه للظالمين.

كان الشيخ المذكور جالساً، والشيخ الكفعمي على سجادته عند المحراب. تكلّمت بمنتهى الجرأة، وكانت تلك الكلمة من أفضل كلماتي، ثم قرأت مصيبة الحسين عليه السلام، ونزلت عن المنبر.

اعتاد الناس في الأيام السابقة أن يجلسوا بعد منبري ليستمعوا إلى الشيخ الفلاني، لكنّهم هذه المرّة قاموا من مكانهم، وأقبلوا عليَّ مستحسنين ومباركين ومؤيّدين، ثمّ خرجت وخرج الناس معي. وتوجّهت كعادتي إلى إحدى غرف المسجد لأستريح.

قبل خروجي رأيت الشيخ المذكور قد وقف على العتبة الأولى للمنبر، ورجا الناس أن يبقوا ولو عشر دقائق، فقط عشر دقائق! واستمرّ في استعطافهم؛ ولكن الناس لم يكترثوا لطلبه فغادروا المسجد وما بقي سوى خمسين شخصاً منهم تقريباً.

بعد ربع ساعة تقريباً وبينا أنا جالس في غرفة المسجد إذ سمعت رجلاً يصرخ بصوتٍ هادر متهجّماً ومؤنباً وشاتماً. نهضت من مكاني،

ونظرت من النافذة فإذا الشيخ الكفعمي يزأر كالأسد، وذؤابة عمامته لا تزال معلقة تحت حنكه، والناس وراءه. استغربت من المنظر، أطلت النظر فرأيت بعد دقائق ذلك الشيخ المقصود في كلامي يترك مصلّى المسجد بخطوات ثقيلة، وهو يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة.

بعدها جاءني رجل نجار من أصدقاء هذا الشيخ، فقال لي:

إنّ الشيخ تحدّث بحديثٍ أغضب الشيخ الكفعمي، فقام الشيخ الكفعمي وقال للناس: حرامٌ عليكم أن تجلِسوا للإصغاء إلى هذا الشخص، وخرج وخرج الناس معه.

عرفت بعد ذلك أنّ هذا الرجل السيئ ارتقى المنبر بعدي وتهجّم على ذلك النمط من العلماء الذين أثنيتُ عليهم وشتَمهم، فما كان من الكفعمي إلّا أن واجه الموقفَ بما يتطلبه الواجب الشرعي، ففعل ما فعل. أيقنت أن الشيخ الفلاني قد انتهى أمره في زاهدان بعد هذه الحادثة.

* بم تخوّفني؟

كنتُ في غروب ذلك اليوم مدعوّاً للإفطار في بيت أحد المؤمنين. عدت بعد الإفطار إلى غرفتي في المسجد لأتهيّأ لمجلس الليل. سمعت صوتاً يناديني من وراء الباب، فتحته فرأيتُ شابًّا أنيقاً في ملابسه.

سلّم عليّ وقال: أنت فلان؟

- قلت: نعم.
- قال: مدير الشرطة يطلبك.
- قلت: لماذا؟
- قال: لا شيء، يريد أن يتحدث معك في أمور.

- قلت: أنا أعرف معنى هذا الاستدعاء، إنّه ليس من مصلحتكم. أنا مدعوٌّ لارتقاء المنبر هذه الليلة، وإذا عرف الناس بأنّي معتقلٌ فستكون العاقبة وخيمة، خاصة بعد الذي حدث اليوم في المسجد.

لكنّ الشاب بيّن لي أنّه لا بدّ من مقابلة مدير الشرطة ولست مخيّراً في ذلك. خرجتُ من المسجد فوجدت الشرطة والجيش قد طوّقوه. علمت أن السلطة جادّة في اتّخاذ موقفٍ رادعٍ. رافقتُ الشاب مضطرًّا إلى مدير الشرطة. رأيت رجلاً ضخم الجثّة برتبة عقيد يجلس في مؤخّرة صالةٍ واسعةٍ فخمةٍ، لا كتلك التي شاهدتها في بيرجند، ويتربع خلف منضدة كبيرة.

حين دخلت عليه كان مشغولاً بالكتابة، وهو انشغال مصطنع عادة يوحي للقادم عليه بأنّه غير مكترث به، ومستهدفاً إلقاء الشعور بالضعف لدى الداخل. سلّمت عليه، فلم يردّ ولم يرفع رأسه. فما كان مني إلّا أن أردّ له الصاع صاعين. ودون أن أستأذنه جلست على أفخم كنبة في الغرفة، ثم أشغلت نفسي بأمور تدلّ تماماً على عدم الاكتراث. علم الضابط أنّه فشل في أن يهزمني نفسيّاً.

رفع رأسه وقال:أنت فلان؟

- قلت: نعم.

- قال: لِمَ تثير الناس؟

- قلت: بل أنتم تثيرون الناس!

اعتدل في جلسته وكأنّه لم يتوقع هذا الجواب، وقال: كيف؟

- قلت: أنا أشرح المسائل الدينية والأحكام الشرعية للناس، فما الإثارة في ذلك؟ لكنّكم بفعلكم هذا تثيرون الناس.

ظهرت على أسارير وجهه أمارات الهدوء، وقال: نحن لا نريد أن نثير الناس. أنت في كلامك أسأت إلى إصلاحات الشاه!

- قلت: المعلومات التي وصلتكم كاذبة.

تغيّرت لهجة الرجل.

ومما قاله في أثناء كلامه: نحن أيضاً مثلك مسلمون، ونحبّ السيد الخميني!!

لا شك أنّه لم يكن صادقاً في كلامه؛ بل يستهدف الخداع والتمويه. قلت في نفسي: اللهم لك الحمد أن جعلت هذا العسكريّ المتغطرس يضطر إلى أن يصانع طالباً شابًّا فقيراً مقهوراً في يده!!

وبدت في كلامه الرقّة، وبدأ ينصحني، قائلاً: أنت في مقتبل العمر، وفي ريعان الشباب، لماذا توقِع نفسك في مشاكل وتخلق لنفسك التعب؟! مثل هذه النصائح تجعل المخاطَب يلين عادة، وإذا لان أخذوه بالشدّة، وأملوا عليه ما شاؤوا؛ لذلك لا بد من مواجهتها بالكلمة القاطعة التي تخيّب ظنّ الناصح.

قلت له: سَبَق أن قُبض عليّ في بيرجند وأخذوني إلى مدير الشرطة، وهناك قلتُ كلاماً أعيده عليك. قلت له: أنت مأمور وأنا مأمور. عليّ أن أؤدّي رسالتي الدينية وأنت تستطيع أن تنفّذ ما أوكل إليك من مهام. أنت لا تملك أكثر من أن تقتلني وأنا أعددت نفسي للقتل. فِبِمَ تخوّفني؟!

وَقْعُ مثل هذا الكلام على «أهل الدنيا» كوقع الصاعقة. هؤلاء يخافون من كلمة «الموت». فهذا الضابط الذي تجاوز عهد الشباب يخاف من اسم الموت، وها هو يرى شابًّا في مقتبل العمر يقول له: أنا أعددت نفسي للموت ولا أخاف منه!!

أدار رأسه، وبُهِت، وانهار، ثم استعاد رباطة جأشه، وعاد يقول لي بتلطف: لا شيء عليك إن شاء الله. فقط عليك أن تتعهّد بأن لا تعود لمثل هذه الأعمال. واذهب الآن إلى الغرفة المجاورة للإجابة عن بعض الأسئلة.

* تجربتي الأولى مع السافاك

في الغرفة المجاورة انهال عليّ المحقّق بالأسئلة: ماذا قلت على المنبر؟ ولماذا قلت كذا؟ وماذا تعني بكذا؟ وكانت الأسئلة تدل على أنّ كل ما ذكرته على المنبر قد وصلهم. عندما انتهى التحقيق أخذوني إلى مكان آخر.

في هذا المكان وجدت وجوهاً كالحة خاصة، علمت منها أنّ المكان مقرّ السافاك. رئيس السافاك في زاهدان كان آنئذ من الأشرار المعروفين؛ إذ سبق له أن كان يشغل المنصب نفسه في مشهد، ثم انتقل إلى زاهدان، ومنها إلى كرمان، حيث ارتكب جرائم فظيعة، ومنها فرّ بعد اندلاع الثورة الإسلاميّة.

أُخِذتُ إلى غرفة، وأحاط بي عدد من الشباب، فتّشوني بدقّة، وفتحوا محفظة جيبية كانت معي، وأخرجوا منها صوراً، وسألوني عن أصحاب الصور، وحاولوا أن يحاربوني نفسيّاً عن طريق الإهانة والاستهزاء، فما انثنيت والحمدُ للّه، ولا هُنت أمامهم، وما انهزمت، لكني تألمت وتأذّيت كثيراً.

بعد ساعة أخرجوني، وأركبوني سيارة، وذهبوا بي خارج المدينة. كان الجوُّ مظلماً وشديد البرودة، وكانت تلك السنة من السنوات التي اشتدّت فيها برودة المنطقة حتى نزل الثلج بزاهدان التي لا عهد لها بالثلج عادة.

عرفتُ أنّ المكان الذي أخذوني إليه ثكنة عسكرية. أدخلوني في معتقل الحراسة. تفاجأ الجنود بهذا النزيل، فقد رأوا شابًّا نحيفاً في مقتبل العمر، يرتدي عمامة سوداء، وعلى عينيه نظارة طبية، ويلبس لباس طلبة العلوم الدينية، وهذه المواصفات بمجموعها تستثير العواطف عادةً. نهض الجنود من مكانهم، والتفّوا حولي وسلّموا عليّ باحترام. اضطرب آمر الجنود حين رأى ما رأى من أفراده، وأسرع لأخذي إلى مكان منفرد؛ لكنّه هو أيضاً عاملني بعاطفة خاصّة تدلّ على تأثّره. فقد أخذني إلى غرفة صغيرة فيها مدفأة مطفأة. ذهب ثم عاد، وأشعل المدفأة، وسألني بلطف: من أنت؟ وأخذ يسامرني، ثم جاء بالطعام، وغادر. ثم جاء مرة أخرى وجلس في الغرفة، وجلس معه آخر، ودارت بيننا أحاديث شيّقة. وكان مما قاله لي: إنّ الذي جاء بك إلى هذا المكان هو منكم! وعلمت ماذا يقصد. وما إن أطلّ الصبح حتى ودّعني وذهب.

واستطراداً أقول: إنّ مظهري كان يلفت النظر في كل الاعتقالات. وأذكر أنّني في الاعتقال الأول حين دخلت المعسكر كنتُ واقفاً عند باب معتقل الحراسة ريثما تتم الترتيبات الإدارية اللازمة. في هذه الأثناء نزل من السلّم المقابل «الجنرال مين باشيان»[87] وهو من أشهر جنرالات إيران آنذاك. وحين وقع نظره عليّ عن بُعد، بقي ينظر إليّ وهو يقترب منّي. وحين وصل سألني: من أنت؟ لماذا جاؤوا بك إلى هذا المكان؟ أجبته: يقولون إنّك قلت شيئاً مخالفاً لمصالح البلد! طلب ملفّي، وبدأ يقلّب أوراقه وهو يحرّك رأسه أسفاً واندهاشاً، ويردّد القول: عجيب! لماذا فعلتَ هذا؟! لماذا قلتَ هذا؟! ثم ذهب.

* أوّل رحلة بالطائرة

على أي حال، نقلت في الصباح الباكر إلى مقرّ السافاك، وبقيت هناك حتى العصر. وفي أثناء هذه المدة تمّ التحقيق معي، واستغرق ساعات، وأدهشني أنني رأيت المحقّق من أصدقاء الطفولة، وكنت أشاركه وإخوته في ألعاب الصبيان، وكان أبوه وبعض إخوته من العلماء والسادة الشرفاء. ثم جاؤوا بي إلى المطار عصراً، وأجلسوني في الطائرة بصحبة مرافقَين اثنين، وأقلعت الطائرة نحو مقصد لا أعرفه. فهمت بعد ذلك أنّنا متجهون إلى طهران.

كانت هذه أول رحلة لي بالطائرة. وبالمناسبة فإن أوّل سفرة لي بالطائرة بعد انتصار الثورة الإسلامية كانت من أجل مهمة إلى زاهدان. فقد أوفدني الإمام الراحل رضوان الله تعالى عليه بقرارٍ (منشور في صحيفة النور)[88] إلى «بلوشستانَ»[89]. وكان معي الشيخ راشد[90] الذي كان منفيّاً معي في مدينة إيرانشهر من مدن بلوشستان سنة 1398هـ.ق/1978م. فاتجهت بالطائرة من طهران إلى كرمان، ووصلت إلى كرمان يوم الاستفتاء على نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية (1 جمادى الأولى 1399هـ. ق/31 مارس/آذار 1979م) ومنها ذهبتُ إلى زاهدان. وكان في استقبالي في المطار عددٌ من مشايخ المنطقة. وهناك قلتُ لهم: هذا المطار غادرته في أول سفرة لي بالطائرة في حياتي، وها أنا أقدم إليه في أول سفرة لي بعد انتصار الثورة الإسلامية.

* سفينة الغزل

على متن الطائرة التي أقلّتني مخفوراً إلى طهران رحتُ أفكّر

في أمور شتّى، في مستقبل هذه النهضة الإسلامية المتفجّرة، في مفجّر هذه النهضة الإمام الخميني، في الوالد الذي يحتاجني من أجل مواصلة العلاج في طهران، وكان بصره على وشك الزوال بسبب ما يُسمى بالماء الأسود، في المستقبل الذي ينتظرني. ثم تشاغلت عن التفكير في أمور لا يعرف مصيرها إلّا الله سُبْحَانَهُ، وأخذت مجلّة ورحت أتصفحها، فوقع نظري على قصيدة استحسنتها وكان دأبي أن أسجّل كل ما أستحسنه من الشعر في كراسٍ خاصٍّ أسميتُه «سفينة الغزل»*. رأيت المرافقَين على جانبيَّ يمدّان عنقيهما لينظرا ما أكتب، واصلا النظر وأنا أواصل الكتابة دون اكتراث لفضولهما. بعد الانتهاء من كتابة الأبيات ذيّلتُها بهذه العبارة: «كتبت هذه الأبيات في الطائرة التي أقلّتني من زاهدان إلى مكان غير معلوم برفقة مأمورَين يتمتعان بأخلاق حَسَنة»! كانت هذه العبارة ذات وقع إيجابي عليهما.

وصلت الطائرةُ أجواءَ طهران ليلاً. وكان منظر تلألؤ مصابيح المدينة بهيجاً. رأيت المرافقَين مولَعين بمشاهدة منظر طهران، ويشعران بالبهجة لوصولهما إلى العاصمة، خاصّة أحدهما. فقلت له: اعرف قدري! فبسببي جئت بالطائرة إلى طهران، ولو كانَ المعتقَل غيري لبعثوك بالسيارة إلى «خاش»[91] ولقضيت ليلتك تطوي الصحاري والقفار، بينما ستقضي ليلةً ممتعةً في طهران! ضحك ضحكة عميقة تنطلق من إحساسٍ كامل بالسعادة والارتياح.

---

* أحد معاني كلمة «غزل» في الأدب الفارسيّ هو القصيدة القصيرة من الشعر التي تتألّف من خمسة إلى أربعة عشر بيتاً. وهذا المعنى هو المقصود هنا.

* ثكنة «سلطنت آباد»

نزلنا من سلّم الطائرة، وكانت سيارة السافاك في الانتظار عند السلّم، فانطلقت بنا تجوب شوارع طهران. كنت جالساً في الكرسيّ الخلفيّ للسيارة، وما كان النظر إلى الخارج ميسوراً، لكنّني عرفت بعض الشوارع التي اجتزناها. كانت الليلة باردة جدًّا، وكان الثلج ينزل من السماء. وصلنا إلى منطقة خالية من الأبنية، ساورني هاجس ضعيف؛ إذ شككت أنهم يريدون قتلي في هذا المكان الخالي. بعد مدة وقفت السيارة، سمعت صوت «قف»؛ فعرفت أننا وصلنا إلى ثكنة عسكرية. نزل أحد المرافقين، وسلّم الحارسَ ورقة، فانفتح الطريق، ودخلنا. وعرفت بعد ذلك أنّها ثكنة «سلطنت آباد»[92].

ترجّلنا من السيارة عند مركز الخفارة، فتّشوني ثم تسلّمني ضابط الخفر من المأمورين المرافقين، وذهبَ المرافقان لشأنهما. وجاؤوا بي إلى حجرة نظيفة وكبيرة فيها سريران ومدفأة نظيفة.

سألني الضابط: هل تعشّيت؟ قلتُ لا، فجاءني بعشاء، أكلتُ وصلّيتُ ورحتُ بعدها أغطّ في نومٍ هادئ عميق. كان الظلام يحيط بالغرفة فلا أرى خارجها شيئاً. في الصباح، استيقظتُ، وأدّيت ما يجب عليّ أن أؤدّيه، ثم جاء أحدهم وقال: تريد الإفطار؟ كنت غير صائم بسبب السفر، قلتُ: نعم. جاءني بفنجان كبير من الشاي، وخبز خاصٍّ بالجيش، وهو مخلوط عادةً بشيءٍ من الزبدة والسكر وشيء قليل من الكافور! ويكون سميكاً مطبوخاً بالفرن، وله طعم لذيذ جدًّا. وإلى جانب الخبز قطعة من الزبدة. كنتُ جائعاً فأكلت الوجبة كاملة وأحسست بلذة خاصة.

* ذلك اليوم الثلجي

نظرتُ من النافذة، فوجدتُ الثلج قد غطّى كلّ مكانٍ. عند وصولنا طهران كان الثلج يتساقط قليلاً؛ لكنه طول الليل ألبس الأرض حُلّة نقية بيضاء. ثم رأيت ضابطاً يتردّد ذهاباً وإياباً، فعلمتُ أنّ غرفتي مجاورة للسجن، والضابط كان خفيراً. بعد ساعة دعوني فرأيتُ أنّ مرافقَي السفر قد جاءا. جلستُ معهما في سيارة، وذهبنا إلى مبنى في شارع «شميران» القديم (شارع شريعتي حاليّاً) وكان المكان من الأبنية السريّة للسافاك. ودّعني المرافقان، ورأيتُ على وجهيهما مسحة من الرقة والشفقة. سألاني: هل لك توصية؟ قلتُ: بلّغوا سلامي للشيخ الكفعمي، وكنت أريد بذلك أن يفهم الشيخ بوجودي في طهران.

أدخلوني غرفة كبيرة مكثت فيها مدة، جاء خلالها شخص وفتح الباب، ونظر إليّ بشزر، ثم ذهب، وجاء آخر وفعل ما فعله الأول. وهكذا حتى جاء أحدهم وقال: تعال.

استغربتُ حين أجلسوني مرّة أخرى في سيارة برفقة اثنين من رجال السافاك، وانطلقت بنا تجتاز الشوارع دون أن أعرف المقصد. لاحظت أنّ السيارة اتجهت غرب طهران عبر شارع كرج (سمي بعد ذلك شارع أليزابيث! ثم بعد الثورة شارع كشاورز: أي الفلاح). كنت أعرف هذا الشارع جيّداً؛ لأنّ القنصلية العراقية تقع فيه، وذهبت إليها سنة 1376هـ.ق/1957م لأخذ تأشيرة السفر إلى العراق. اجتزنا هذا الشارع ثم انعطفت السيارة نحو الشمال الغربي حتى وصلنا إلى منطقة خالية من البناء. زاد استغرابي وتساؤلي مع نفسي عن المصير الذي ينتظرني. وبعد مسافة اتجهت السيارة نحو اليمين، وعبرنا حاجزاً

مرتفعاً يقف عنده خفير. رأيت في الجانب الآخر من الحاجز ميداناً مغطى بالثلج. وقفت السيارة في نقطة من الميدان، نَزَل المرافقان ونزلت معهما، رأيت في جانب الميدان قلعة كبيرة حولها جدار يرتفع 10 أمتار تقريباً، وفي الجانب الآخر أبنية منخفضة ذات لون عسكري أصفر، وفي جانب آخر عمارة جديدة. دخل أحد الرجلين البناية الجديدة، وبقي الآخر يلقي نظرة على محرك السيارة وعجلاتها. عرفت من حديثهما في الطريق أنهما يتكلمان اللغة التركية التي أُجيدها. أردت أن أعرف المكان الذي حللنا فيه، فقلتُ للرجل الذي بقى معي بالتركية: «بورا هارا دي؟» أي: أين هنا؟ وكان للسؤال بالتركية وقعه في نفسه. نظر يمنةً ويسرةً نظرة وَجَلٍ وتحرّزٍ وقال باللهجة التركية: «گيزيل گلعه» وتلفظ بالفارسية: «قزل قلعه»[93].

وقزل باللغة التركية تعنى: أحمر أو ذهبي. نحن إذاً في سجن القلعة المعروف (تحول بعد الثورة إلى سوقٍ للفاكهة والخضار). كنت قد سمعت بهذا السجن، وكان معروفاً بصعوبة العيش وقسوة التعامل فيه.

عاد المرافق الثاني، وسارا وسرت خلفهما باتجاه القلعة. انفتحت بوابة السور الخارجي وخرج منها جنديّ يهرول على الثلج باتجاهنا. سأل: هو هذا؟ وأشار إليّ، فاجاب المرافقان: نعم هو. ثم التفت الجنديّ إليّ وقال: تعال معي. تبعته وتعرّفت إليه بعد ذلك. وكان شابًّا شيرازيّاً طيباً يقضي فترةَ الخدمة العسكرية الإجبارية. دخلت البوابة، وإذا بي أمام جدار مرتفع آخر على بعد بضعة أمتار، فيه بوابة أيضاً. فتحت البوابة الثانية فرأيت ساحة كبيرة، تقع في وسطها بنايات السجن. توجّهنا نحو قلعة السجن، ففتحت بوابتها وكانت بوّابة

حديدية مهيبة مشدودة بالسلاسل الحديدية، بعد البوابة ممرّ ضيق تصطف على جانبيه الزنزانات. وأدخلوني إحدى تلك الزنزانات.

* العريف «زماني»

كنت أحمل معي المصحف ومسبحة وكراس «سفينة الغزل» وكتاب «تذكرة المتقين» وهي مجموعة رسائل وأذكار لمجموعة من كبار العلماء والفقهاء، وتدور كلها حول «العرفان الشرعي». الكتاب أعطاني إيّاه السيد كمال الموسوي في كرمان، وكان أنيسي في زاهدان. كما كان في جيبي أربعة تومانات وقرانان؛ إذ حين كنت في زاهدان كان كل ما معي 5 تومانات، صرفت منها 8 قرانات في شراء خبز وبيضتين حين كنت في سافاك زاهدان.

هذه الزنزانة كانت مربّعة طول ضلعها متران. نصفها مرتفع قليلاً أُعِدَّ منصَّة للجلوس والنوم. بُسط عليه فراش محشوّ بالتبن، أعطوني بطانيتين. ولأول مرة أواجه الاعتقال في مثل هذه الغرفة الصغيرة. جلست برهة متحيّراً. تلفتّ حولي فرأيت فتحة صغيرة في السقف يتردّد عليها حارس ليراقب السجين. كما رأيت في أعلى الباب فتحة صغيرة أُسدل عليها غطاء. وفي الجانب الآخر مصباحٌ خافتٌ قليل الضوء لا تزيد قدرته على 15 واط.

بعد دقائق من إيداعي الزنزانة فُتح الباب، ودخل عسكريٌّ، عرفت اسمه بعد ذلك، وهو «استوار زماني» و«استوار» تعني بالفارسية: رئيس عرفاء. وبالمناسبة كان يتناوب حراسة السجن خمسة أشخاص في هذه الدرجة، اثنان منهما مشهوران جدًّا بين سجناء هذا السجن

وهما «استوار زماني» المذكور، ورئيس هذه المجموعة وهو «استوار ساقي» وسأتحدث عنه في ما بعد.

دخل «استوار زماني» وقال: ماذا عندك؟

قلت: يمكنك أن تفتش!

بدأ يفتش. أخرج المصحف. نظر إليه، قال: هذا قرآن، لا بأس يمكن أن تبقيه عندك. ويبدو أنّه تأثر حين رأى المبلغ الضئيل في جيبي ورقّ قلبه، ثم سألني عن كتاب «تذكرة المتقين» وقال: لعله كتاب دعاء؟ أراد منّي أن أردّ عليه بالإيجاب، كي يترك الكتاب عندي. لكني قلت له: هذا كتاب في العرفان و.. قطع كلامي وقال: نعم، كتاب دعاء.. كتاب دعاء.. لا بأس، يمكن أن يبقى عندك. وكان هذا التعامل واضح الدلالة على أنّ الرجل يريد مساعدتي. لم يأخذ منّي شيئاً سوى مذكرة التلفونات. خرج وبقيت وحدي.

* السجناء العرب عند السافاك

لجأت إلى المصحف، وبدأت أتلو القرآن بصوتٍ مرتفع. ولهجتي في التلاوة لا يشوبها شيءٌ من الفارسية، وتُوهِم أنَّ صاحبها عربي. وإذ كنت مشغولاً بالتلاوة رأيت من يفتح غطاء النافذة الصغيرة على باب الزنزانة، وينظر إليّ. ثم ذهب وجاء آخر. وآخر. هذه النافذة الصغيرة خاصة بالتخاطب بين السجين والحرس. ظننت أنّ هؤلاء المترددين على النافذة من الحرس، غير أني عرفت أنهم ليسوا بحرس حين خاطبني أحدهم بلهجة عربية خاصة بأهالي خوزستان. لم أفهم ما يقول، ولم أجبه. جاء آخر وقال بالعربية: أنت من مدينة أهواز[94]؟

قلت: لا، أنا من مشهد. فذهبوا ولم يعودوا.

عرفتُ بعد ذلك أنّهم من تنظيم كان يسمى «جبهة التحرير العربية»[95]. كان وراءه في البداية عبد الناصر[96]، ثم تبنّاه البعثيّون العراقيّون، واستخدموه لمجابهة الثورة الإسلامية!! وكان ذلك من عجائب الأمور أن يجابه هؤلاء ثورةً قضت على نظام الشاه المعادي للعرب والإسلام!

طبعاً، لا بد أن أذكر أنّ العرب في خوزستان متديّنون وموالون لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. ولقد وجدت هذا التدين في من عرفته من الخوزستانيّين قبل الثورة، وتلمّست هذا التدين أكثر بعد الثورة، خاصة بعد إعلان الحرب المفروضة[97]؛ إذ وقف الخوزستانيّون رجالًا ونساءً موقف الأبطال في الدفاع عن الوطن الإسلامي أمام عدوان النظام البعثي، وخيّبوا ظنّ البعثيين الذين كانوا يعقدون الأمل على هؤلاء المواطنين الخوزستانيّين. قد أثبتَ الخوزستانيّون في الحرب المفروضة انشدادهم الرساليّ إلى الدين ودولة الإسلام، فقاوموا مقاومة الأبطال، وقدّموا قوافل الشهداء، وتحملوا مصائب التشريد من المدن المقصوفة بصبر واحتساب. ولذلك انعزلت المجموعة القومية العَلمانية المرتبطة بالبعثيين بسرعة منذ بداية الثورة الإسلامية عن جماهير خوزستان ولم يَعُد لها وجود يذكر.

بعد أيام من اعتقالي تساهلوا معي في الخروج من الزنزانة إلى الممرّ. تعرفت إلى هؤلاء، فأنسوا بي كثيراً، وأنست بهم. كانوا جميعاً يعرفون الفارسية لأنهم إيرانيون، لكنّي كنتُ أتحدث معهم باللغة العربية، لانشدادي الخاص إلى هذه اللغة.

كان بينهم رجلٌ متذوّقٌ للأدب، وله إلمامٌ بالشعر يحفظ الكثير منه، وهو السيد باقر النزاري، وحفظت عنه أبياتاً كثيرةً. كما كان الإخوة العرب يرددون في السجن «الأبوذية». وكنت أتحدث مع أحدهم وهو آل ناصر الكعبي بالعربية كثيراً. كنتُ أعلمه شيئاً من قواعد اللغة العربية؛ لأنّه لم يكن يعرف قواعد اللغة.

وكان السيد النزاري رجلاً متعبّداً وأتذكّر أنّه كان يقرأ بصوت عالٍ كلّ يوم «زيارةَ عاشوراء»، ويسلّم على أهل البيت ويلعن أعداءهم، ثم يمشي في الممرّ وهو يواصل قراءة أذكاره.

وكان في الزنزانة المجاورة لي واحدٌ من هؤلاء اسمه الشيخ حنش (وكلمة شيخ تبيّن مكانته في قبيلته). كما كان يجاورني من الجانب الآخر شاب من هذه المجموعة في العقد الثالث من عمره، اسمه الشيخ عيسى وسيمٌ وقورٌ، عرفتُ أنّه وحيد أمه، وذو مكانة في قبيلته. ومنهم أيضاً الشيخ دهراب الكعبي، وكان أيضاً شيخاً في قبيلته ومحترماً بين سائر الأفراد. وأتذكر أن الإخوة الخوزستانيّين في ساعات التجول في الهواء الطلق كانوا يتضاربون أحياناً عن مزاح، فيستجير بعضهم بدهراب، وعندئذ لا يقترب منه أحد!

ومنهم أيضاً عبد الزهراء بهشتي، وكان في زنزانة مقابلة لزنزانتي.

لي عن هذا السجن ذكريات مع الإخوة الخوزستانيين أذكر بعضها:

• كانت لي مع آل ناصر الكعبي جلساتٌ خاصة. وجدت الرجلَ متميزاً بين الآخرين، ويحترمه الجميع. كان حين يمرّ أمام أعضاء التنظيم يقومون له احتراماً. لم يشترك في مَرَح أصحابه وضحكهم ومزاحهم ولهوهم؛ بل كان ينفرد عنهم انفراد سكينة ووقار لا انفراد تعالٍ واحتقارٍ.

هذه الجلسات بدأت بمحاورات في اللغة، العربية والإنجليزية والتركية، كما تخلّلتها دروس في قواعد اللغة العربية كما ذكرت. ثم تطورت إلى الحديث عن مشاكل الإسلام المعاصرة، ومأساة سيطرة الطواغيت، ثم تطورت أكثر ففاتحته بالارتباط التنظيمي، وهو رحّب بذلك واستبشر به. طبعاً لم تكن العلاقة قد تطوّرت بيننا إلى درجة هذه المفاتحة، وكان ذلك مني ومنه خلاف الاحتياط.

بعد خروجي من السجن قرأتُ في الصحف نبأ إعدامه وإعدام دهراب الكعبي والشيخ عيسى، وكان وقعه عليَّ مؤلماً جدّاً.

كان آل ناصر الكعبي طافحاً بالشخصية والمروءة، وما أتذكره من كلامه قوله وهو يخاطبني: سيدنا يجب أن تكون المرأة كاملة الأنوثة! هذه العبارة أثرت في نفسي لما فيها من دلالة في حدّ نفسها، ولصدورها من رجل متميّز في عقله وإربه.

• جاري حنش، كان أيضاً محترماً بين قومه، وقوراً، ربعة في الجسم، وفي الستين، وما أذكر من كلامه: عندي ثلاث زوجات! وأخيراً تزوجت برابعة!! ولم أدخل عليها. وقرّرت -إذا لم يطلق سراحي حتى عيد الفطر- أن أطلّقها كي لا تبقى معلّقة!.. لكنّه أُطلق سراحه قبل عيد الفطر.

بالمناسبة سألتُه يوماً عن معنى «حنش»، فلم يجب. ثم طلب مني السيد باقر أن لا أعيد عليه السؤال. قلت له بتعجب: لِمَ؟ قال: لأن معنى كلمة «حنش» ليس بجيد. تعجّبت أكثر وسألته عن سبب هذه التسمية، قال: ثمة اعتقاد بين أهل المنطقة أن الولد إذا سمّي بأسوإ الأسماء يبقى حيًّا ويسلم من حوادث الدهر! اعتقاد غريب! والأغرب منه أن حنشاً بقي حيّاً دون سائر إخوته الذين ماتوا!

* المجالس الرمضانية في السجن

• كانت الليالي ليالي رمضان. وكان الإخوة الخوزستانيون يجتمعون بعد الإفطار في ممرّ السجن، يفرشونه بالبطانيات، ويعملون الشاي، ويشعلون «النارجيلة»، وأنا أنظر إليهم من الزنزانة. بعد أن سمحوا لي بالخروج إلى الممرّ اشتركت معهم في جلساتهم. وتقرر أن أتحدث إليهم كلّ ليلة، ثم يقرأ السيد كاظم -أحد الإخوة الخوزستانيين، وكان حسن الصوت ينشد الشعر والمدائح والمراثي الدينية- بعدها رثاء الحسين عليه السلام على العادة الجارية. كان حديثي يتضمن، بغير صراحة، إدانة للنظام الحاكم. كنت أتحدّث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعن عدله، وعن صفة الحاكم الإسلامي. وكانوا يبتهجون لهذا الكلام ويُسَرّون به. ولا غرو في ذلك فالكلام يتناسب مع تطلّعاتهم ومع ما يحملونه من آمال وآلام.

مسؤولية الإنفاق على الجلسة كان يتحملها كلَّ ليلة أحدُ أفراد الجلسة، إلّا أنا، فقد كنتُ مفلساً تماماً. معظم الإنفاق يكون في شراء الشاي والسكر.

• كان في السجن معنا أيضاً أرمنيٌّ اسمه هاوانسيان، عرفنا بعد ذلك أنّه من قادة «حزب تودة»[98]. كان يتمتّع بين السجناء برفاهٍ خاصٍّ، وتوفّر لديه من الإمكانات ما لا يتوفر للآخرين. هذا السجين الأرمني اقترب مرة من جلستنا الرمضانية، وأصغى إلى حديثي، فانشرح كثيراً.

بعد ليالٍ جاء واقترب منّا وقال: هل تسمحون لي أن أتحمل مسؤولية الإنفاق على الجلسة التالية؟ قلت: على الرحب والسعة. والطريف أنّه كان يعرف رأينا في النجاسات والطهارات، ويعرف أنه

إذا مسَّ شيئاً يتنجّس في رأينا (هذا هو الرأي السائد بين العلماء بشأن أهل الكتاب، وأشير استطراداً إلى أني أرى طهارة أهل الكتاب). لذلك فإنّ الرجل قدم لنا الشاي والسكر، وتركه عندنا ليعدّه الإخوة بأنفسهم.

• كنّا نتزاور في الزنزانات. الإخوة العرب كانوا يتردّدون عليَّ كثيراً، وأنا أزورهم أيضاً. واتفق أن زرت ليلة «هاوانسيان» فقدّم لي ما لا تمسّه يده!

كنتُ أهتمّ بنظافة الزنزانة اهتماماً شديداً، لكنّ أصدقائي كانوا لا يراعون ذلك، فقد اعتادوا أن يلقوا برماد السجائر وأعقابها على الأرض؛ لذلك صنعت منافض من علب السجائر، وكنت حين أرى أحدهم يدخّن أضع تحت يده منفضة. فينظر إليها مستغرباً ويحوّل يدَه إلى مكان آخر كي لا يسقط الرماد في المنفضة!

* السجين الساذج

قضيت شهراً ونصف الشهر في هذا السجن، مرّت عليّ فيه حوادث مضحكة مبكية! في إحدى الليالي الأولى من سجني؛ إذ كنت قابعاً في الزنزانة ولم يُسمح لي بالخروج منها، سمعت أصواتاً جديدة تتحدث باللهجة الطهرانية. علمت أنهم نزلاء جُدد. أصغيت إلى كلامهم فاستنتجت أنهم اعتقلوا قبل ساعات. فتح أحدهم نافذة زنزانتي ورآني. سألني عن اسمي، أخبرته، وقلت: أنا طالب علم ديني من مشهد. عرّفوني على أنفسهم، وذكروا لي سبب اعتقالهم، ففهمت أنهم مجموعة من التجار الشباب العاملين في السوق. وفي داخل السوق يوجد «المسجد الجامع» المعروف، وفيه أروقة عدّة. وفي أحد الأروقة يؤمّ الناس في الصلاة عالم ثوري واع. وبعد الصلاة يرتقي المنبر

عادة في شهر رمضان خطيب يعظ الناس. وإمام الجماعة هذا يدعو الخطباء الثوريين. وفي أثناء إحدى الخطب ارتفع الحماس عند هؤلاء الشباب فرفعوا أصواتهم بالهتافات، وهجم عليهم الشرطة واعتقلوهم ونقلوهم إلى السجن. سُررت بهم كثيراً لأني لم أكن بعد قد أنست بالخوزستانيّين. ثم بعدها ببضع ساعات سمعت أصواتاً تدلّ على إطلاق سراحهم. سادني شعور بأني فقدت شيئاً بذهابهم.

عند الغروب أقمت الصلاة، وجلست للتعقيب، فإذا بأحدهم يفتح نافذتي ويقول: «سيدنا أنا عدت». سألته عن الباقين، قال: أُطلق سراحُهم. عرفت أن الرجل استثنوه من بقية أصحابه وأبقوه في السجن ومكث فيه مدة طويلة. بعد أن فُتح باب زنزانتي وسُمح لي بالخروج منها متى أشاء كان هذا الشخص يأتيني ويفطر معي. وعرفت من خلال معاشرتي له أنه بسيط وساذج إلى حدّ كبير، على خلاف أترابه من شباب الكسبة والتجار النشطين في التحرك الإسلامي في إيران، فقد كانوا غالباً أذكياء وشطّاراً.

وكان الرجل من بساطته وصفاء نفسه يطلب من المأمورين المكلفين بحراسة داخل السجن أن يطلقوا سراحه! رغم أنّه من الواضح تماماً أن هؤلاء المأمورين لا يملكون القدرة على ذلك. وكان يلحّ عليهم ويصرّ في الطلب، حتى لا يجد المأمور المسكين حيلة غير أن يعده بإطلاق سراحه يوم كذا. عندها يستبشر صاحبنا بذلك ويطير فرحاً، وقد يأتيني ويخبرني بما حصل عليه من وعد! ويعرض عليّ استعداده لأي خدمة خارج السجن.

وأخيراً أُطلق سراحي، وبقي هو في السجن، وسمعتُ بأنه أحيل إلى المحكمة وحكم عليه بالسجن سنة أو أقل بقليل.

والغريب في الأمر جريمة هذا الرجل، إنّها مضحكة حقًّا. لقد وجدوا في مذكرته بيت شعر عاميّاً، سخيفاً في معناه، وفي ركاكة لغته وفي وزنه، ومليئاً بالأخطاء اللغوية، وفيه تعريض وطعن في رضا بهلوي والد محمد رضا الذي كان يومئذ على سرير الملك.

جمله بگوئيـــــد از بُرنا وپيـــر لعـــنة الله بر رضاشـــاه كبير*

بهذا الذنب الموهوم جدًّا حُكِمَ على المسكين البسيط بالسجن. والقضية تبين مدى سخافة الحاكم والمحكمة!

* العريف «ساقي»

ذكرتُ أنّ خمسة عسكريّين كل منهم برتبة رئيس عرفاء كانوا يتناوبون في حراسة السجن، رئيسهم «ساقي»، والأربعة الباقون اثنان منهم فظّان غليظان والآخران لطيفان خلوقان. «ساقي» عسكريٌّ طويلٌ ضخمٌ قويُّ البنية عريض ما بين المنكبين، ذو إرادة وعزم وصاحب شخصيةٍ قويّةٍ، لغته الفارسية تميل إلى اللهجة التركية، من الرّتباء؛ لكنه يوجّه الضباط ويأمرهم، وأنا رأيت ذلك بنفسي. ففي إحدى مرات استدعائي إلى غرفة التحقيق كان المحقق -وهو برتبة عقيد- يطرح عليّ الأسئلة وأنا أجيب إذ دخل «ساقي» دون استئذان إلى الغرفة، وكان يتحدّث مع العقيد بلهجة الآمر والناهي، وبنبرةٍ حادّةٍ صارمةٍ.

ولاحظت مكانته بين الضباط في مناسبة أخرى، حين جاء رئيس السافاك «پاكروان»[99] لتفقّد السجن. وكان برفقته عشرة ضباط لا تقل رتبهم عن عقيد، وكان «ساقي» المتكلم الوحيد بين هؤلاء. وحين وصل

---

* ردّدوا جميعاً شباناً وشيوخاً: «لعن الله رضا شاه الكبير».

«پاكروان» إلى زنزانتي، سألني بعض الأسئلة وأجبت. تدخل «ساقي» وقال بصوتٍ هادرٍ فيه شيءٌ من البَحَّة وكثير من الاعتداد وهو يشير إليّ: هذا سجين هادئ أيها الجنرال!

كان رجلاً ذا مروءة وشهامة، يحبّ من كان صامداً من السجناء ويوقّره ويحترمه. وبالعكس كان يتشدّد مع الضعفاء، وما إن يرى سجيناً يستعطف أو يبكي حتى ينهال عليه بالشتائم ويوبّخه على فعلته التي جاءت به إلى السجن.

أحد الإخوة حدّثني كثيراً عن مروءة هذا العسكري ورجولته، وذكر لي أنّ «ساقي» دعاه إلى بيته بعد إطلاق سراحه، ولبّى الدعوة، وتحدّث معه في البيت حول كثير من القضايا!

بعد انتصار الثورة الإسلامية أُلقي القبض على رئيس العرفاء «ساقي» بين من أُلقي عليهم القبض من العاملين في السجون السياسية. كنتُ آنئذ في مجلس قيادة الثورة. وكان المجلس مجتمعاً بأعضائه الكثيرين إذ وصلنا خبر اعتقال «ساقي». سادت حالة من التأثّر على جميع أعضاء المجلس! فأغلبهم كان قد مرّ بسجن «قزل قلعه» وعرف «ساقي». اتفقنا على أن نكتب شهادة نُعرب فيها عن رضانا عن هذا العسكري، ونوقّع عليها جميعاً. وفعلنا ذلك.

بالنسبة إلى استوار «زماني» أكتفي بذكر موقف له خلال زيارتي للشيخ هاشمي رفسنجاني حين كان معتقلاً في معسكر «عِشْرتْ آباد» ويُسمّى الآن معسكر «وليّ عصر» بطهران سنة 1392 أو 1393هـ.ق/1972 أو 1973م.

عزمنا -أنا وزوجتي- على زيارة الشيخ، ولم تكن زيارة السجناء السياسيّين

بالأمر السهل، غير أنّي بسبب تجاربي في السجون، تمكّنت من زيارته أنا وزوجتي، دخلَتْ هي المعسكر أوّلاً، وأنا على الأثر بتدبير لطيف، وواجهنا الشيخ وهو يضحك فرحاً من الأسلوب الذي تمكنّا به من زيارته.

كنتُ خلال حديثي مع الشيخ أرى عسكريًّا واقفاً قربنا ينظر إليّ وهو يبتسم. بادلتُه الابتسامة والمجاملة. ثم رأيت أنّ الابتسامة لا تفارق وجه العسكري خلال مدة اللقاء وهو يرمقنا بنظرات حادّة! بعد خروج الشيخ هاشمي من السجن قال: أعرفتَ الذي كان ينظر إليك ويبتسم؟! قلت: لا. قال: إنّه «استوار زماني» وأغلب الظنّ أنّه عرفَك.

نعم، أظنّ أنّه عرفني. فقد كنت معه شهراً ونصف الشهر في سجن «قزل قلعة». ولكن لم أعرفه لأنّه سمن خلال هذه المدّة (10 سنوات) وتغيّرت ملامحه. لقد عرفني، لكنّه لم يظهر ذلك ولم ينبس ببنت شفة!

* السجناء المعروفون

بلغني خلال أيام السجن أنّ أوضاع البلد تسير خلاف ما يرومه النظام الحاكم. فقد حدثت حملة اعتقالات على أثر تصاعد النشاط الإسلاميّ الثوريّ أيام شهر رمضان في بعض المساجد.

وممّن اعتُقل في هذه الحملة عددٌ من زملائنا مثل الشهيد باهنر الذي استُشهد بعد انتصار الثورة سنة 1981م حين كان رئيساً للوزراء إثر انفجار دبّرته الزمرة المنافقة أودى بحياته هو والشهيد رجائي[100] رئيس الجمهورية. وكان بين المعتقلين أيضاً عددٌ من خطباء طهران. ومع أن هؤلاء المعتقلين كانوا أيضاً معتقلين في سجن «قزل قلعة»؛ ولكن لم يتفق أن زرتهم في السجن لأنّهم كانوا في قسم آخر منه.

كان مسؤولو السجن يسمحون لنا في بعض أيام الأسبوع بالتفسّح في الساحة لاستنشاق الهواء الطلق والاستفادة من نور الشمس لمدة ربع ساعة تقريباً. وهذا السماح يحدث طبعاً بعد انقضاء أيام التحقيق التي تطول أو تقصر بحسب نوع الاتهام، وقد تطول إلى شهرين أو أكثر.

في أحد أيام التفسّح رأيت في جانب من الساحة رجلاً طويلاً في العقد الخامس من عمره يتمشّى بوقار وهدوء، وتبدو على ملابسه الترتيب والنظافة ما يوحي بأنه من الشخصيات الهامّة المعتقلة. سألت عنه فعلمت أنّه العميد قرني[101]، وهو من كبار جنرالات جيش الشاه، وكان له نشاطٌ حركيٌّ وربما دينيٌّ، واتصل بصورة غير مباشرة بآية الله السيد الميلاني الذي كان يعتبر من المراجع الحركيين، وعرض عليه مشروع تزعّم حركة انقلابية يشتركان فيها معاً. كنتُ قد سمعت ذلك من قبل ولم تكن المعلومات متوفرة لدينا عن موقف السيد الميلاني رحمه الله من هذا المشروع. غير أنّ كل شيء انتهى بانكشاف الخطة وإلقاء القبض على الجنرال وعلى من كان يتوسط بينه وبين السيد الميلاني وهو أحد أقارب السيد، وحكم على الجنرال بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

جدير بالذكر أنّ قرني هذا عيّنه الإمام الخميني رحمه الله قبل انتصار الثورة الإسلامية عضواً في مجلس قيادة الثورة الإسلامية، ثم أصبح بعد الانتصار وزيراً للدفاع، ثم استشهد على يد زمرة المنافقين الآثمة.

* ياسيّد جدّك معنا

كنت جالساً في ممر السجن بعد صلاة ظهر يوم من الأيام آكل وحدي طعام الغداء، وأذكر أنّه كان حساء، وإذا بشرطيٍّ يناديني

قائلاً: أنت مطلوبٌ في المكتب. ارتديتُ عباءتي وذهبت إلى مكتب الضابط. وحين رآني قال: أنت مطلق السراح. اجمع أمتعتك واخرج! عدت إلى الزنزانة وقلبي طافح بسرور مشوب بشيء من الأسف على مفارقة هؤلاء الإخوة الذين أنست بهم كثيراً بعد تلك المعاشرة الجميلة في أيام السجن ولياليه. كنت أجمع أمتعتي إذ رفع الشرطي صوته داخل السجن قائلاً: فلان أطلق سراحه، فهبّ جميع السجناء من زنزاناتهم، وساعدوني في جمع الأمتعة التي جاء بها بعض أهلنا في طهران إلى السجن من بطانية وغيرها، ولم تكن شيئاً يُذكر، فحملها الشرطي. ثم اجتمع الإخوة العرب، وعملوا «هوسة» عربية ردّدوا فيها: «يا سيّد جدّك ويّانَه» و«ويّانه» تعني في اللهجة العامية: معنا.

بعد أيام حان موعد المقابلة الأسبوعية للسجناء. ولم يكن لي مقابلة مدة وجودي في السجن طبعاً؛ إذ كنت ممنوعاً منها، فاشتريت حلويات وذهبت إلى السجن، فزرت الإخوة ووزعت الحلويات عليهم.

* لقاء الإمام بعد السجن

حين خرجت من السجن سمعت أن بعض العلماء الشباب المسجونين في المعتقلات المختلفة قد أطلق سراحهم قبلي بأيام. والسافاك اصطحب هؤلاء إلى محل الإقامة الجبرية للإمام الخميني في منطقة «قيطرية» بطهران، لمقابلة الإمام. وكان يستهدف بذلك امتصاص بعض النقمة في نفوس هؤلاء العلماء.

هاج الشوق في نفسي وقلت: لأتوكّل على الله وأذهب أنا أيضاً إلى مقرّ الإمام لعلهم يسمحون لي بالمقابلة.

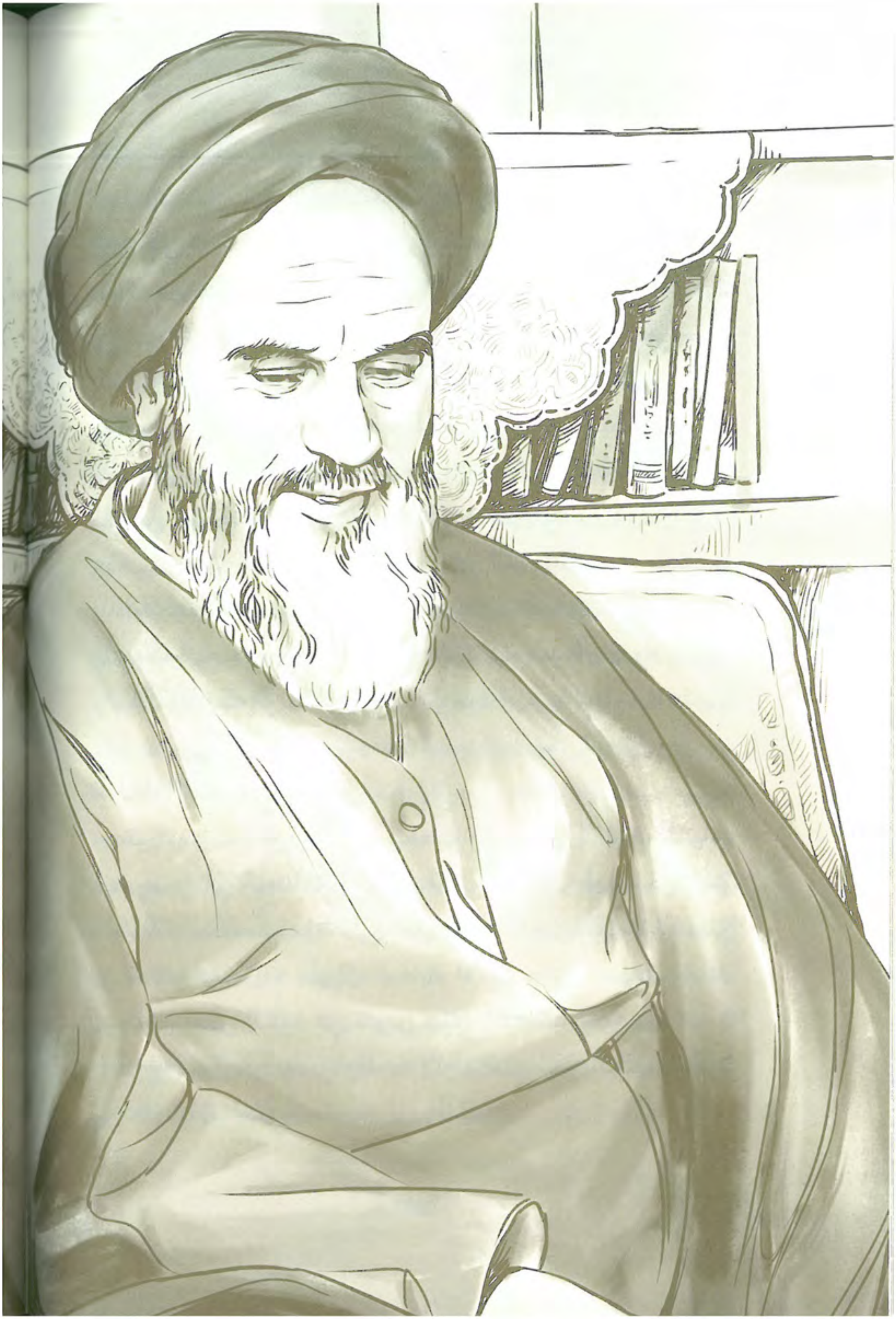

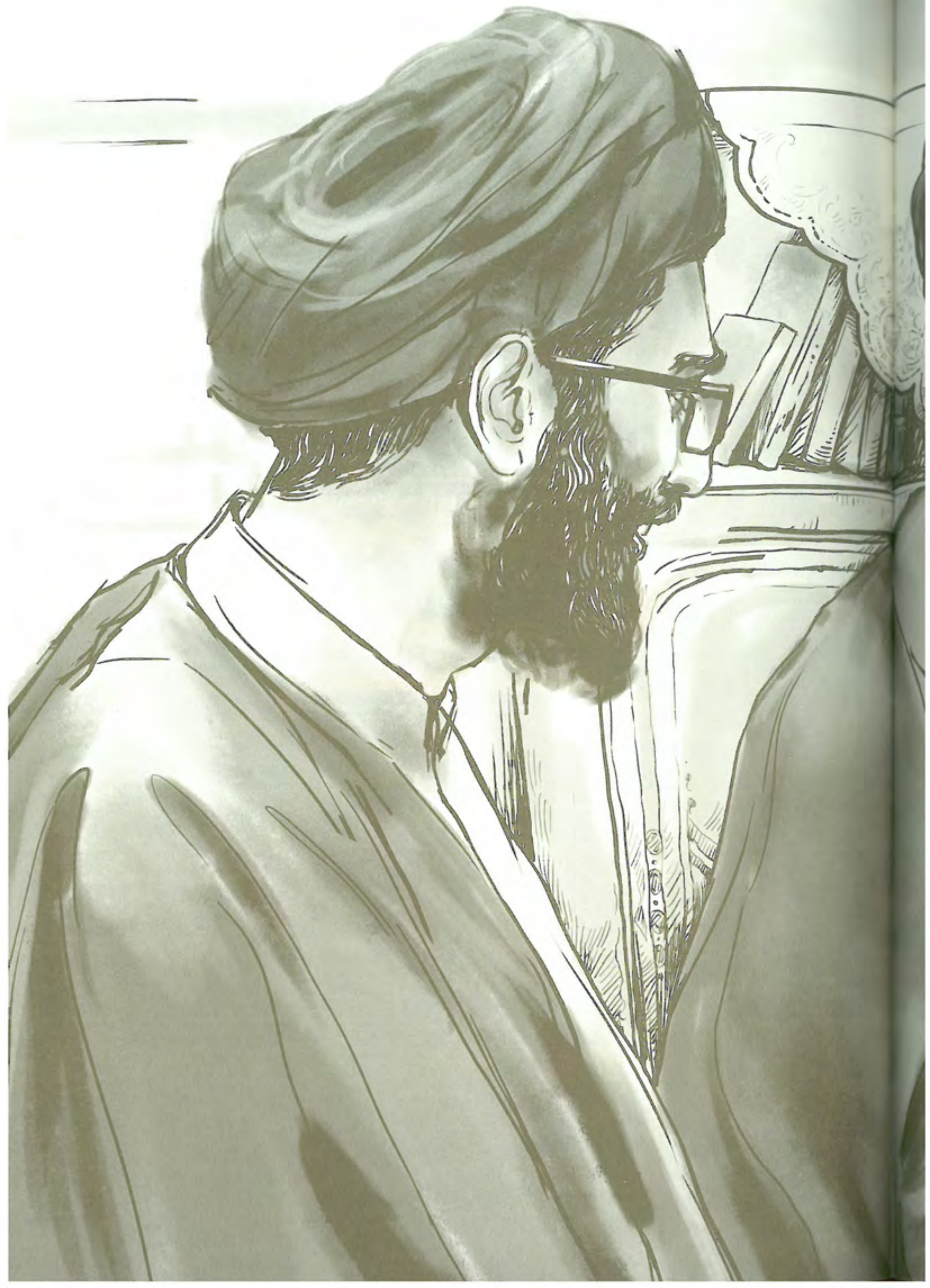

حصلت على العنوان ويمّمت وجهي نحو قيطرية، وكانت إذ ذاك خالية إلّا من بعض البيوت (صارت الآن آهلة بالسكان). اقتربت من بيت الإمام، وكان الحرس يحيطون بالبيت. قلت لبعضهم: أنا خرجت أخيراً من السجن وأريد أن أقابل السيد كما قابله السجناء الآخرون. اختلفوا في ما بينهم. منهم من قال: هذا رجل بسيط تحمّل مشاق الطريق، و وصل إلى هذا المكان، فلنسمح له. ومنهم من رفض. ثم اتّفقوا على أن يسمحوا لي بالدخول لدقائق معدودات.

طرقت الباب، ففتحه المرحوم السيد مصطفى نجل الإمام. اندهش لرؤيتي، وسألني: متى أُطلق سراحك؟! قلت: قبل يومين.

دخلت إحدى الغرف وإذا بالسيد الإمام أمامي. جاشت في نفسي أحاسيس مكبوتة، وتفجّرت أمامه عواطفي. ورحت أصف له حالة الأمّة والأحبّة عند غيابه، وبيّنت له أنّ موسم رمضان هذا العام ذهب هدراً دون عطاء، فلنخطّط من الآن لموسم محرم. وخرجت بعد دقائق.

القصر الأبيض

* النكسة المضاعفة

في بداية سنة 1387هـ.ق/1967م اعتُقلت وأودعت السجن. وهو سجني الثالث. وهذه السنة من السنوات القاسية المؤلمة للإسلاميين في إيران. ففيها شدّد نظام الشاه على علماء الدين. وقبل اعتقالي بأيام كان السيد حسن القمي الذي كان يومئذ من كبار العلماء في مشهد، وهو الآن حيّ يُرزق والحمد لله، قد اعتقل ونُفي إلى «زابُل». وفي هذه السنة بالذات حدثت «نكسة حزيران عام 1967م»[102] ومأساة حرب الأيام الستة التي أدمت قلوب المؤمنين. وما كان يدمي قلوبنا أكثر هو الإعلام الحاقد الشامت في إيران الذي ما فتئ يعرب عن فرحه بما حلّ بالعرب عامة وبعبد الناصر بشكل خاص. ولا أنسى ما كتبه «أميراني» في مجلة «خواندنيها»؛ فقد قرأت مقالات هذا الرجل الحاقد -وأنا في المعتقل- وكان يشمت صراحة بما حدث من نكبة، وكان يتحدث بلغة تحزّ في قلب كل الإسلاميين وأبناء الشعب الإيراني المسلم عامة.

* الكتاب الهادف

وللتقديم أذكر أني انتقلت من «قم» إلى «مشهد» سنة 1383هـ.ق/1964م، وتزوجت سنة 1384هـ.ق/1965م وبعد العودة إلى مشهد بدأت بسلسلة جديدة من النشاطات الفكرية والسياسية، فقد كانت لي اتصالات متواصلة مكثفة مع العناصر الحركية وشخصيات المعارضة في مشهد، وهكذا مع الشباب من طلاب العلوم الدينية والجامعات. وكانت لي أيضاً جلسات تفكير وتخطيط وتدريس ودعوة. من ذلك عقد جلسات لتدريس المعارف الإسلامية التي ترتبط بالنهضة الإسلامية، لجمع من الشباب. ومن هذه النشاطات الحركية إنشاء مؤسسة للطباعة والنشر بالتعاون مع «الشاعر الفقيد قدسي» و«الشهيد تديّن»[103] ونفر آخر من خراسان، أسميناها «سپيده» (أي: الفجر)، بدأنا من خلالها بنشر بعض الكتب الإسلامية ذات المضامين الحركية، ثم ترجمت كتاب «المستقبل لهذا الدين» لسيد قطب، وبدأنا بطباعته في «مطبعة خراسان» المعروفة. كانت طباعة الكتاب على وشك الانتهاء إذ رحلنا من مشهد مع الأهل والأقارب في رحلة سياحيّة. وكان ذلك في أواخر سنة 1385هـ.ق/1966م وابني مصطفى آنذاك ابن أربعين يوماً. ذهبنا إلى طهران ثم إلى قم ومنها إلى إصفهان، وبعدها عدنا إلى طهران لنعود منها إلى مشهد. كنا في أحد فنادق طهران حين بلغنا خبر هجوم السافاك على مطبعة خراسان ومصادرة نسخ ترجمة كتاب «المستقبل لهذا الدين» كلها، وإلقاء القبض على مدير مؤسسة «سپيده». وقيل لي: إن السافاك يبحث عنك ليلقي القبض عليك. بعد برهة بلغني خبر اعتقال واحد آخر من أعضاء المؤسسة.

أيقنت أنّ السافاك جادٌّ في اتخاذ موقف متشدّد من الكتاب ومترجمه. طرحت الأمر على زوجتي وأمّها التي كانت ترافقنا. واقترحتُ أن يعود الجميع إلى مشهد، ويجعلوني في صورة الموقف هناك، ويخبروني ما إذا كانت المصلحة تقتضي بقائي في طهران أو عودتي إلى مشهد. بقيت وحدي في غرفة الفندق.

بعد أيام جاءني أحد الإخوة بخمسين نسخة من ترجمة الكتاب المذكور. عرفت أنّ الإخوة أحسّوا بالخطر، فاحتفظوا قبل هجوم السافاك بمئة نسخة من الكتاب. سررت كثيراً بالكتاب؛ لأنّه كان أول عمل يُطبع لي، وكانت طباعته جيدة، وتصميم غلافه جميلاً. وزعت بعض النسخ على الأصدقاء، وأودعت الباقي عند أحد أقاربنا، وأخبرته أنّ هذا الكتاب محظورٌ وخطرٌ.

بعد بضعة أيام دعاني أحد الأصدقاء إلى مسجد وُضع حجره الأساس ولم يُبنَ بعد. والمهتمون بأمر هذا المسجد أرادوا أن يستثمروا أرضه في موسم «محرم» فأحاطوه بسياج مؤقت من صفيح، وغطوه بخيمة، وأعدّوه للصلاة ومجالس محرم. قبلت الدعوة وكنت أَؤم الناس في الصلاة وأرتقي المنبر بعدها في العشرة الأولى من محرّم، ثم دعوت خطيباً للعشرة الثانية وخطيباً آخر للعشرة الثالثة. ذاك المسجد هو نفسه أصبح بعد بنائه مسجد أمير المؤمنين المعروف بشارع «نصرت» قرب جامعة طهران.

* أنت مطارد

كنتُ أتمشى يوماً في شارع قرب جامعة طهران إذ قابلت فجأة الشيخ هاشمي الرفسنجاني. رأيت الشيخ ينظر إليّ بدهشة واستغراب!

قال لي: كيف تمشي في الشارع بهذا الشكل ولا تستتر؟!

قلت: علام أستتر؟ أنا أؤمّ الناس في المسجد وأرتقي المنبر.

قال: أنت مُطارَد، وانكشفت مجموعة الأحدَ عشر. وإن الشيخ الآذري القمي قد ألقي القبض عليه، ونحن مطاردون في طهران. وذكر لي أنّه كان راكباً في الباص، وعندما رآني ترجّل منه ليخبرني بالأمر.

قلت: طيّب، وماذا نفعل الآن؟

قال: عندنا اليوم جلسة مع بعض أعضاء المجموعة للتشاور في ما ينبغي أن نفعله.

وكان الميعاد في «شارع إيران» من شوارع مركز العاصمة؛ لأنّه لم يكن لأحد من أعضاء المجموعة بيت في طهران، وما كنا نريد إحراج أحد من الأصدقاء.

التقينا في الشارع وكنّا أربعة: أنا والشيخ هاشمي، والشيخ إبراهيم الأميني، والشيخ قدوسي.

وسبق أنّ السافاك كان قد استدعى الشيخ قدوسي قبل أيام، وحقق معه بشأن مسائل ترتبط بمجموعتنا الأحد عشر، وكان يهمنا الاطلاع على ما جرى من حديث في هذا التحقيق كي نعرف مدى انكشاف أمر المجموعة لدى السافاك، وهذا هو الموضوع الأصلي لاجتماعنا.

بقينا حائرين في اختيار المكان الذي نجلس فيه للتشاور في هذا الأمر الخطير. واتفقنا أن نذهب إلى عيادة «الدكتور واعظي»، وهو طبيب متدين من أهالي مدينة «نجف آباد» (مدينة الشيخ الأميني نفسها)، وعيادته قريبة من ميعادنا، فنجلس في غرفة الانتظار لنتشاور في الأمر، والجلوس في غرفة انتظار الطبيب أمر طبيعي لا يلفت النظر.

لسوء الحظ كانت العيادة خالية من المراجعين، وما كان بإمكاننا أن نجلس في غرفة الانتظار. فلا انتظار عند خلوّ المكان من المرضى! وخرجنا من العيادة.

وبالمناسبة أذكر قصة وقعت بشأن جلستنا هذه في غرفة انتظار الدكتور بعد مضيّ اثني عشر عاماً عليها: في إحدى الليالي كنّا في بيت الدكتور واعظي بعد أيام قلائل من انتصار الثورة الإسلامية، وكان «الشيخ محمد منتظري»[104] حاضراً وبيت الدكتور مجاور لعيادته في بناية واحدة. قلت للدكتور: سبق لي أن رأيتُ هذه البناية، ولكن لا بهذه الحداثة، ويبدو أنك رمّمتها وأعدت بناء بعض أجزائها. كنت أتحدث معه سنة 1398هـ.ق/1979م، وقلت له: لقد دخلت هذه البناية عام 1386هـ.ق/1966م أي قبل أكثر من 12 عاماً، ثم ذكرت للدكتور قصة لجوئنا إلى عيادته وخروجنا منه حيارى آيسين. حدث للدكتور ما لم أكن أتوقّع! فقد أزعجه ذلك، وبكى، ودعا على نفسه بالويل والثبور؛ لأنّ عيادته لم تستطع أن تؤوينا، وبدأ يلوم نفسه! سارعت لتهدئته، وندمت على ما قلت، وما كنت أقصد إلّا أن أسرد ذكرى ترتبط بالبناية التي نجلس فيها.

أعود إلى حديثي. خرجنا من العيادة، واقترح أحدنا أن نلوذ ببيت «الدكتور باهنر» وكان قريباً من شارع إيران. ذهبنا إلى بيته فوجدناه وحده وزوجته قد غادرت البيت. طلبنا منه أن يخرج من البيت ويتركنا وحدنا! فتقبل الأمر بصدر رحب ودلّنا على مكان الشاي وخرج.

بدأ قدوسي بالكلام وشرح لنا ما جرى بينه وبين محقّق السافاك، وما طُرح عليه من أسئلة، وقال: إنهم خلال الاعتقال المؤقت أروني

قائمة بأسماء مجموعة الأحد عشر. ثم التفت إليّ وقال: لقد كان اسمك في بداية القائمة!

كان الخبر مرعباً؛ إذ من المحتمل جدًّا أنّ السافاك أطلق سراح الشيخ قدوسي ليتابعه ويكتشف ارتباطاته. على كل حال خرج الاجتماع بقرار يقضي بضرورة الاختفاء لمن يقدر على ذلك.

ما كنت قادراً على الاختفاء في طهران حيث لا مأوى لي أطمئن إليه. والمسألة جادّة، فكل الأسماء انكشفت! واثنان من أعضاء المجموعة وهما الشيخ منتظري والشيخ رباني الشيرازي أُلقي القبض عليهما، لا بسبب انتمائهما إلى المجموعة طبعاً؛ بل لارتباطهما بقضية أخرى. وقرار الإخوة يقضي بالاستتار.

* المطاردة حتى الاعتقال

قررت أن أسافر إلى مشهد وأستتر هناك. لم أُخبر أحداً بقراري. حزمت حقيبتي وركبت الباص، واتجهت إلى مشهد. كنت أحتمل أن السافاك سيلقي القبض عليَّ حال وصولي مشهد، لأني كنت مطارداً بسبب قصة الكتاب التي أشرت إليها؛ ولذلك ترجّلت قبيل المدينة عند الشارع الفرعي المؤدّي إلى قرية «أخلمد». وهي قرية اصطياف جميلة تبعد عن مشهد عشرة فراسخ تقريباً، وكنت قبل ذلك قد سافرت إليها مرّات للاصطياف. كان الربيعُ لمّا ينقض والطقس لم يصر حارّاً بعد، مشيت فرسخين تقريباً للوصول إلى القرية مخترقاً شعاباً جبلية خالية تماماً من المارّة، والظلام قد خيّم أكثر مما يقتضيه الوقت كما هو الحال في الشعاب والأراضي المنخفضة. وحين أتذكر الآن تلك

اللحظات أشكر الله سبحانه أن مَنَّ عليَّ بتلك الجرأة آنئذ؛ إذ كل شيءٍ في الطريق القروي ذاك كان يبعث على الخوف.

كنت أتردّد على هذه القرية في الصيف، وأعرف بعض أهلها. وعهدي بها أنها مزدحمة بالناس، لكني دخلتها هذه المرّة وهي خالية؛ لأنّ الطقس كان ما يزال بارداً فيها، ولمّا يؤمّها المصطافون بعد.

أردت أن لا ألتقي أحداً في القرية، فذهبت إلى دكان شخص لا أعرفه، وسألته عن حجرة للاستئجار. رحّب بي واصطحبني إلى بيته، ومكثت عنده ليلة أو ليلتين، ثمّ قررت أن أترك القرية لأَنّ الغريب فيها يُعرفُ بسرعة، ولا سيّما أنها خالية من المصطافين. وغادرتها إلى مشهد.

كنت في مشهد أبيت ليلة في بيت الوالد وليلة في بيت والد الزوجة، ولم يكن لي بيت مستقل. وكان تردّدي في وقت السحر أو ساعة متأخرة من الليل. بقيت ثلاثة شهور على هذا المنوال. أخي السيد محمد، الذي كان أيضاً من مجموعة الأحد عشر، اختفى في بيت الوالد.

في صيف هذا العام (1386هـ.ق/1966م) جاءنا الشيخ هاشمي الرفسنجاني وعائلته إلى مشهد. وهو أيضاً كان ملاحقاً كما سبق الحديث عن ذلك، وذهبنا إلى المصيف. ولي عن ذلك ذكريات لا ترتبط بموضوعنا هذا.

سئمت من حالة الاختفاء في مشهد، فقررت أن أخرج من هذه الحالة. جئت إلى طهران حيث كانت سعة المدينة وازدحام الناس وعدم اشتهاري فيها يسمح بأن أقيم فيها بوضع عاديّ، فاستأجرنا بيتاً مع الشيخ هاشمي وبقيت هناك إلى آخر هذه السنة الهجرية الشمسية.

حلت سنة 1387هـ.ق/1967م فقلت في نفسي: الملاحقة قلّت

الآن، فلأذهب إلى مشهد، ولكن دون الظهور في الأماكن العامة.

عدت إلى مشهد. لكنّ مثلي لا يمكن أن يبقى هامشيّاً في المجتمع. كنت أتردّد على السيدين «الميلاني» و«القمي» وأتحدث معهما عمّا يشهده المجتمع من انحرافات، وأسأل مستنكراً عن سبب سكوت العلماء، وأحثّ على اتخاذ موقف حاسم من السلطة الفاسدة. ويبدو أن كلامي هذا قد نُقل إلى السافاك بحذافيره، فقد عرفت ذلك بعد الاعتقال. ولا بد أنه كان في حاشية السيدين من نقل ذلك.

في 14 فروردين/22 ذي الحجة 1386هـ.ق/3 أبريل/نيسان 1967م، توفي الشيخ مجتبى القزويني[105]، وكان من الأفذاذ العظماء. رجل شريف عالم مؤمن عابد زاهد عارف محترم مرهوب الجانب يوقّره حتى السيد الميلاني. كان الحادث جللاً، وما كان بإمكاني أن أقبع في البيت. كنت من المهتمين بأمر التشييع. بعد دفن الشيخ وتفرّق الناس -وكان ذلك بعد الظهر بقليل- توجهت مع أخي السيد هادي[106] إلى بيت الوالد. كانت الوالدة آنئذ في الحج والوالد وحيداً. في وسط الطريق حاصرنا رجال السافاك.

قالوا لي: تعال إلى مقرّ السافاك.

قلت: لا آتي.

استعانوا بالشرطة فحملوني وأخي وألقونا في السيارة! في مقرّ السافاك أطلقوا سراح أخي وأبقوني لأنني كنت أنا المستهدف.

* السجناء العسكريون

ومن مبنى السافاك نقلت إلى معتقل عسكري يقع في المعسكر، ويجاور مركز الخفارة؛ لأنّ مشهد لم يكن فيها آنئذ سجن خاص

بالسياسيين. وسجني الرابع كان في هذا المكان أيضاً. بعد ذلك أنشأوا سجناً خاصّاً بالسياسيّين، وكان اعتقالي الخامس فيه. المعتقل كان مبنى نظيفاً أبيض. كنّا نسميه «القصر الأبيض»، أو «الفندق الأبيض». كان فيه بعض الزنزانات الانفرادية وصالتان جماعيتان، إحداهما للجنود العاديين والثانية للرّتباء، أما إذا كان السجين ضابطاً فكانت له غرفة خاصّة ليست طبعاً مثل زنزانات السجناء السياسيّين؛ بل فيها شيء من الرفاه وبابها مفتوح.

كان نزلاء السجن عسكريّين. ولم يكن فيه مدني سوى شاب من كسبة مشهد واسمه قاسمي. فرح هذا الرجل كثيراً عندما رآني. ويبدو أن اعتقاله كان بسبب سفره إلى العراق وعودته إلى إيران ومعه أوراق ترتبط بالإمام الخميني.

وكان في السجن آنئذ ضابطٌ شابٌّ اتهم بقتل زوجته، مودع في غرفة خاصة بالضباط، يخرج منها متى شاء أن يتمشى في أروقة السجن أحياناً بحالة فخر واعتزاز ولا يعبأ ببقية السجناء.

وكنا أنا وقاسمي في غرفتين انفراديتين ولكن لا كغرفة الضابط؛ إذ كانتا خاليتين من وسائل الراحة وأشبه بالقفص، وكان الباقون في صالات جماعية. لم يكن بابا الزنزانتين مقفولَين، لذلك كنّا نلتقي أنا وقاسمي رغم تعرّضنا أحياناً لنَهرِ الحرّاس وردعهم.

وهنا لا بد أن أشير إلى أنّ حالة السجون قبل الخمسينات (أي قبل سنة 1971م) كانت تختلف تماماً عمّا آلت إليه بعد الخمسينات بالنسبة إلى السياسيين؛ إذ كان اللقاء بين السجناء والمطالعة والكتابة واصطحاب بعض الكتب وأدوات الكتابة والمذياع أمراً ميسوراً رغم أنها

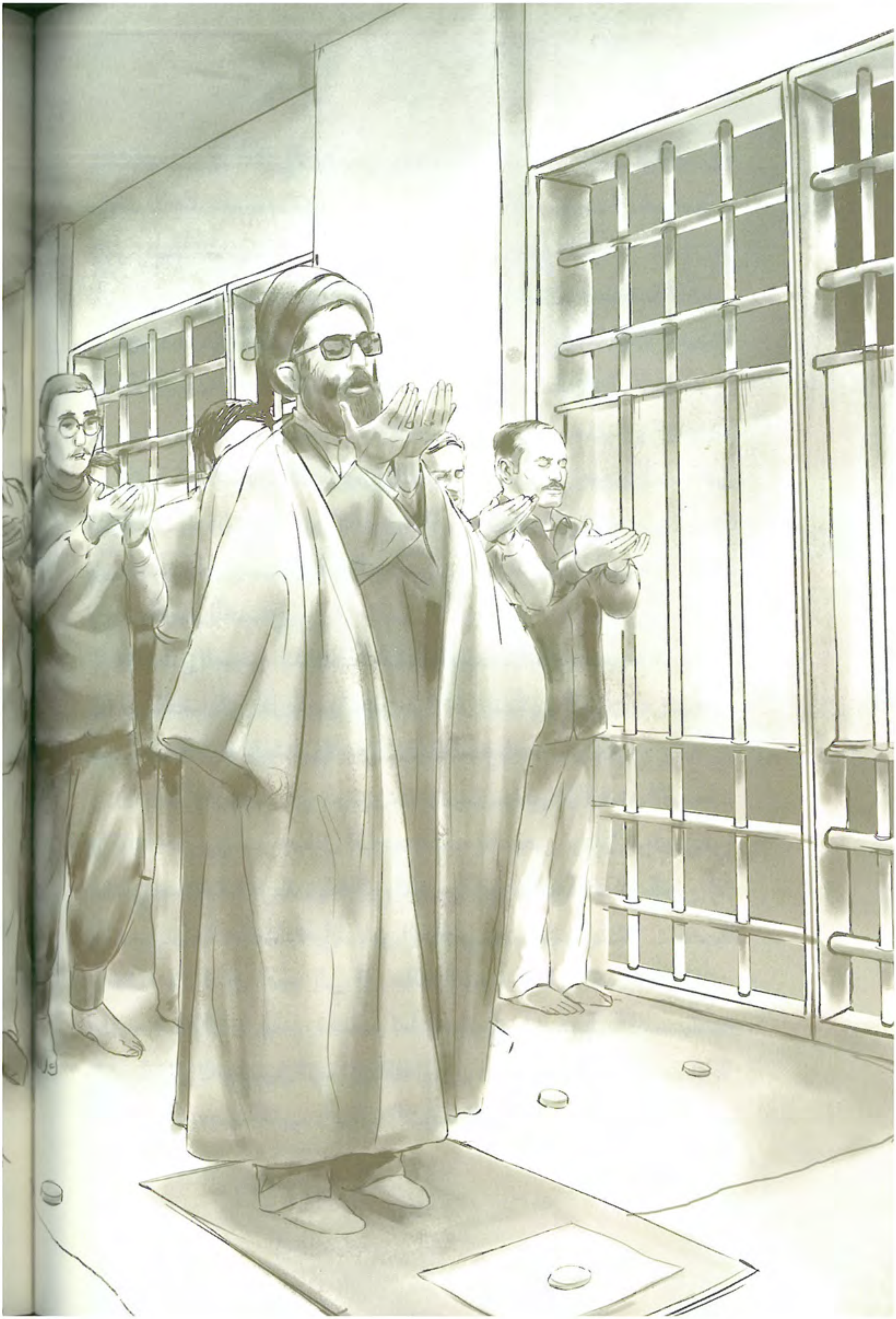

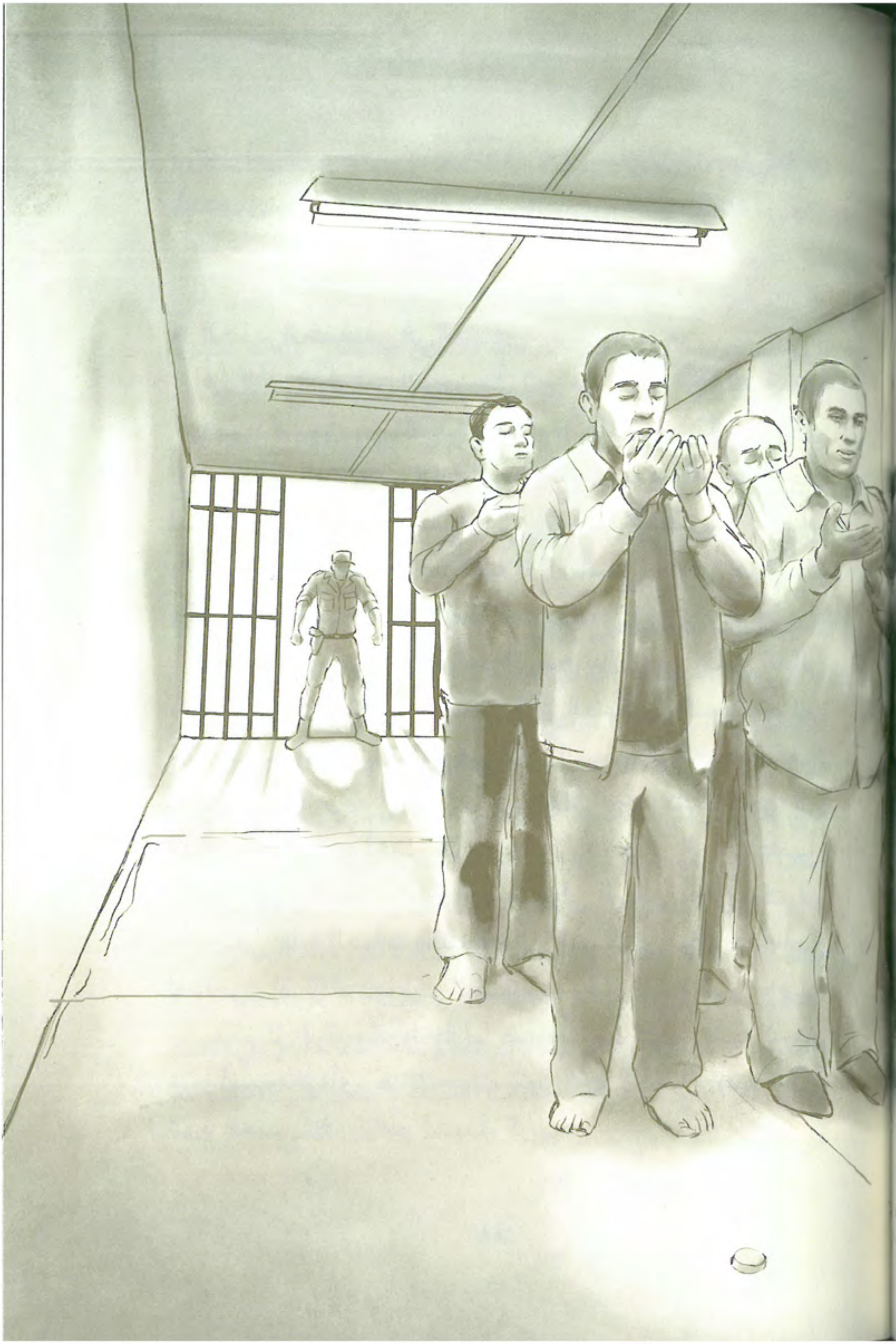

لم تخل أحياناً من صعوبة بسبب تشدّد بعض مسؤولي السجون. أما في الخمسينات فقد صارت هذه الأمور أقرب إلى المستحيل.

* المنبر الحسيني في السجن

في الأيام الأولى من السجن حلّ شهر محرّم سنة 1387هـ.ق وهو شهر يسود فيه جوٌّ ديني وتعقد المنابر للوعظ ولذكر مصيبة الحسين عليه السلام. تعاون قاسمي معي على إقامة الشعائر الإسلامية في السجن، وحثّ السجناء على إقامة الجماعة. فكنت أؤمّ هؤلاء العسكريين السجناء، وأخطب فيهم، وأعظهم بعد الصلاة، و«قاسمي» يتولى بعدي ذكر واقعة كربلاء والنياحة على الإمام الحسين عليه السلام.

واستمرّ الوضع على هذا المنوال بضع ليال. وفي إحدى الليالي دخل الضابط المسؤول عن السجن، فرأى العسكريين السجناء يصلون خلف سجين سياسي! توقّع -حين دخل السجن- أنّ الجنود سيقفون مستعدّين ويؤدّون له التحية العسكرية، لكن الوجوه كانت متجهة إلى القبلة ولم يكترث به أحد! فكبُر عليه المشهد، وغادر السجن غاضباً.

بعد انتهاء الصلاة جاءني أحد مسؤولي السجن وقال: أنت غير مأذون في إقامة الجماعة والتحدث إلى العسكريين. وكان هذا المنع لصالحي؛ إذ ازداد تعاطف العسكريين معي. قلت لهم: واصلوا جلساتكم كل ليلة، وأقرأوا خلالها صفحات من كتاب: «آنجا كه حق پيروز است»[107] (أي: هناك حيث يكون الحق منتصراً)، وفيه تحليل لثورة الحسين عليه السلام وتراجم لشهداء كربلاء.

* ابني لم يعرفني!

في أحد الأيام جاؤوا بابني مصطفى إلى السجن، وهو في الثانية من عمره.

جاء أحد الجنود وهو يركض قائلاً: جاؤوا بابنك. وتطلعت إلى باب السجن، فرأيت أحد الضباط يحتضن مصطفى ويتجه نحوي. أخذت مصطفى وقبّلته. لم يعرفني الطفل بسبب غيابي الطويل عنه في السجن، فنظر إليّ واجماً مندهشاً! ثم أجهش ببكاء شديد، ولم أستطع أن أهدّئه، فأعدته إلى الضابط ليردّه إلى الأهل الممنوعين من لقائي. وترك فيّ ألماً بقي يحزّ في نفسي حتى بعد ذلك اليوم.

* مذكّرات لم تكتمل

في هذا السجن بدأت بكتابة المذكرات اليومية للسجن، ولكني لم أواصل إلى النهاية؛ إذ اعترتني حالة سأم، تركت بعدها الكتابة، وآخر عبارة كتبتُها في هذا السجن: «إلى هنا أتوقف عن الكتابة؛ إذ ما الفائدة التي يمكن أن تترتب عليها؟!». واليوم حين أعود إلى تلك المذكرات آسف لعدم المواصلة؛ لأنها لم تكن -كما كنت أظن- غير ذات جدوى.

في هذا السجن شرعت في ترجمة كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة» لسيد قطب، وترجمت أكثر الكتاب لكنّ حالة الضجر، التي تصحب عادة طول البقاء في زنزانة صغيرة مظلمة تسودها حالة الرتابة والتكرار، حالت دون إتمام مهمة الترجمة وكتابة المقدمة، وبقي العمل ناقصاً حتى أيام السجن الرابع حيث أكملته. فالعمل على الكتاب بدأ في سجن وانتهى في سجن آخر.

وفي ما دونته من مذكرات في هذا السجن صور عن الأوضاع الأخلاقية السيئة بين العسكريين والانحطاط السلوكي لدى بعضهم، وسوء معاملة الضباط للجنود.

وتحمل مذكراتي سطوراً عن الضابط السجين. فهذا الضابط كان لحسن الحظ يتمتع بروح دينية ورغبة في أداء الفرائض والواجبات، وبلاء السجن عادة يزيد الفرد إقبالاً على الدين وتوجهاً إلى الدعاء والتضرّع، فالسجن كالسفينة التي قال عنها الله سبحانه: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». *

* سورة العنكبوت: الآية 65.

السجاد المهترئ

* صوت فلسطين

اعتُقلت سنة 1390هـ.ق/1970م على أثر التقارير العديدة المرفوعة عنّي إلى السافاك. كنتُ في إحدى ليالي صيف تلك السنة جالساً أستمع إلى «صوت فلسطين». وكانت الأيام أيام أيلول الأسود[108]؛ إذ تعرّض الفلسطينيون إلى مذبحة فظيعة في الأردن. الحادث جَلَل والمأساة كبرى، وما كان لنا تجاه تلك القضية سوى أن ننشدّ بقلوب دامية إلى إذاعة فلسطين نستمع منها إلى آخر أنباء المذبحة.

أذكر أن الإذاعة في تلك الليلة كانت تبثّ برقية «ياسر عرفات»[109] من الأردن إلى مؤتمر القمة العربي المنعقد في القاهرة. كنت أكتب نصّ البرقية من المذياع من خلال تكرار المذيع لها.

لا أزال أتذكر بعض عبارات هذه البرقية لشدة وقعها في نفسي. وحين قدم ياسر عرفات إلى طهران سنة 1400هـ.ق/1980م ذكرت له بعض عباراتها، من ذلك عبارة: «بحر من الدم.. وعشرون ألفاً بين قتيل وجريح..» فقال ياسر عرفات: «بل خمسة وعشرون ألفاً بين قتيل وجريح!».

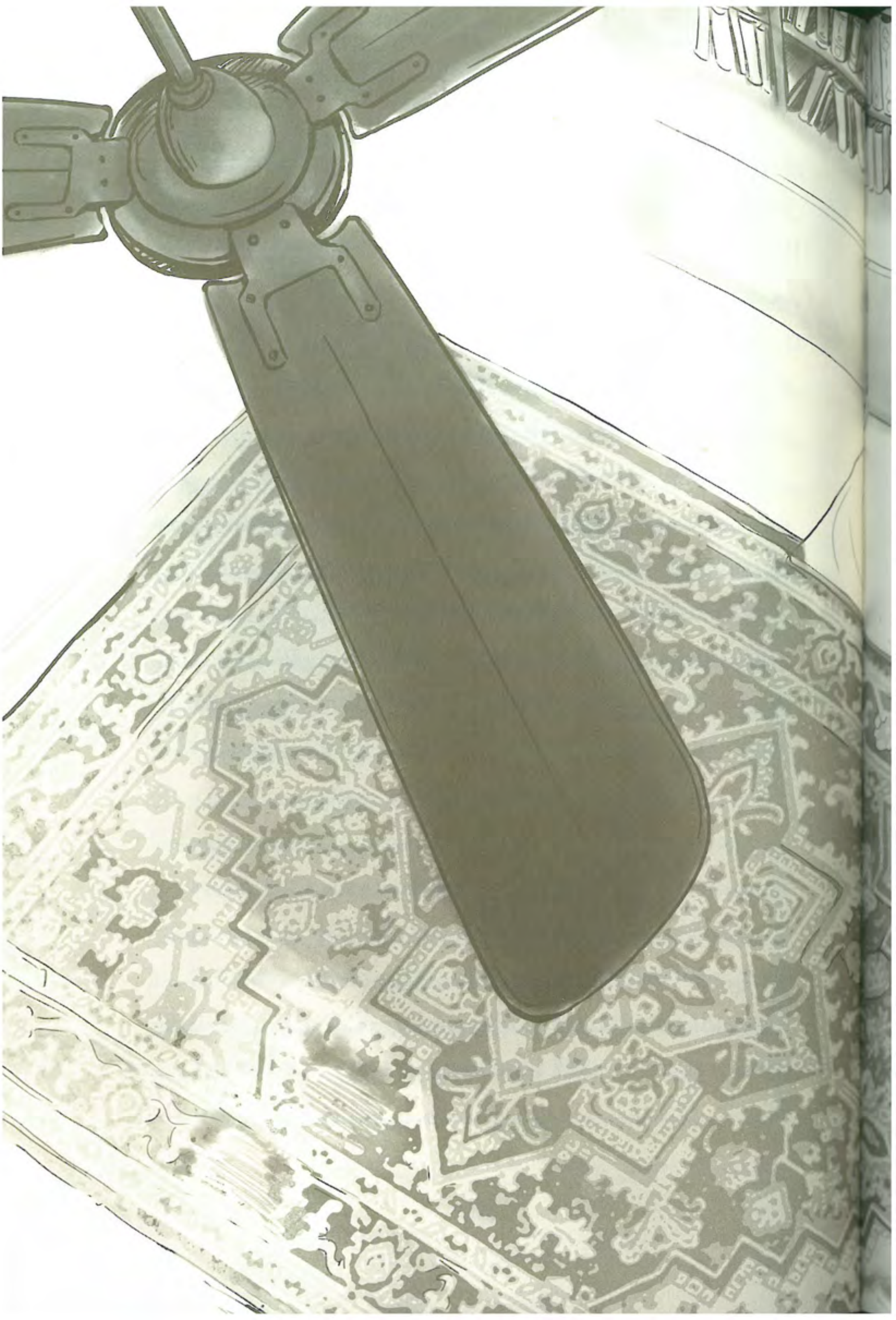

كنت منهمكاً في الكتابة والاستماع إذ دخل عليّ أخي السيد هادي مذهولاً مندهشاً، فقال: أنت جالس هنا؟! قلت: وأين عساني أن أكون؟! قال: ألم يلقوا عليك القبض؟! قلت: أنت تراني جالساً أمامك!!

جلس على الأرض، واستعاد أنفاسَه، وقال: كنت في مسجد «گوهرشاد»؛ إذ سمعت أحدهم (وذكر اسمه وهو شخص حاقد على الحركة الإسلامية ومتعاطف مع اتجاه السلطة الظالمة) يقول: إن السيد علي خامنئي قد ألقي القبض عليه، فنهضت من فوري، وهرعت إلى بيتك.بعد أن اطمأن أخي على وجودي في البيت غادرني؛ لكنه ترك ذهني مشوّشاً بعض الشيء. ما اهتممت بالأمر كثيراً. قبل ظهر اليوم التالي ذهبت كعادتي إلى بيت والدي؛ إذ كنت أزوره يوميًّا، أقضي معه ساعة من الوقت، أتباحث فيها معه حول المسائل الفقهية والعلمية، وأُسلّيه. كنت جالساً عند الوالد إذ دُقَّ الباب. ذهبت الوالدة لفتحه، ثم جاءت بعد هُنيهة مذهولة وقالت:

- اثنان من أفراد السافاك جاءا يسألان عنك.

- وماذا أجبتِ؟

- قلت: غير موجود.

- لماذا لم تخبريهم بالحقيقة يا أمّاه؟!

- هؤلاء ذئاب ويجب دفع شرّهم!

وراحت تلعن السافاك والسافاكيّين، وتصبّ غضبها عليهم.

الوالد تأثر، وعلت وجهه مسحة من الحزن والكآبة، ثم قال لي عاتباً: ماذا حدث؟ لماذا تعرّض نفسك مرة أخرى للاعتقال والمحاكمة؟!

حاولت أن أسلّي الوالدين وأرفع عنهما الكدر، قلت: لا بدّ من أنهم جاؤوا إلى البيت خطأً، ليس هناك أي شيء!

ثم خطر في ذهني أنّ السافاكيَّين سيذهبان إلى بيتي، فلا بدَّ من أن أسبقهما وأخبر زوجتي كي لا تُفاجأ. ودّعت الوالدين وخرجت مسرعاً. ولما وصلت البيت وجدت الوضع طبيعيًّا. ولم يأت إلى البيت أحد. أخبرت زوجتي بما حدث.

* وفاء للزوجة الصامدة

ومن الوفاء أن أقف ولو قليلاً عند دور زوجتي في حياتي، فهي:

أوّلاً: تتمتع برباطة جأش ومعنويات عالية، ما رأيت عليها يوماً أي خوف أو ضعف أو انكسار رغم ما تعرّض له بيتنا مراراً من هجوم الجلاوزة، ورغم اعتقالي أمامها مرات؛ بل رغم تعرّضي للضرب أمامها في منتصف الليل عند مداهمة بيتي لاعتقالي كما سأذكر في ما بعد.

كانت تزورني في السجن بمعنويات عالية قوية. وكانت تبعث في نفسي خلال زيارتها الثقة والاطمئنان. ولم يحدث أن أخبرتني وأنا في السجن بخبر يزعجني، ولا أتذكر أنها نقلت لي مثلاً خبر مرض أحد الأبناء، أو شيئاً يسوؤني عن الأهل والعائلة والوالدين.

ثانياً: صبرها الكبير على تحمّل شظف العيش قبل الثورة، وإصرارها على بساطة المعيشة بعد انتصار الثورة الإسلامية.

بيتنا كان وما يزال -ولله الحمد- بعيداً كل البعد عما يوجد حتى في البيوت العادية من فضول العيش وبهارج الحياة. وللزوجة السهم الأوفى والدور الأكبر في ذلك. صحيح أني بدأت حياتي بهذا الشكل ووجهت الزوجة في هذا الاتجاه، وأيقظت في نفسها هذه الروح، ولكن أقولها بصدق إنها سبقتني كثيراً في هذا المضمار.

وفي ذهني صور كثيرة عن زهد هذه المرأة الصالحة، لا يحسن ذكر بعضها. ومما يمكن ذكره أنّها لم تطلب مني يوماً شراء ألبسة أبداً؛ بل كانت تذكر لي حاجة الأسرة الملحّة من الألبسة، وتذهب هي وتشتريها بنفسها. ولم تشترِ يوماً حليّاً لها أبداً، كان لها حليٌّ من بيت أبيها ومن إهداء بعض أقاربها باعتها جميعاً، وأنفقت أثمانها في سبيل الله (تعالى). وهي لا تمتلك الآن أيّ قطعة من الحلي، ولا حتى خاتماً عاديّاً. وأذكر من حوادث بيعها الحلي في الشتاء في إحدى السنين حيث البردُ يشتدّ في مدينة مشهد، والناس يقبلون على شراء وقود التدفئة، وكان يومذاك الفحم بصورة خاصة. وفي مثل هذه الأوقات كان يراجعني عدد من المؤمنين ويضعون تحت تصرّفي مالاً لأشتري به الفحم وأوزعه على المحتاجين. وكنت عادة أشتري الفحم من دكان الفحام، وأضع ما أشتريه عنده، ثم أعطي حوالة لمن يحتاج ليأخذ الفحم من الدكان.

وفي تلك السنة، لم يراجعني أصحاب المال؛ بل راجعني الفقراء الذين يطرقون عادة أبواب العلماء في مثل هذه الأيام طلباً للفحم؛ لكنهم كانوا يعودون من بيتي خائبين. غمّني الأمر كثيراً.

رأت الزوجة الحالة، فاقترحت عليَّ أن أبيع سواراً كان أخوها قد أهداها إياه بمناسبة مولد أحد أبنائها. أَبَيت، لكنها أصرّت. أخذتُ السوار، ناوياً أن أبيعه بأكثر ما يمكن، والصاغة عادة يشترون الذهب بالوزن ولا يحسبون أجرة صياغته. وصادف أن جاءنا إلى البيت جار وصديق لنا. ذكرت له القصة ليتشجع على بيع السوار بأكثر ما يمكن. ذهب وباعه بألف تومان وبضع مئات، وقال: أنا أيضاً أضيف إلى المبلغ مثله. فاجتمع عندي مبلغ جيّد اشتريت به الفحم، وزال همّ الأسرة:

وبات أبوهم من بشـــاشته أباً لضيفهم والأم من بشـرها أمّاً

كما يروى عن الحطيئة.

* ظننتُ أنّ بيتك مؤثّث!

كان لهذا التحرر من فضول العيش أكبر الأثر في حياتي لأنه ما استعبد الإنسان إلّا هذه الزوائد الخارجة عن حدّ الضرورة، وحقًّا ما يقوله الشاعر:

لقد دقّت ورقّت واســـترقّت فضول العـــيش أعناقَ الرجال

لا بأس أن أذكر لكم أن الشيخ رباني الأملشي كان صديقاً حميماً لي وكان زميلي في دروس الحوزة العلمية في قم لسنتين. جاء في صيف إحدى السنين إلى مشهد، وكنت آنئذ أسكن في تلك المدينة، ولي بيت، غير أني تركت البيت في ذلك الصيف لأسابيع، وأقمت في مصيف قريب من المدينة. والحياة في مصائف مشهد بسيطة لا تكلّف شيئاً، ويستطيع طلبة العلوم الدينية في عطلهم الصيفية عادة أن يقيموا في بيوت أو غرف تلك المصائف بتكلفة زهيدة قد تقلّ عن تكلفة الحياة في المدينة. قلت للشيخ رباني يمكنك أن تقيم في بيتي وهو خال خلال الأسبوع عدا يومين. وكنت قد خصصت اليومين للجلسات مع الشباب القادمين من أرجاء إيران. وكان البيت يمتلئ بهم من الصباح حتى الظهر. سلمته مفتاح البيت، وبعد أيام رآني وقال بعد أن شكرني: ظننت أن بيتك مؤثث، وما علمت أنك أخليت أثاثه وأخذته إلى المصيف. ولو كنت أعلم بذلك لذهبت إلى الفندق. واسترسل في كلامه عاتباً على نواقص الأثاث في البيت بلهجة تدل على العلاقة الوثيقة الحميمة بيني وبينه. عرفت القصة وقلت له: أنا لم آخذ من البيت شيئاً سوى عدد من

البطانيات وعدد قليل من الصحون وكأس واحدة وعدد من الملاعق. أخذ ينظر إليّ بدهشة واستغراب وقال: ماذا تقول؟ قلت: نعم، هذا ما عندي وأثاثنا كله هو ما وجدته الآن في البيت، ولا يوجد لديّ أثاث أكثر من هذا. ساد الوجوم على الرجل وهزّ رأسه في دهشة يكتنفها الأسف على عتابه وقال كلمة مشفقة لا أزال أتذكرها.

* سجاد أرخص من البساط

ومثال آخر من حياتنا المعيشية أذكره لكم من فراش البيت. كان بيتنا مفروشاً بالسجاد كما هو المعتاد في البيوت الإيرانيّة غالباً؛ لكنّي رأيت أنّ هذا السجاد من الزوائد فبعتُه، وأبقيتُ سجادتين فقط في غرفة ضيوف زوجتي، وقلت في نفسي: أعتبر هاتين السجادتين بدلاً ممّا كان في جهاز الزوجة من السجاد. حين عزمتُ على بيع السجاد، أخفيتُ الأمر عن عائلة الزوجة، وكان إخوانها وأخوالها من تجار السجاد وأعلم أنّهم يمنعونني من ذلك. دعوت أحد الإخوة وهو موجود الآن في مشهد وقلتُ له: خذ هذا العدد من السجاد وبعه واشترِ لنا بدله بُسطاً. والبساط في إيران فراش زهيد الثمن صغير الحجم. قال: نعم، وكرامة. ذهبَ وجاء بالبسط، ففرش ثلاث حجرات وبقي شيء كثير منها، لعلّ الذي فرشنا به الغرف لم يتجاوز تسعة بُسط، وبقي منها 14 أو 15 بساطاً. قلت لأحد تلامذتي وهو الشهيد كامياب[110]: اجلس في سيارة الحاج صفّاريان (وهو الأخ الذي باع السجاد واشترى لنا البسط) ووزّع هذه البسط على طلابنا، وأعطِ كل طالب بساطاً أو بساطين حسب حاجته. وفعل ذلك وربما ما يزال بعض هذه البسط موجوداً في بيوت بعض أولئك الإخوة.

ثم رأت زوجتي ما فعلت، ولم تزد على أن تقول: لماذا أبقيت السجادتين في غرفتي؟! قلت: هاتان بدل ما جئت به في جهازك. قالت: لا، بعهما أيضاً. دعوت الأخ نفسه وباع السجادتين. ثم فرشنا غرفة ضيوف الزوجة بقطعتين من الموكيت وكان في نظرنا آنئذ أفضل من البساط. ثم إنّ الزوجة أهدت أخيراً قطعتي الموكيت ولم يبقَ في بيتنا حتى اليوم سوى البسط التسعة المذكورة، ولا يوجد في البيت سجّاد إطلاقاً باستثناء قطعة واحدة سأذكرها لما في قصّتها من طرافة.

بعد أن بعنا السجاد جاء أخوال الزوجة وإخوانها ورأوا ما فعلت فاستغربوا ولاموني على ذلك، وقالوا إنّ السجاد يبقى والبساط يبلى، وهذا ليس بزهد؛ بل هو الإسراف بعينه. قلت لهم: أولاً لا أعتقد أن الاقتصاد ينحصر في شراء السجاد دون البسط، ثم إنّي فعلت ذلك لأنّ هناك من يزعم أنّي قدوةٌ له، ولذلك أفضّل أن أعيش على البساط أو الموكيت.

ثمّ قال أحدهم: يُوجد سجاد هو أرخص من البساط، فلماذا لم تشترِ مثل هذا السجاد؟ قلت: وهل يوجد مثل هذا السجاد؟ قالوا: نعم، هناك سجاد يطلق عليه تجار السجاد اسم الأقرع، وهو الذي ذهب صوفه في بعض جوانبه، وبقيت خيوطه. وإذا أردت القناعة فاشتر مثل هذا السجاد. ذهبت واشتريت سجادتين قرعاوتين. وما تزالان موجودتين حتى اليوم، وهذا هو الاستثناء الذي ذكرته. والسجادتان هاتان مفروشتان في مكتبتي. فالبيت الذي أسكن فيه اليوم من طابقين، طابق للعائلة والطابق العلوي فيه غرفة لعملي وأخرى لاستراحتي وفيه صالة للمكتبة. والسجادتان مفروشتان في هذه الصالة، وهما تاريخيّتان. ومن الطريف، أني كنت في مدة رئاسة الجمهورية أسكن

في بيت متواضع خلف مجلس الشورى. وكانت السجادتان مفروشتين في البيت، فجاء أحد الأصدقاء ورآهما، فسأل الأولاد: لماذا قلبتم السجادتين على القفا؟! ضحك الأولاد وقالوا: ليس هذا قفاها؛ بل هو وجهها. وإنما ظنّ أنه قفاها، لكثرة ما ذهب من صوفها وبقيت خيوطها.

قلت إن هناك أموراً في بيتنا لا يحسن لي ذكرها، وما أستسيغ ذكره، وأكرر أن الفضل في ذلك يعود إلى منِّ الله سبحانه وتعالى علينا وإلى هذه الزوجة الصالحة، فإن مواقفها تجاه زخارف الدنيا وفضول العيش تحتاج إلى نفسٍ كبيرة منّ الله سبحانه بها على هذه المرأة، وشملتنا هذه المِنّة. في كل الظروف الصعبة التي واجهتها من سجن وتعذيب ونفي ومحاولة اغتيال، لم أرَ على وجهها علامة انكسار؛ بل كنتُ أستلهم من عزمها وإرادتها ما يعينني على مواصلة الطريق.

حتى والدتي -رحمها الله- مع ما كانت عليه من الصبر والبصيرة والصلابة لم تكن بهذه الدرجة من التحمّل والصمود. أمّي، كانت شجاعة ومقدامة، وكانت تشجّعني على مواصلة الجهاد، حتى إنّها قالت لي بعد خروجي من سجني الأول: أنا أفخر بك يا ولدي وأسأل الله لك التوفيق على هذا الطريق؛ ولكنها عند تكرر السجون والاعتقالات رقّت وبدأت تكلّمني بما يشبه العتاب على انقضاء فترة شبابي في السجون والمعتقلات. أما الزوجة فلا، لم يبدُ عليها أي ضعف أو ضجر أو ملل.

* كتاب «صلح الحسن»

أرجع إلى حديث عودتي من بيت الوالد إلى بيتي. لقد بدأت زوجتي على الفور تساعدني في الاستعداد لدخول السجن. كنت حين يحدث

ما يقوّي ظنّ اعتقالي أتهيّأ لدخول السجن بإعداد بعض المستلزمات الضرورية. أبدّل ملابسي، وأقصّ أظفاري، وآخذ من شعر لحيتي وشاربي، وفعلت كل ذلك. الذي كان يدغدغ خاطري آنئذ عدم اكتمال ترجمة كتاب «صلح الحسن». لقد كنت مشغولاً بترجمته، والناشر مهتمٌّ جدّاً في الإسراع بطباعته. ولقد أخذ منّي ما ترجمته من الكتاب ودفعه إلى المطبعة، وبعث لي بالنماذج للتصحيح. فبعض الكتاب مطبوع، وبعضه مترجم ويحتاج إلى المراجعة، وبعضه غير مترجَم.

انشغلت بتنظيم الكراسات وفرزها وترتيبها، كي أستطيع أن أطلب ما أريد منها حين أدخل السجن، فلعلهم سمحوا لي بإكمال عملي هناك.

ثم تغدينا وصلّينا الظهر والعصر، وجلسنا ننتظر قدوم رجال السافاك. زوجتي غلب عليها الكرى وراحت تغطّ في نوم عميق.

دخلت المكتبة لأستخرج ما قد يُسمح لي بمطالعته من كتب داخل السجن، وهناك خطرت في ذهني فكرة. لماذا لا أتوارى عن الأنظار، وأختفي في مكانٍ آمنٍ، لأُكمل الكتاب، ثم بعد ذلك ليحدث ما يحدث؟ استخرت الله سُبحانه بالقرآن الكريم مراراً، فكانت الآيات الكريمات كلها مشجعة على الاختفاء، وأذكر منها الآية الكريمة: «**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**»*.

شرعت في رزم الكراسات، وأيقظت زوجتي، وأخبرتها بعزمي. سُرّت، وقالت: إلى أين؟ قلت: لا أدري، ولكن أريد أن أنهي الكتاب. دعت لي بالسلامة، وودّعتها. خرجت من البيت وأنا أحتمل أنّه مراقب، ولكنّي لم أرَ أحداً.

---

* سورة ص: الآية 32

توجّهت إلى بيت صديقي الشاعر المرحوم غلام رضا قدسي تعجّب حين رآني أطرق عليه الباب في حرّ الظهيرة. قصصت عليه ما حدث. رحّب، وسُرَّ بي كثيراً؛ لأنّه كان رجلاً يعيش ما أعيشه من هموم إسلاميّة. أصرّ عليّ أن أبقى في بيته لأُكمل عملي هناك؛ ولكنّي أبَيْتُ، وقلت: لا طاقة لي بالبقاء بين جدران أربعة، وأريد أن أذهب إلى مكان أستطيع فيه التحرك. وطلبت منه أن يدعو صديقي «السيد جعفر القمي»، لنتشاور معاً في تعيين مكان إقامتي مستتراً. وكان هذا الصديق أيضاً ممن يحملون هموم الحركة الإسلامية، وعاش التشرّد لسنين. جاء السيد جعفر إلى بيت قدسي، وبعد التشاور، استقرّ الرأي على قرية «أخلمد» وهي مصيف قرب مشهد. استخرت الله سُبحانه في الخروج من مشهد، ثم استخرته في الذهاب إلى تلك القرية وكانت نتيجة الاستخارتين جيدة ومشجعة. استدعيت أحد أقاربي ممّن يمتلك سيارة. وأصرّ السيد القمي على اصطحابي كي لا أعيش الوحدة. بقيت هناك شهراً أو أكثر، فأتممت الكتاب، وأرسلته إلى طهران، حيث كان يطبعه الأخ حسن طهراني نيّري[111].

عدت إلى مشهد، وشرعت بحياة اعتيادية أتجوّل وأحضر المجالس. ولم أجد من يتعقّبني. قلت في نفسي: ربّما انصرفوا عن اعتقالي، ولم يكن الأمر الذي حفّزهم مهمّاً. وما أن اطمأننت حتى أعدت ما كنت أخفيه إلى مكانه. وما كان ظنّي صادقاً؛ إذ عاد السافاك واعتقلني في شهر «مهر»*. وهذه واحدة من ثلاث مرات اعُتقلت خلالها في هذا الشهر نفسه حتى سميته شهر «كين». ومِهر: في الفارسية تعني الحُبّ، و«كين»: تعني الحقد.

---

* مهر، هو الشهر السابع من أشهر الهجرية الشمسية بحسب التقويم المعتمد في إيران.

المحكمة العسكرية

* أمّ كالأسد

في أحد أيام الشهر المذكور كنت مدعوّاً إلى بيت والدي للغداء، وكان عنده ضيوف من العلماء. ذهبت مع مصطفى وهو إذ ذاك ابن أربع أو خمس سنين. تركت مصطفى عند الوالدة، وذهبت عند والدي في الجناح الخارجي. وبيوت العلماء عادة -ولو كانت صغيرة- تشتمل على جناحين: الأول خارجي للضيوف، والآخر: داخلي للعائلة، ولكل جناح باب مستقل.

كنا نتغدّى مع الضيوف إذ جاء أحد إخواني وقال لي: السافاكيون دخلوا البيت. أسرعت نحوهم كي لا يدخلوا جناح الضيوف. رأيت والدتي في فناء البيت أمام اثنين من رجال السافاك تجادلهما بشدّة. كانت متلفعة بحجابها، مغطّيةً وجهها، واقفة أمام الرجلين كالأسد. وكان الذي يجادل والدتي بالذات أحد محققي السافاك المعروفين، وقد قُتل بعد انتصار الثورة.

فهمت من خلال تبادل الكلام بين الوالدة والسافاكي أنّ رجال السافاك جاؤوا أولاً من باب الجناح الداخلي، فردّتهم والدتي وقالت لهم: سيد علي غير موجود. وكلما حاولوا اقتحام البيت منعتهم الوالدة، وسدّت الباب في وجوههم. بعد ذلك اتّجهوا نحو الباب الثاني فدقُّوه، وجاء أخي -وهو لا يعلم من خلف الباب- ففتح لهم الباب، ودخلوا البيت، واحتدموا مع الوالدة في نقاش. وحينما رأوني نازلاً إلى الفناء قال أحدهم للوالدة: هذا سيد علي، لماذا تقولين إنه غير موجود؟! والوالدة لم تتراجع؛ بل كانت تجيبهم بشدّة!

تدخلت في الكلام المتبادل، ووجهت كلامي إلى محقق السافاك، وقلت: أتعلمون من هذه السيدة؟! ذكرت اسم الوالدة بإجلال، ثم التفت إلى والدتي وقلت لها: دعيني يا أمّاه أتكلم مع هؤلاء بنفسي، واتركي الكلام معهم. ثم قلت لرجال السافاك: ماذا تريدون؟ قالوا: تذهب معنا. قلت: أنا جاهز. كان ابني مصطفى خلال كل هذه المدة ينظر إلى المشهد مندهشاً؛ بل مذعوراً. ودعته، وأودعته عند والدتي، وودّعت والدتي. وفي الطريق إلى الباب أسمعني أحد الجلاوزة كلمة نابية ردًّا على كلامي بشأن الوالدة، فأجبته بحدّة. اقتادوني إلى مبنى السافاك.

* في غرفة التحقيق

أدخلوني غرفة الرئيس، فإذا هي غرفة فخمة فيها أثاث فاخر، وفي مؤخرتها منضدة كبيرة يجلس خلفها الرئيس. كان مطرقاً متشاغلاً بأوراق كانت أمامه على عادة رؤساء السافاك في المحاربة النفسية. وعلى طريقتي في الردّ تربّعت على كرسي وثير كان في الغرفة وأشغلت

نفسي بأمور تدل على عدم اكتراث بالرئيس. عندما شاهد ذلك، رفع رأسه وسألني: من أنت؟ وهو يعرفني طبعاً تماماً. وهل حالي على مثله نُكر؟! أجبته. قال: عجيب، أين كنت يا سيد خامنئي؟ فهمت من لهجة الأسئلة أن معلومات السافاك ناقصة إلى حدّ اعتقادهم بأني كنت متوارياً وأنهم لم يعلموا بعودتي إلى مشهد، ولا يعرفون أنني أسكن في بيت مستقل؛ بل يعتقدون أني أعيش في بيت والدي. وهكذا كان ذاك الجهاز الظالم السفّاك في معلوماته واستخباراته!

شرع في الحديث معنّفاً ومؤنّباً، وكنت أجيبه تارة بالحدّة نفسها، وأسكت تارة سكوت غير مكترث بحديثه. وفي الأثناء دخل أحد المحققين وبيده ملفّ ضخم. وقف إلى جانب الرئيس، وفتح الملف أمامه، وبدأ يشير بإصبعه إلى مواضع خاصة في أوراقه والرئيس يحرّك رأسه متظاهراً بتأثره وانزعاجه مما يقرأ. وكانت حركة المحقق والرئيس واضحة الافتعال. فما كان الهدف منها سوى بثّ الرعب والخوف. ثم رفع الرئيس رأسه وقال بلهجة غاضبة: خذوه.

أخذوني إلى غرفة فيها مجموعة من رجال السافاك يقفون بشكل دائري. أوقفوني وسط الدائرة، وبدأوا يتناوشونني بالكلمات النابية الجارحة. لقد مررت بتجربة مشابهة من قبل، وكنت هذه المرة أكثر استعداداً لمواجهتهم والردّ عليهم بشدّة وقوّة. طبعاً لم يكن التعذيب الجسدي يمارَس حتى ذلك الوقت.

ما أزال أتذكر أحد أولئك السافاكيين وكان اسمه نشاط -وهو اسم مستعار طبعاً-، وكان برتبة عقيد، لكنه يرتدي البزّة المدنية، خاطبني قائلاً: ماذا تريدون؟ ما تظنون أنكم فاعلون؟ انظر ما فعله الملك

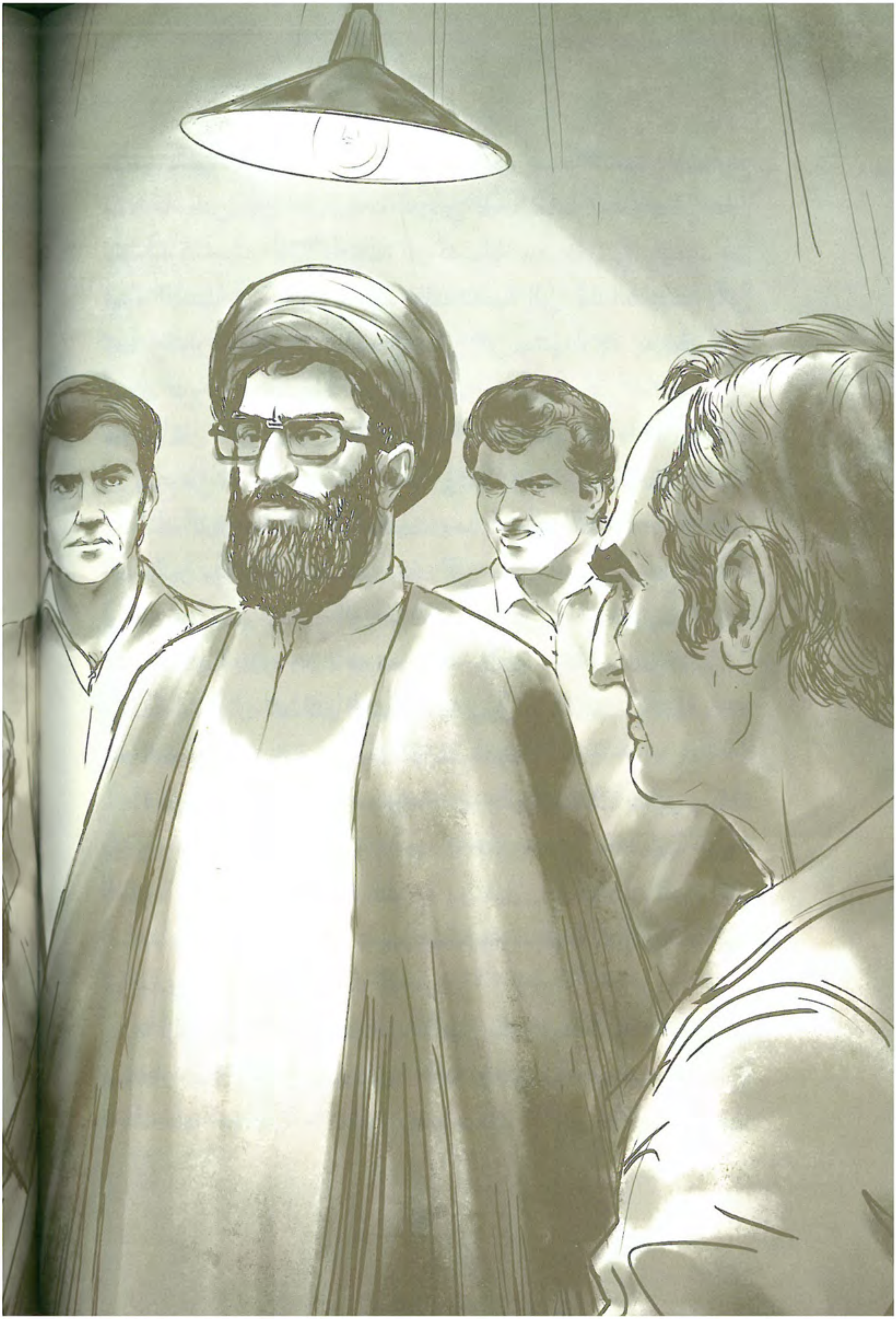

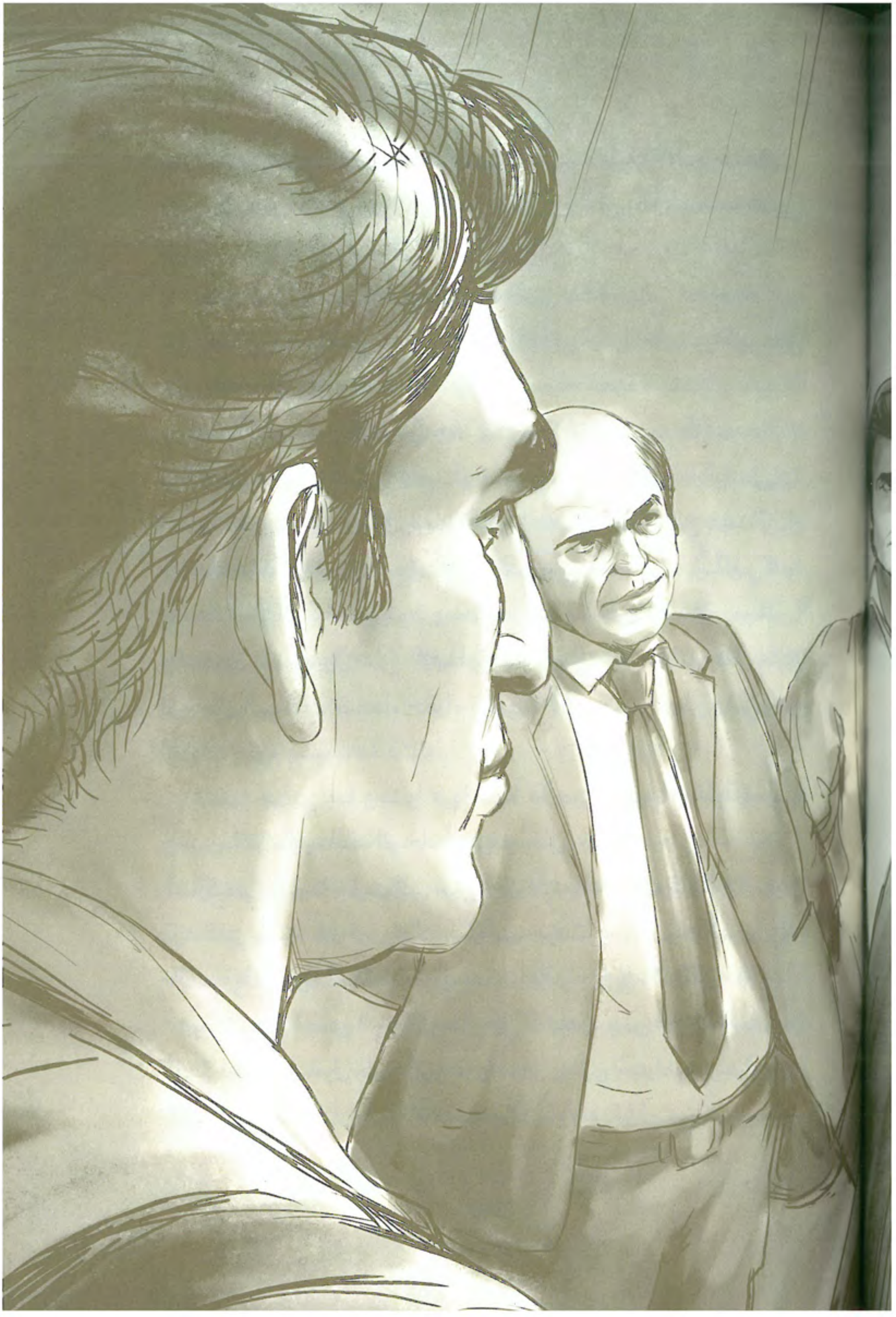

حسين[112]. إنه مع ضعفه وعدم اقتداره قتل خمس مئة ألف فلسطيني في يوم واحد؛ ونحن بقوتنا واقتدارنا قادرون على قتل خمسة ملايين إنسان بسهولة.

تعجبت كثيراً من كلامه، فالعدد الذي ذكره مبالغ فيه جدًّا. فهو إما جاهل مخدوع أو يريد أن يخدعني. وعلى كلا الاحتمالين فهو يدلّ على تفاهة الرجل.

هذا أولاً، والأمر الآخر أنّ هذا الكلام لا يُخاطَب به طالب علم لا يملك غير القلم والمنبر. نعم، لو كنت زعيم حركة جماهيرية مليونية منظمة لكان لتهديده بقتل خمسة ملايين معنى، أما وأنا في هذه الحال فلا دلالة لكلام الرجل سوى أنه أضعف مني بكثير. والحقُّ أنهم كانوا ضعفاء جدًّا في شخصيتهم ومنطقهم، لكنهم طبعاً ضعفاء مجانين. والمجنون قد يصول على الإنسان بغتة ويفتك به. لذلك كنت أرى أنّ رجال السافاك ضعفاء حقراء تافهون، لكني كنت أحسّ بشيء من الخوف منهم بسبب ما ذكرته.

فتشوا جيوبي وما وجدوا فيها شيئاً ذا جدوى لهم. خرجوا وبقيت وحدي أكثر من ساعة. ثم جاء أحدهم وقال: تعال.

أركبوني سيارة اتجهت إلى مبنى آخر. حينما دخلته عرفت أنه السجن ذاته الذي كنت فيه قبل ثلاث سنوات. عرفت من جدرانه البيضاء أنه «الفندق الأبيض» كما كنا نصطلح عليه، فالدار داري والمكان مكاني.

زجّوني فى إحدى الزنزانات. كان في السجن بعض العرفاء المدربين الذين اجتمعوا حول باب الزنزانة وأخذوا يبدون احترامهم واهتمامهم بالسجين الجديد. كان باب الزنزانة مغلقاً طبعاً، ولم يكن يُسمح لي بالخروج.

بعد مرور أيام فكرت في إكمال ترجمة كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» لسيد قطب. كنت قد ترجمت ثلاثة أرباع الكتاب في السجن الثالث وأوكلت ترجمة الربع الأخير إلى أخي السيد هادي. طلبت من أخي ما ترجمه من الكتاب، وراجعته ليكون منسجماً مع ما قبله. ثم ترجمت الفصل الأخير، وهو فصل قويّ في تعبيره وهجومه على الحضارة الغربية، وكتبت مقدمة جيّدة استخدمت فيها تعابير ومصطلحات مبتكرة وضعتها بين فارزتين تمييزاً لها عن بقية النص، ونظمت الصفحة الأولى من الكتاب، واستمرّ ذلك ما يقرب من شهر، ثم سلمته كاملاً إلى أخي السيد هادي، وذكرت له اسم الشخص الذي سيتولى طباعتَه.

في تلك الأيام أخبروني أن كتاب «صلح الحسن» للشيخ راضي آل ياسين وهو مما ترجمته من العربية، ويتضمن تحليلاً تاريخيّاً لصلح الإمام الحسن عليه السلام، قد خرج من المطبعة. ثم جاؤوني بنسخة منه، وسررت به كثيراً.

* التعاطف المزدوج

بعد مضي أسبوعين على سجني سمعت أحد العرفاء المسجونين ينادي في السجن: البشارة.. البشارة.. مات عبد الناصر. كان وقع النبأ عليّ مؤلماً جدًّا. وهنا لا بد من الإشارة إلى مفارقة عشتها وعاشها الإسلاميون المناضلون في إيران، وهي تعاطفنا الشديد مع «سيد قطب» وفكره الحركي وتعاطفنا أيضاً مع قاتله «جمال عبد الناصر». لقد بكيت عند سماع خبر إعدام سيد قطب، وبكيت أيضاً لدى سماعي نبأ موت عبد الناصر.

انشدادنا إلى سيد قطب واضح لا يحتاج إلى بيان أسبابه، فالرجل بقلمه الأدبي، وبمعاناته العملية، وبفكره المتوقّد القرآني قدّم الإسلام بصورة حركية معطاءة ذات آفاق بعيدة تبعث في الإنسان المسلم شعوراً بالاعتزاز بدينه وبالترفع على ما يشغل الناس من توافه الأمور. كما أنّ الرجل يتحدث في تفسيره بلغة إسلاميّة حركيّة لا يجد فيها المسلم -أيّاً كان مذهبه- تعارضاً مع معتقدات مذهبه، اللهم إلّا ما يذكره من رواية موضوعة بشأن سبب نزول آية تحريم الخمر، فهي تتنافى مع اعتقاد من يؤمن بعصمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وكنت أعذره لأنه ممن لا يؤمن بعصمة الإمام، لا سيّما قبل حكم تحريم الخمر، وفي الجملة يدلّ نقل الرواية المفتعلة على عدم الإحاطة الكاملة بشخصية أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلّين.

أما اعتزازنا بعبد الناصر فيعود إلى أسباب نفسية لا عقائدية. لقد كنا نواجه في إيران عملية استكبارية هائلة ضخمة تستهدف إذلال الدين ورجاله. وكان لهذه العملية أثرها الكبير في خلق هزيمة نفسية لدى الشباب والمثقفين الذين تضخمت أمام أعينهم القوى المتفرعنة في العالم. وفي هذا الجوّ المهزوم أمام بطش الغرب وأمريكا كنا ننشدّ لكل صوت يتحدّى هذه القوى، ويطلق بوجهها كلمة قوّة وصمود. وكان عبد الناصر من أصحاب هذه الكلمة. كنّا نشعر بالعزّة حين نسمع عبد الناصر يتحدّى كلّ طواغيت العالم، ونتلهّف لاستماع خطاباته من «صوت العرب»[113]. كنّا ننشدّ لكل خطوة عملية تستهدف التحرر من نير السيطرة الاستعمارية البغيضة على العالم الإسلامي؛ بل على العالم الثالث بأجمعه. ومن هنا، كنّا متعاطفين أيضاً مع كل الثورات في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

أذكر أني حين سمعت نبأ قيام الثورة الليبية[114] بادرت إلى تأييدها فوراً على المنبر في إحدى خطبي، وباركت للثوار تحريرهم ليبيا من حكومة من أسميته «إبليس» بدل كلمة «إدريس». وحين قابلت الشيخ هاشمي الرفسنجاني بعد ذلك عرفت أنه هو أيضاً بادر إلى تأييد الثورة الليبية في مجالسه.

كنا في هذه المواقف ننطلق من شوق عميق في أنفسنا إلى استعادة العزّة التي سحقها الطغاة والكرامة التي انتهكها المتفرعنون.

أضف إلى ذلك كله أن اسم عبد الناصر كان في أذهاننا مقترناً بعزّة إخواننا العرب المسلمين وصمودهم ومقاومتهم أمام القوى الصهيونية والرجعية في المنطقة. رغم أنّنا كنا نتألم من نهجه الذي دفعه إلى الاصطدام بالإسلاميين.

وبالمناسبة فإنّ إعلام الشاه كان معبّأً على خلق روح عدائية في إيران تجاه عبد الناصر. وما آلمني أكثر لدى سماع نبإ موت عبد الناصر هو هذه الطريقة التي أعلن بها ذاك العسكري نبأ الوفاة. وكان فرحاً للنبأ، ولا يدري بالتأكيد سبب فرحه، ولا يعرف شيئاً عن عبد الناصر؛ بل هو متأثر بإعلام الشاه لا غير.

كنت أملك مذياعاً صغيراً. هذا المذياع وصل إليّ في خفارة بعض المتسامحين من الحرس، وكنت أخفيه عن أعين المتشدّدين منهم. واستعمال المذياع على العموم محظور داخل السجن. بعد سماع نبإ موت عبد الناصر عكفت على استماع إذاعة صوت العرب. كان أكبر سلوة لي في تلك الأيام ما أسمعه من تلاوات قرآنية في هذه الإذاعة، أذكرها الآن بتفاصيلها. أذكر مثلاً أنّ كبار القراء المصريين

مثل «عبد الباسط» و«مصطفى إسماعيل» و«محمود علي البنا» تلوا الآية الكريمة: «وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ»*. وكان أحدهم يقرأ الآية ثم يعيدها من قوله (تعالى): «قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ» وسجّلتُ خلف المصحف آنئذ أسماء من سمعتهم من قرّاء. وكنت من أول الليل أستمع التلاوات حتى إذا انتهت في «صوت العرب» أنتقل إلى إذاعات أخرى بحثاً عن الأصوات القرآنية.

* وجدّك أقتلك!

وإذ ذكرت ابتهاج ذلك الجندي بسماع خبر موت عبد الناصر بسبب ما كان يسيطر على الجيش بشكل خاص من إعلام، أذكر واقعة أخرى تحكي بوضوح الذهنية السائدة بين الجنود آنذاك.

كان بين السجناء في هذا السجن عريف من أهالي محافظة آذربايجان يتكلم التركية محكوم عليه بستة شهور لسبب تافه. ويبدو أنه كان فقيراً وبحاجة إلى المال. سُمِحَ له أن يتخذ من حفرة قرب المرافق الصحية مكاناً لصنع الشاي وبيعه على السجناء. كنت أتكلم معه بالتركية، وبذلك نشأ نوع من الودّ والتآلف بيننا. كان الجنود يلتفّون حول تلك الحفرة فيشربون الشاي، ولم أكن أشاركهم الجلسة تلك لأنّي كنت ممنوعاً من الخروج من الزنزانة، ثم إني لم أكن أرغب في الذهاب إلى ذلك المكان الوضيع، لكنّي كنت من زبائن هذا العريف. يأتيني بالشاي إلى الزنزانة وأسلّمه الثمن نقداً، وهكذا جمع بيني وبين

---

* سورة آل عمران: الآية 146

هذا الرجل: السجن واللغة المشتركة وكوني زبوناً جيّداً له.

في صباح أحد الأيام كنت مع السجناء أتشمّس، فقد كان يسمح لنا بذلك أحياناً. كنت أجلس عادةً في زاويةٍ من ساحة السجن فيحيط بي الجنود، وأنا أسلّيهم بأحاديث شتّى من قصص وأخبار وطرائف. انجرّ الحديث يوماً إلى الشيوعيين، ولم يكن لهم وجود واضح في تلك السنين؛ بل ظهرت بدايات نشاطاتهم في ذلك العام بالذات. وخلال وجودي في السجن جاؤوا بعدد من الشباب وأودعوهم السجن بتهمة الشيوعية، وكان النظام البهلوي يضخّم تلك النشاطات!

كان هذا العريف يشاركنا الحديث في إبداء استيائه الشديد من الشيوعيين مدّعياً أنّه قتل عدداً منهم يوم أعلنوا دولة مستقلة في «آذربايجان» سنة 1365هـ.ق/1946م. وكان يلقي باللائمة على السافاك لعدم أخذ الشيوعيين بالشدة، ويقول قاطعاً: «إني أستطيع أن أقتل الشيوعيين واحداً واحداً دون أن يعلم بذلك أحد لو سمح لي السافاك بذلك، ولكن السافاك يتساهل مع هؤلاء فيودعهم السجن ليأكلواويناموا مرتاحين». ويكرر اللوم على السافاك لأنه لا يسمح له بقتل هؤلاء الشيوعيين المسجونين.

خطر لي أن أمزح مع هذا الرجل. قلت له: وكيف إذا أمرك السافاك بقتلي؟! فأجاب على الفور وبلهجة صارمه: وجدّك أقتلك! «وجدّك»! إنه أقسم بجدّي لعلمه بانتسابي إلى رسول الله ﷺ من عمامتي السوداء. ثم إنّ بيننا -كما ذكرت- مشتركات كثيرة. ومع ذلك يقول بكل جدّ: «أقتلك».

هذا نموذج لنتاج غسيل الدماغ في أوساط العسكريين آنذاك.

خلال هذه الفترة دخل السجن مجموعة من الشباب الجامعيين، وهذه أول مرّة يقدم النظام على اعتقال شباب جامعيين في مشهد. فهمت من هذه الظاهرة أنّ ثمة تحركاً جديداً في المجتمع، وهذا ما سرّني جدًّا، واشتقت كثيراً أن أعلم بما يجري خارج السجن، ولكن لا سبيل إلى ذلك.

حين جاؤوا بهؤلاء الشباب إلى السجن احتاجوا إلى زنزانتي فأخرجوني منها ووضعوني في حجرة كبيرة لدى باب السجن معدّة لمقابلات السجناء؛ لأنّ الزنزانات كانت قليلة في هذا السجن، ثم إنّي أمضيت شهرين أو أكثر في الزنزانة ولم يكن من اللازم لديهم أن أبقى أكثر فيها.

* الماقوت

حين كنت في الزنزانة (قبل انتقالي إلى الغرفة الكبيرة) حلّ شهر رمضان، وغمرت قلبي فرحة بحلول هذا الشهر. فأنا أحبّه كثيراً منذ طفولتي؛ إذ يتغير فيه وجه الحياة اليومية، ويحسّ الإنسان الصائم فيه بلذّة معنوية خاصة.

انقضى اليوم الأول من أيام الصوم، وحان وقت الإفطار فما جاؤوا لي بشيءٍ؛ لأنّ شهر رمضان لم يكن يحسب له حساب لا في المعسكر ولا في سجنه. أدّيت الصلاة، ورحتُ أسرح في عالم ذكريات هذا الشهر، وخاصة في ذكريات ساعة الإفطار وفرحة الصائم لدى الإفطار. تذكرت تلك الجلسات البهيجة المفرحة على مائدة الإفطار مع الأهل وأمامنا «السماور» يغلي، وتذكّرت تلك الأطعمة الخفيفة الخاصّة بالإفطار، وخاصة «الماقوت» (طعام معروف عند أهل مشهد ويبدو

أنّهم يختصون به) وهو أحبّ طعام إليّ في الإفطار، ويصنع من الماء والنشاء والسكر، ويطبخ بشكلٍ خاصٍّ، وزوجتي تجيد طبخه كما تجيد طبخ سائر الأطعمة. فجأة عدتُ إلى نفسي، فاستغفرت الله، لعلّ الجوع هو الذي أثار في نفسي هذه الذكريات، ولعلها الوحدة. على أيِّ حال كان لا بدّ من الصبر.

بعد نصف ساعة من حلول المغرب حصلت على فنجان من الشاي. ثم بعد مدّة جاؤوا بالعشاء، ولم تكن تميل إليه النفس لرداءته؛ ولكنّي أكلتُ شيئاً منه واحتفظت بالباقي للسحور. وفي السحور تناولت ما تبقى على مضض؛ لأنّه أساساً كان رديئاً وبعد تبييته أصبح أردأ. وهكذا مضى اليوم الأول.

وفي اليوم الثاني بعد الظهر أخبرني الحرس بأنّ هناك شيئاً مُرسَلاً إليّ. تناولته وفتحته فإذا بألوان الأطعمة التي أشتهيها في الإفطار قد أُرسلت إليّ في أطباق عدّة. والطعام كان يكفي لأشخاص، وزوجتي قد أعدته واستطاعت أن توصله لي في السجن. وفي اليوم نفسه أيضاً جاؤوني من البيت بأدوات إعداد الشاي فكان إفطاراً شهيّاً على ما يرام أخذت منه كفايتي وأرسلت الباقي إلى السجناء. وتكررت العملية كلّ يوم.

* السجن المُفسد

توفّرت لي خلال ليالي شهر رمضان فرصة التلاوة والدعاء والذكر، ويحضرني أني أدّيت ليلة عيد الفطر الصلاة المسنونة، حيث تقرأ بعد «الحمد» سورة الإخلاص ألف مرّة.

وهذه ثاني تجربة رمضانية في السجن. ففي السجن الثاني قضيت

نصف شهر رمضان، وفي هذا السجن قضيت رمضان كلّه، وفي السجن الخامس أيضاً قضيت كل شهر رمضان. وهي فرصٌ أفادتني كثيراً في ترويض النفس والتوجّه نحو ربّ العالمين، وتدبّر آيات القرآن ومفاهيمه السامية، على الرغم مما كان فيها من معاناة خاصة في السجن الخامس على ما سأذكره.

أكثر الذكريات التي دوّنتها في هذا السجن ترتبط بأيام الشهر المبارك.

في هذا السجن وفي السجن السابق تلمّست بوضوح المأساة الخلقية بين السجناء العسكريّين، وهي مأساة تدلّ على تخطيط أكثر مما تدلّ على إهمال. لقد وجدت المخدِّرات منتشرة بين السجناء العسكريّين رغم الحظر الشديد على إدخال أي شيء إلى السجن ما لم يخضع لمراقبة شديدة.

بلغني أنّ بعضَهم يشرب الخمرة في سجن الرّتباء. ورأيت في هذا السجن وفي السجن السابق من يتناول «البنج» كمخدّر، حيث يتحلّق السجناء ويتعاطون البنج، ويهذون في حالة شبيهة بالإغماء.

كان الشاب النظيف إذا دخل هذه السجون يفسد لا محالة. فقد كانت أشبه بمستنقعٍ آسنٍ يصيب بعَفَنِهِ من يدخله إلّا من رحم ربي. على أنَّ هذا السجن عسكريٌّ خاضع لانضباط دقيق، فما بالك بالسجون المدنية؟

لذلك كنت أحاول في ما أحاول داخل السجن أن أنقذ من أمكن إنقاذه في هذا الجوّ الموبوء. وقبيل حلول شهر رمضان جمعت السجناء ووعظتهم وذكّرتهم بالموت والآخرة والحساب، فوعدوني أن يصوموا وأقسموا على ذلك. وبالفعل فقد صاموا اليوم الأول، وفي

اليوم الثاني تحملوا الصوم إلى الظهيرة، لكن إرادتهم كانت رخوة بفعل جوّ السجن الفاسد، فانتهى أثر موعظتي بينهم وأفطروا. وكتبت في مذكراتي أسماءهم، من صام في اليوم الأول فقط، ومن واصل الصوم إلى ظهر اليوم الثاني ثم أفطر.

* دفاعي في المحكمة

كان ملفّي في هذا السجن مطروحاً أمام القضاء العسكري. والمحكمة العسكرية موجودة في وسط المعسكر، وعلاقتي بالمحكمة كانت متواصلة طيلة أيام السجن. إما أن تستدعيني للإجابة عن الأسئلة، وإما أن أكتب إليها معترضاً على جملة أمور فتستدعيني أيضاً للردّ على اعتراضاتي. اعترضت على عدم إطلاق سراحي بكفالة مع أنّ القانون يجيز ذلك. واعترضت على عدم السماح لي بلقاء الأهل والأصدقاء، واعترضت على إبقائي في زنزانة انفرادية رغم اكتمال مراحل التحقيق. وكنت أعلم أنّ المحكمة لا تستطيع أن تسمح لي بشيء مما طلبت، ولكن كنت أستهدف تسجيل موقف أمام مخالفاتهم القانونية. ويحضرني أنّ رئيس المحكمة مرّةً قال لي مجيباً على طلب من طلباتي: يجب أن أراجع السافاك. وكانت فلتة خرجت من لسانه، أخذتها عليه، وأبديت تعجّبي من قوله، وقلت:

- كيف تكون المحكمة تحت نفوذ السافاك؟!

فغيّر كلامه بسرعة، وبدأ يثني على رئيس السافاك في مشهد ويذكر سجاياه!

تعيّن يوم المحاكمة، وطلبت ملفّي لمراجعته ولإعداد الدفاع.

كانت المحكمة قد عيّنت لي محامياً عسكريًّا، لكنّي أعلم أنّ دفاعه شكليّ لا يسمن ولا يغني من جوع. كتبت دفاعاً يقع في 30 صفحة.

وفي يوم المحاكمة دخلت القاعة، وفي صدرها تربّع الرئيس واثنان من القضاة والمدّعي العام والمحامي، وكلهم عسكريّون، يحملون رتبهم العسكرية البرّاقة على أكتافهم ونياشينهم على صدورهم في جلسة منتفخة منتفشة. وبنبرة قوية، ولهجة حازمة، قرأت لائحة الدفاع. وكانت كسابقتها في السجن السابق، مستندة بدقة إلى المواد القانونية ومنظمة تنظيماً منطقيًّا.

لم يتوقّعوا أن يسمعوا من طالب علوم دينية مثل هذا الكلام ولا أن يروا منه هذا الموقف. فالصورة التي كانت منطبعة في أذهانهم عن الدين ورجاله صورة مشوهة. كنت أرى في ملامح أعضاء المحكمة أمارات الإعجاب، وتبادل النظرات المعبّرة. وفي أثناء استراحة المحكمة صرّحوا لي بإعجابهم، وأثنوا على اختيار الألفاظ والمعاني، وعلى كيفية الإلقاء.

بعد انتهاء المحكمة طلبوا مني أن أخرج من القاعة وأنتظر عند الباب. وبقيت أعدُّ اللحظات شوقاً إلى معرفة قرار الحكم. يوم المحاكمة صادف يوم لقاء السجناء بعوائلهم. والعائلة جاءت لتلتقي بي، وبقيت عند البوابة تنتظر، والمحكمة بعيدة عن البوابة، فهي في وسط المعسكر. وطال بها الانتظار حتى الظهر. بعضهم ذهب، وبقي آخرون، كان قرار الحكم قد صدر طبعاً؛ ولكن لا بدّ من طباعته على الآلة الكاتبة على الأوراق الخاصة، ثم إعلانه بحضور أعضاء المحكمة والمتّهم، وكنت في انتظار إعلان الحكم.

تعطّل الدوام، وخرج أحد أعضاء المحكمة، وحين وصل بابَ

المعسكر، وجد عائلة تنتظر سجينها، فعرف أنّها عائلتي، فأخبرها بصدور حكم إطلاق سراحي، وبذلك علمت العائلة بقرار المحكمة قبل أن أعلم به أنا.

وحين طال الانتظار قال لهم بعض حرس المعسكر: اذهبوا وسيأتي هو بعد إطلاق سراحه، فعادوا إلى البيت.

بعد ساعتين من الظهر طلبوني، وأعلنوا قرار المحكمة بسجني أقلَّ مما أمضيت في السجن فتقرّر إطلاق سراحي لحين انعقاد المحكمة الثانية، وهي محكمة إعادة النظر التي تعقد عادة بعد شهور من المحكمة الأولى. رئيس المحكمة أمر جنود الحراسة أن يضعوا أسلحتهم على أكتافهم في علامة على أنّ من معهم ليس بسجين، ويساعدوني لإنجاز بقية الإجراءات الإدارية اللازمة لخروجي من السجن. بعدها ذهبت إلى غرفتي، وكانت عند باب السجن كما ذكرت، وجمعت أمتعتي وودعت السجناء، وكانت قد مضت ساعة من الليل.

كان الفصل شتاء، والطقس بارداً، وهو في الليل أبرد. عند بوابة المعسكر رأيت عدداً من الشباب من أقاربي يقفون في انتظاري ومعهم سيارة. أخذوا أمتعتي، وأردت أن أركب السيارة إذ جاءني ضابط وقال: لا تستطيع أن تذهب. تعال معي. أركبني في سيارة كان يجلس فيها عدد من العسكريين، واتجهت -كما عرفت من الطريق- إلى مبنى السافاك. أكان إطلاق سراحي من المعسكر صوريًّا؟! أيريدون أن يأخذوني إلى السافاك ومنه إلى طهران؟! هذه الأسئلة وأمثالها كانت تدور في ذهني والسيارة تطوي طريقها وسط الظلام والبرد نحو مصيري المجهول.

أنزلوني عند مبنى السافاك. واجهني المحقق الذي عرفته في

السجن الثالث والرابع وهو «غضنفري». قال لي بلهجة يكتنفها الغرور والمكر: لمَ جئت؟

- قلت: أنا لم آتِ، ولكن جاؤوا بي إلى هذا المكان.

- قال: لا، اذهب، ونحن أمرنا بإطلاق سراحك.

خرجت، وأنا لا أعرف سبب تصرفهم هذا، إلى الشارع المظلم البارد أطلب سيارة توصلني إلى البيت. ولو كانت أمتعتي بيدي لكانت مشقة الخروج في هذه الساعة من الليل أكبر؛ لكني أعطيتها لمن جاء يوصلني عند باب المعسكر.

فجأة وقفت أمامي سيارة، أمعنت النظر، وجدت الشباب أنفسهم الذين انتظروني عند المعسكر، وعرفت أنهم تابعوا رحلتي من المعسكر إلى السافاك في انتظار المصير.

وصلت البيت، رأيت زوجتي جالسة قد تسمّرت عيناها نحو الباب، والأطفال أعياهم طول الانتظار فغلب عليهم النوم.

* موقف عجيب من صديق قريب

لا أنسى أني بعد عودتي إلى البيت توجّهت في الليلة نفسها إلى الحرم الرضوي للتشرف بزيارة الإمام الرضا عليه السلام، وللصلاة في مسجد «گوهرشاد». كانت الساعة متأخرة وصحن الروضة خالياً تقريباً، لكني رأيت عن بُعد صديقين من زملائي في العلوم الدينية أحدهما تربطني به علاقة خاصة، وبيننا شَبَه في الملامح حتى يظن من لا يعرفنا أنّنا شقيقان. فرحت كثيراً لهذه الصدفة لأنّني لم أتوقّع أن أرى أحداً هناك. توجّهت نحوهما يحدوني الشوق لزيارة وجوه حال بيني وبينها

السجن. وكنت أتوقع أنهما ما إن يرياني حتى يُقبلا عليّ ويفرحا برؤيتي بعد هذا الافتراق.

أسرعت في سيري نحوهما، واقتربت منهما، وأوشكت على السلام إذ وجدتهما يعرضان عنّي!! وكأن أحدهما قال لصاحبه: لقد خرج من السجن الآن، ولعله مراقَب، فلنُعرض عنه! كان وقع الموقف عليَّ شديداً. سجين مثلي أُطلق سراحه قبل ساعات يتوقّع من أصدقائه وخاصّة من الذين يُفترض بهم أن يحملوا الهموم والآمال الإسلامية نفسها غير هذا الموقف. والحقّ أنّي رأيت من مثل هذه المواقف من بعض رجال الدين كثيراً! بينما كان الشباب، سواء من طلبة العلوم الدينية أو من الجامعيين، على العكس يزدادون التفافاً حولي والتصاقاً بي كلما دخلت سجناً ومتى ما تعرّضت لاضطهاد السلطة.

* مواقف وجهاد العلماء

وهنا لا بدّ أن أقف قليلاً عند تعامل علماء الدين مع العاملين في ساحة الجهاد الإسلامي في إيران. لا شك في أنّ علماء الدين كانوا في طليعة مقارعة السلطة الغاشمة على مرّ العصور.

من ذلك في العصر الحديث فتوى الميرزا القمي لمواجهة الروس، وموقف المرجعية الدينية في «حادثة التنباك»، وتحرك علماء الدين في «الحركة الدستورية»، وموقف المرحوم السيد حسن مدرس في مواجهة رضا شاه، وتصدي العلماء لمبادراته والذي أدى إلى حوادث كحادثة مسجد گوهرشاد في مشهد كما ذكرنا سابقاً، مضافاً إلى موقف المرجعية من الغزو البريطاني للعراق في ثورة العشرين[115].

لقد توّج الإمام الراحل رضوان الله تعالى عليه جهادَ أسلافه بأن قاد أعظم ثورة في التاريخ المعاصر أسقط فيها أعتى جبّار في المنطقة مدعوم بأضخم قوّة في العالم، معلناً قيام دولة الإسلام في إيران.

ولا غرو أن يكون علماء الدين كذلك؛ لأنّهم ورثة الأنبياء والمصلحين على مرّ التاريخ. ولكن المشتغلين بأمور العلوم الدينية لم يكونوا في إيران جميعاً على هذا المستوى من الشعور بالمسؤولية، ولذلك أسباب لا مجال لذكرها الآن.

كان منهم من يتّخذ موقف المؤيّد للعاملين الإسلاميين فقط دون أن يدخل الساحة بنفسه. وكان منهم المحايد تماماً، لا يذكر الحركة الإسلامية بخير ولا سوء. ولكن كان هناك أيضاً من يتّخذ الموقف السلبي من الحركيّين الإسلاميين. وكان هذا الموقف السلبي متبايناً شدّةً وضعفاً. منهم من كان يطعن في الحركة الإسلامية حين يدور الحديث حول هذا الموضوع، ومنهم من كان يتصدّى للطعن في مناسبة وغير مناسبة.

ولا بأس أن أذكر حادثة خطرت في ذهني قبل أيام، وتذكرت ما واجه المدينة من سيل ضخم سنة 1396هـ.ق وكنت مشاركاً في عمليات الإنقاذ والإغاثة في هذه المدينة. وفي قصة لا مجال لذكرها بالتفصيل الآن، أمرتني السلطات أن أترك المدينة فوراً؛ كنت -حين أبلغني ضابط الشرطة بالقرار- داخل رواق كبير في المسجد الجامع للمدينة، كنّا حوّلناه إلى مستودع عظيم فيه مواد الإغاثة المهداة إلى المتضرّرين، وقد رُتّبت المواد بشكل دقيق مضبوط ضبطاً رائعاً، قلما يستطيع أن يفعله أمثالنا من غير المتخصصين في أمر الإغاثة. توجّهت

إلى حجرة في جنب الرواق كان الشيخ ذبيح الله وعدد من أصحابه جالسين فيها، وقلت بلهجة تنمّ عن ألم ومرارة: لقد أمروني أن أترك المدينة. عَلَت وجوهَ الجميع مسحة من عدم الارتياح. وما إن رأى أحدُهم (وهو أحد الاثنين اللذين التقيتُهما في صحن مشهد الرضا بعد السجن) تعاطفَ الجالسين معي حتى بادر فوراً إلى القول: هؤلاء لم يأتوا للإنقاذ والإغاثة. هؤلاء مفسدون ومخرّبون.

إلى هذا الحدّ كان بعضهم يحمل حقداً دفيناً على كل العاملين في الساحة الإسلامية.

* محكمة الاستئناف

قبيل المحاكمة الثانية، وهي محاكمة الاستئناف، ثمة إجراءات إدارية كان لا بدّ أن أنجزها، ولا بد من مراجعة القضاء العسكري في ذلك. أثناء متابعتي لهذه الإجراءات رأيت أنّ ضابطاً شابًّا في دائرة القضاء العسكري يطيل النظر إليّ كأنما يريد أن يحدثني بشيء. اقتربت منه فقال: أريد أن أقول لك شيئاً.

- قلت: تفضّل.

- قال: تجنّب إلقاء خطابات كتلك التي ألقيتها في المحاكمة الأولى، فإنهم إذا تلمسوا منك ذكاء وقوّة شخصية يتشدّدون معك. ومن مصلحتك أن تظهر بمظهر الإنسان البسيط الساذج المغفّل المتخلّف.

شكرتُه وانصرفتُ وأنا أعلم بعدم قدرتي على التظاهر بهذا المظهر أمام المحكمة المتغطرسة المستهينة بعلماء الدين. وحين دخولي قاعة المحاكمة الثانية وجدت ذلك الضابط الشاب كاتباً للمحكمة.

كان رئيس المحكمة هذه المرة رجلاً معروفاً وكان يشغل سابقاً منصب الادّعاء العام، ثم أصبح رئيساً للمحكمة. وبدأت الأسئلة تنهال عليَّ من رئيس المحكمة عن رأيي في شتى الأمور وأنا أجيب. ثمّ التفت إلى مستشاريه الجالسين على جانبيه وقال: هذا الرجل يحتاج إلى عشر سنين من السجن ليتفرغ خلالها للكتابة والتأليف والبحث.

قلت: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

قالها رئيس المحكمة مازحاً طبعاً؛ ولكنّ لمزاحه مدلولاً يؤيّد ما ذهب إليه الضابط الشابّ في نصيحته. وانتهت المحاكمة بتأييد قرار المحكمة السابق.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على إطلاق سراحي حتى أُلقي القبض عليَّ ثانية في شهر مهر أيضاً، ودخلت سجني الخامس. كان اعتقالي الرابع في 24 رجب 1390هـ.ق/23 أيلول/سبتمبر 1970م والخامس في 7 شعبان 1391هـ.ق/27 أيلول/سبتمبر 1971م.

الزنزانة 14

* كلمة السرّ

في ليلة صيفٍ قائظٍ من سنة 1391هـ.ق/1971م أحسستُ بضَجَر لم أعرف له سبباً. استعذتُ بالله، ولُذتُ بالمطالعة. لكنّ التيّار الكهربائيّ انقطع كما كان يحدث عادة في أكثر الأيام خلال تلك السنوات. ازدادت همومي وبدأت تثقِل على صدري. أردتُ الخروج من البيت، فما وجدتُ في نفسي رغبةً في الخروج. لم يكن في البيتِ سراجٌ جاهزٌ ليعوّض عن نور الكهرباء. تُرى ماذا أفعلُ في هذا الظلام؟! وبينا أنا في هذه الحالة إذ دُقّ باب البيت. وعلى عادتي ذهبتُ بنفسي لفتح الباب دون السؤال عن الطارق، فإذا به أحدُ أصدقائي الطهرانيّين. فرحتُ من الأعماق بهذه الزيارة في الوقت المناسب. استقبلتُه بكل انشراح غير أنّي وجدته لا يبادلني الانشراح، لم أهتمّ بذلك وطلبتُ منه أن يدخل. وفي حركة مفاجئة رأيت صاحبي أدخل يده في جيبه وأخرج منه شيئاً. هذه الحركة كانت كلمة السرّ بيني وبين منظمة جهادية سريّة مسلّحة كنت على اتصال برئيسها وبأحد أعضائها. وكنتُ أطلع على ما تُصدره المنظمة من نشرات وبيانات قبل توزيعها للاطمئنان إلى صحة توجهاتها.

* انكشاف التنظيم

ازداد سروري لحركته هذه، وقلت له مبتهجاً: كنتُ قبل مجيئك ضجراً مثقلاً بالهموم، لقد جئتَ في الوقت المناسب وأضأتَ ليلتي المظلمة هذه.

وبدون أن أتوقّع قال: ستزداد همًّا. ما عبئتُ بكلامه كثيراً.. أجلستُه وأحضرت له الشاي، ثم قلت له بتعجّب: أنت من أعضاء المنظمة؟!

ردّ على الفور: اسكت، لعلّ البيت فيه جهاز تنصّت.

تعجّبتُ من كلامه وقلتُ ساخراً: أنا طالب علم، ومن يهتمُّ بوضع لاقطة في بيتي؟!

قال: لا، الأمر أكبر من أن تتصور، وسأوضح لك ذلك. ثم طلب شيئاً من العجين ليضعه في ثقوب الاتصالات الكهربائية في الغرفة.

وبدهشة ممزوجة بشيء من القلق أتيتُ له بالعجين. وبعد أن سدّ الثقوب جلس، وسارعت أنا إلى القول: احكِ! ما الذي حدث؟

أطرق برهة، ثم رفع رأسه وقال: انتهى كل شيء.

- قلت: ماذا تعني؟!

- قال: انكشف التنظيم، والإخوة انكشفوا، وألقي القبض على بعضهم.

ثمَ تبين لي من حديثه أنّ من كانا على اتصالٍ معي لم يُلقَ عليهما القبض. ومما قاله: أنا رسول إليك لأطلب منك تفريغ البيت من كل ما يرتبط بالتنظيم. ثم بدأ يتحدّث بالتفصيل عن النشرات التي كانت قد أرسلت إليّ لأنظر فيها: أتلف تلك النشرة. وأبقِ تلك النشرة وأرسلْها إلى فلان في طهران. قلت: أنت تذهب بها إلى طهران؟ قال: لا، ابعثها أنت بطريقتك الخاصة.

جلست أنظر إليه واجماً وهو يملي عليّ ما يجب أن أفعله، فأخذ الهمّ مجامع قلبي، وتركني على هذه الحالة وانصرف.

* نهبوا كتاباتي ومذكراتي

كان ذلك في أواسط الصيف. ومرّت الأيام، وجاء الخريف، وراح الطاغوت يُعِدُّ لاحتفالات مرور خمسة وعشرين قرناً على الإمبراطورية الشاهنشاهية. وتصاعد التوتّر الأمني، واشتدّت الضائقة على الإسلاميين.

وحلّ شهر «مهر»، وكان عندي أحد علماء «قم» قد حَلَّ وعائلته ضيوفاً علينا. كنت والضيف جالسين في حجرتي الخاصّة بالضيوف إلى جوار غرفة المكتبة، وبين الغرفتين باب مغلق، وأمامنا مائدة غداء؛ إذ دُقَّ جرس الباب، وبعد لحظات دُقَّ بابُ الحجرة. نهضت وفتحت الباب فإذا بزوجتي تقول: السافاكيّون خلف الباب. تعجّبت من كلامها وقلت: ومن أين عرفت أنهم سافاكيون؟! بدأت تُقسم بأنّهم هم. قد تكون رأت أشباحهم خلف زجاج الباب المشجّر، لكن الأشباح لا توضّح طبيعة الأفراد. كانت تتحدّث بنبرة جادّة، وبثقة كاملة، وتقول وتكرر القول: أنا متأكّدة من أنهم من السافاك، وبما أُلهمت بذلك.

ذهبتُ وفتحتُ الباب فإذا هم مجموعة من أفراد السافاك. ربّما توقّعوا أنّي متوارٍ، وقد وقعت في شباكهم، فسرّتهم رؤيتي. اقتحموا الدار، واجتازوا دهليز البيت، وأول ما لفت نظرهم في نهاية الدهليز المكتبة. دخلوا غرفة المكتبة وبدأوا جميعاً يقلّبون الكتب ويتصفّحونها. وتوجّه أحدهم لجمع كل ما في الغرفة من أوراق وكراسات. وفي عملية الاقتحام هذه ضاع كثير من كتاباتي ومذكراتي ولم أسترجع منها ورقة واحدة.

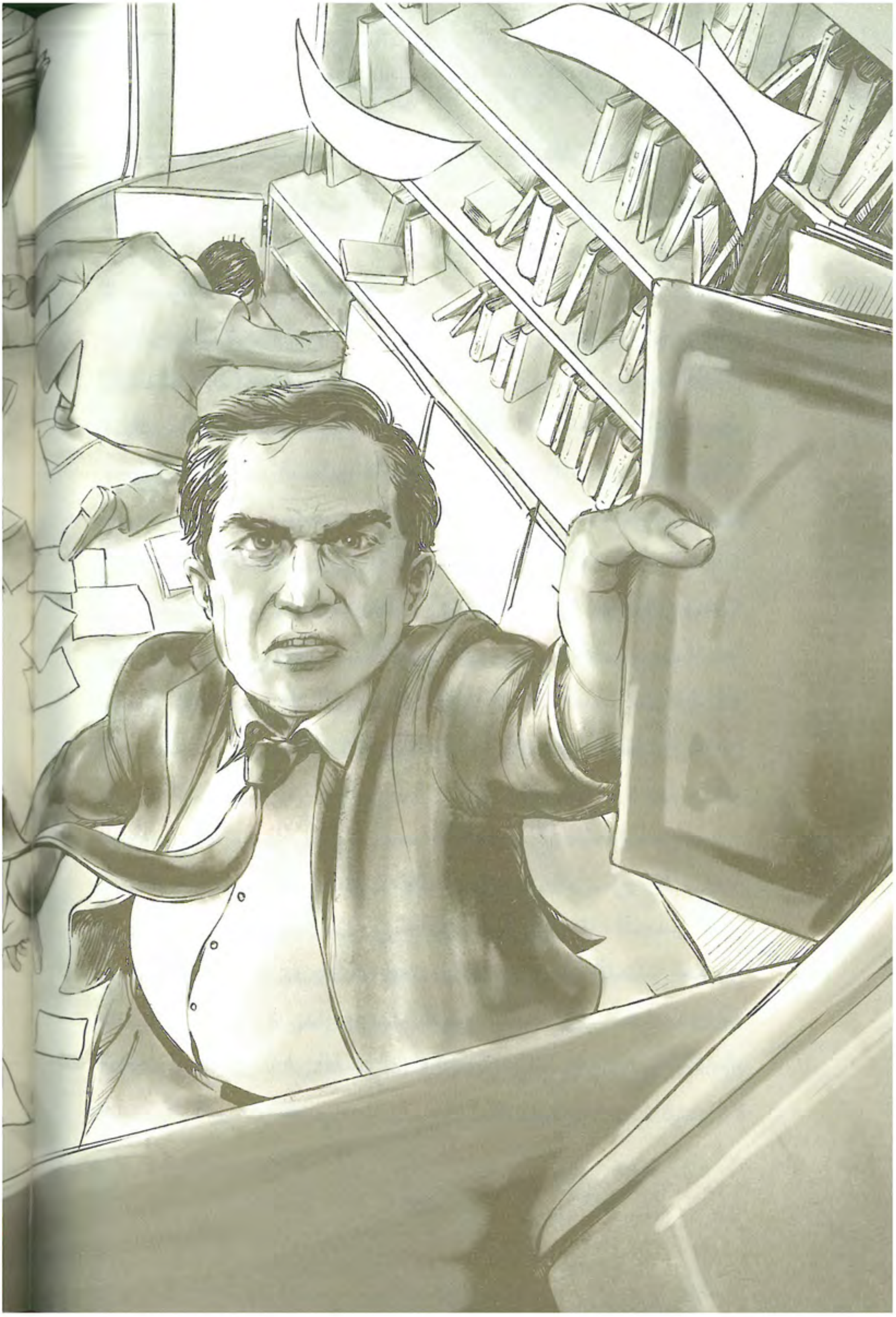

كنت واقفاً أنظر إليهم. ليتهم يكتفون بتفتيش المكتبة، ولا يفتحون الباب المؤدي إلى غرفة الضيف كي لا يروّعوه ولايؤذوه. بينا أنا أتمنى ذلك إذ فتح أحدهم الباب، واتّجه نحو الضيف وجلس جواره يطرح عليه السؤال تلو السؤال.

فَحَصُوا جميعَ الكتب، ثم فتّشوا كل مكان في البيت، وأذكر أنّ أحدهم اقترب من مهد ابني «مجتبى» وكان طفلاً جميلاً وديعاً ابن 9 أو 10 شهور وأخذ ينظر إليه ويترحّم عليه، ثم أخذوني من البيت مع مجموعة كبيرة من الأوراق. أركبوني سيارة توجّهت إلى مقرّ السافاك، وكان قد انتقل إلى محلٍّ جديدٍ. بقيت جالساً في إحدى غرف المقرّ ساعة دون أن يسألني أحد شيئاً. ثم شدّوا عيني وأركبوني في سيارة بدون نوافذ، وراحت تطوي الطريق نحو هدف أجهله.

* سجن السياسيين في مشهد

وقفت السيارة وأنزلوني، ورفعوا العصابة عن عينيّ فإذا بمكان واسع يعلوه سقف مرتفع، وفي أطرافه بضع غرف صغيرة.

المكان أشبه بمستودع كبير. عرفت بعد ذلك أنّه جزء من إسطبل كبير يقع في مؤخّرة معسكر مشهد الذي سبق أن كنت معتقلاً فيه. اجتزنا المستودع، وكان في نهايته بوابة كبيرة انفتحت على مستودع كبير آخر، في وسطه بناية طويلة منخفضة، يبلغ طولها عشرين متراً تقريباً، وعرضها خمسة أمتار ونصف المتر تقريباً، وفي ضلع الطول توجد عشرة أبواب صغيرة من كل جانب من الجانبين: الزنزانات الجديدة المبنية داخل هذا المكان القديم.

ذكرت من قبل أنّ مدينة «مشهد» لم يكن فيها سجن خاص بالسياسيين، وكان اعتقالي الثالث والرابع في السجن العسكريّ المجاور لمركز الخفارة. وفي ذلك العام أنشأوا سجناً للسياسيّين في مؤخرة المعسكر وفتحوا له باباً مستقلّاً، وها أنا ذا أدشّنه.

مجموع الزنزانات عشرون. وعلى جانبي المبنيين حنفيات (صنابير) ماء ومرافق صحية صغيرة ومتواضعة. أدخلوني الزنزانة الرابعة. لم أرَ قبل ذلك غرفة بهذا الصغر، مربّعة ضلعها متر ونصف المتر. لم يكن فيها منفذ أبداً ولا سراج. الظلام بها مطبق، ولا يرى الجليس النور إلّا حينما يُفتح باب الزنزانة، أو يفتح غطاء المنفذ الصغير الموجود على الباب، حين يريد الحارس أو أحد مسؤولي السجن أن يتحدث مع السجين.

* رفع معنويات السجناء

أعطوني بطانيّتين، وكان الطقس يتّجه إلى البرودة، والشمس اقتربت من المغيب، ولم أكن قد أدّيتُ الصلاة. طلبتُ منهم أن أتوضأ، فسمحوا لي أن أذهب إلى الحنفيات لإسباغ الوضوء. وحين كنت أمرّ على أبواب الزنزانات كنت أحس أن فيها سجناء، وأحسُّ أيضاً أنهم يحاولون مشاهدتي من بعض شقوق الباب والنافذة الصغيرة التي كانت على الباب. وبينا أنا أمر من أمام أحد الأبواب سمعت صوتاً هامساً مرتعشاً يقول: أنا فلان، فإذا هو أحد رفاق الجهاد، وكان قد اعتقل في اليوم نفسه أو اليوم السابق، وما كنت أعلم باعتقاله حتى تلك اللحظة. علمت أنّ معنويات السجناء منهارة، فبدأت أتكلم مع الحرس بصوتٍ عالٍ لأُسمع السجناء صوتي، وأعيدَ لهم بعض المعنويّات. أسأل تارة عن

مكان الوضوء، وتارة عن اتجاه القبلة. أذكر أنّه حين سألتُ عن القبلة أجابني أحدهم: باتجاه الزاوية (ويقصد زاوية الزنزانة)، فقلتُ بصوت مرتفع: نعم، زاوية الزنزانة قبلة دائماً. وهي كناية عن انشداد قلوب المؤمنين إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله الحرام.

طلب منّي أحد الحرس أن أنزع عمامتي، رفضتُ، قال: قوانين السجن تقتضي ذلك. قلتُ: أنا أرفض هذه القوانين. أنا لم أسلّم عمامتي حتّى الآن لأحد في السجون السابقة. اذهب واسأل رئيسك عن ذلك.

كنتُ في كلامي أرفعُ صوتي ليسمعني من يقبع في الزنزانات لرفع معنويّاتهم، فمثل هذا الكلام يثبّت النفوس المرعوبة عادة. جهرت في الأذان والإقامة وأذكار الركوع والسجود. وبعد أن انتهيت من الصلاة عدتُ إلى نفسي، وبدأت أغط في تفكير عميق: لماذا اعتقلوني؟

كانت هناك دواعٍ كثيرة لسجني، فأيٌّ منها دفعهم إلى إلقاء القبض عليّ؟! وأيّ الأمور انكشف لهم؟!

لقد كانت لي جلسات سرية عدّة، بعضها مع طلّاب العلوم الدينية، أكتب فيها درساً من الدروس، ثم أشرحه وأسلّمه إلى الطلبة ليستنسخوه. وكانت الدروس تدور حول مفاهيم حركية إسلامية، نستخلص منها الفكر الحركي للنهضة.

كان يشترك في إحدى تلك الجلسات ستة طلبة، وفي أخرى ثلاثة، وفي ثالثة طالب واحد. وكان هذا الطالب أفغانيّاً استشهد في ما بعد بيد النظام الشيوعي الأفغاني الذي قتل عدداً كبيراً من علماء أفغانستان.

وكانت لي جلسات مغلقة أخرى مع شباب المدارس والجامعات، وجلسة أخرى مغلقة أيضاً مع الكسبة، وجلسات عمل مع بعض طلاب

العلوم الدينية، نتدارس فيها الحالة السياسية، ونتّخذ الموقف اللازم منها كإصدار المنشورات وإرسالها إلى «قم»، أو تسلّم منشورات من هذه المدينة. وكان لي أيضاً -كما ذكرت- ارتباط بالمجموعة السرية التي تبنّت الجهاد المسلح ضد السلطة.

ترى هل إنّ واحدة من هذه الجلسات قد انكشفت، أم إن اعتقالي يعود إلى دروسي العامة التي ألقيتها في التفسير والمفاهيم الإسلامية؟!

الهاجس الذي كان يزيد في قلقي هو الجلسات السرية لأنها لا تقبل الدفاع أمام أجهزة الأمن بالمرّة. استغفرتُ الله، وتوكّلتُ عليه، وعذتُ به سُبْحَانَهُ. نظرت إلى أطرافي في الغرفة، وعادت بي الذاكرة إلى السجون السابقة، فوجدتني قد اعتدت على جوّ السجن وألِفتُهُ. وما كنتُ أعرف حتى تلك الساعة الفرقَ بين هذا السجن والسجون السابقة.

* النظّارة ممنوعة

بعد بُرهة جاء أحد الحراس، وطلب مني أن أجمع أثاثي، وذهب بي إلى الزنزانة الرابعة عشرة في الطرف المقابل. كانت أكبر من الزنزانة السابقة بقليل، لكنها أحلك ظلمة، حتى ما كنت أرى المسبحة في يدي. وفي اليوم التالي تعرّفت على الأمور اليومية في السجن: يُفتح باب الزنزانة ثلاث مرات لتسليم الوجبات، ثم يفتح مرة أخرى للنظافة، يسلمون فيها السجين مكنسة للتنظيف.

مرّت ساعات صباح اليوم التالي وتغدّيت ونمتُ قليلاً، ثم استيقظت وناديت الحارس، فجاءني، قلت له: عندي مبلغ من المال، أعطيه لك واشترِ لي بطيخة. قال: حسناً. ثم جاء بعد قليل بالبطّيخة. سألته: هل

معك سكين؟ قال: نعم. دخل الزنزانة ومعه السكين. وهذا العمل ممنوع طبعاً في قوانين السجن؛ لأنّ السجين قد يستغلّ وجود السكين فيأخذه ويهجم به على الحارس. لكن هذا الحارس كان مثل كثير ممّن واجهتهم في سجوني السابقة لا يخطر في ذهنه أنّ رجلاً مثلي يصدر منه عمل كهذا. كان الحارس منشغلاً بشقّ البطيخة، وباب الزنزانة مفتوحاً؛ إذ مرّ أحد أفراد السافاك. رأى المشهد وانزعج أشدّ الانزعاج، ونادى الحارس، وأخذ يؤنّبه ويوضِح له خطورة مثل هذا التصرّف. ثم قال للحارس:

- خذ نظارته، وَضعُ النظارة ممنوع في السجن.

أخذ الحارس نظارتي وأغلق الباب.

حين كان باب الزنزانة مفتوحاً رأيت أنّ الوضع غير عاديّ في ممرّ السجن: حركة ذهاب وإياب لم أعهدها في ما مضى من ساعات. ثم استمرّت الحركة بعد غلق الباب، أصوات أبواب الزنزانات تفتح وتغلق. وبينا أنا أُنصت إلى هذه الأصوات وإذا بعويل وصراخ يرتفع من بعيد ويُنبئ أنّ شخصاً ما يعذّب بأشدّ ألوانِ التعذيب. بعد هنيهة سمعتُ صوتَ رجلٍ يقتادونه إلى زنزانته وهو يئن أنيناً موجعاً. حاولت أن أنظر من بين شقوق الباب، فوقعتْ عيني على شيخ أعرفه، يقتاده الجلاوزة وقد حُلقت لحيته، وعُذّب حتى لم يَعُد يستطيع السير على قدميه.

* على سرير التعذيب

بعد برهة فتح أحدهم زنزانتي وقال: أنت فلان؟ تعالَ معي. رافقته إلى المستودع المذكور ثم إلى حجرة تقع في أحد أركانه. دخلت الغرفة وكان فيها 6 أو 7 أشخاص. لم أستطع أن أعرفهم لافتقادي النظّارة. أَحسستُ

بالخطر، وبدافع العادة أو الغريزة ابتدأت بالهجوم الكلامي. اعترضتُ على أخذ النظارة: لماذا أخذتم نظارتي؟ لا أستطيع أن أرى بدون نظارة.

وإذ أنا أرفع صوتي بالاحتجاج تقدّم أحدهم. فلما اقترب عرفته أنّه الشخص الذي حقق معي في سجني السابق، وكتب التقرير عنّي إلى المحكمة (قتل بيد الجماهير قبل انتصار الثورة الإسلامية). كنت قد أدنته في المحكمة دون أن أذكر اسمه، وحملتُ عليه، وقلت في ما قلت: إن كاتب التقرير جاهلٌ. دنا مني وقال بلهجة غاضبة ساخرة:

- أتظنّ أن هذه محكمة تسمح لك أن تتكلم على هذا النحو؟!

ثم أخذ ينطق بأصوات غليظة مقلّداً فيها صوتي بسخرية واستهزاء، وأوقع الضربة الأولى على وجهي. تمالكت نفسي؛ ولكنّه أعقبها بضربة ثانية أسقطني فيها. وقعت على سرير كان في جانب الغرفة. أردت أن أنهض، قال أحدهم: ابقَ في مكانك، لقد سقطت في المكان المناسب، علمت أنّه سرير التعذيب. شدّوا رجلي بالسرير، وأخذ أحدهم عصا من العصي المعلقة على الحائط، وكانت مختلفة في الضخامة، بضخامة إصبع أو إصبعين أو أكثر، وانهال بالضرب على قدمي، وواصل الضرب حتى تعب، فأخذ السوطَ آخر، وبدأ يضرب حتى تعب، وأخذه ثالث وهكذا.

وكان لكل منهم فرصة استراحة إلّا أنا، فلم يتركوني أستريح قليلاً. وفي تلك الحالة التي لا يمكن وصفها كنت أستغربُ من خباثة بعضهم. لقد كان واجبهم أن يرفعوا السوط ويضربوني. هذا أمرٌ طبيعيٌّ. وكان واجبهم أيضاً أن يضربوني حتى أنهار أمامهم، ولذلك فمن الطبيعي أن يوالوا الضرب؛ لكن بعضهم كان يبدي خبثاً خاصّاً، فكان يأخذ السوط

بيده، ويسحب سير السوط خلف ظهره بيد أخرى ويوتّره ثم يضرب ليكون أشفى لغليله.

وفي أثناء الضرب كان يأتي أحدهم عند رأسي، ويطلب مني أن أتبرّأ من فلان أو من النهضة الإسلامية. كنت أعلن رفضي، وهم يستمرون في الضرب حتى أُغمي عليّ. خلال هذه التجربة العملية المُرّة عرفت أنّ الضرب على باطن القدمين هو أشدّ ألوان التعذيب؛ لأنّه يمكن أن يستمرَّ ساعات قبل أن يُغمى على الشخص. ثم هو يؤثّر تأثيراً فظيعاً على الأعصاب. وسمعت أنّ هؤلاء المعذِّبين قد تلقّوا دورات في التعذيب تحت إشراف خبراء إسرائيليّين، ولذلك كانوا محترفين في انتزاع الاعتراف، وماهرين في عملهم.

من الطريف أني قبل أن أدخل التجربة الأولى هذه من التعذيب الجسدي كنت أتحدّث مع الأصدقاء في جلساتنا الخاصة عن أساليب التعذيب وسبل مواجهتها، وعن الإضراب عن الطعام داخل السجن. وقلت في مرة من المرات: إنّ إضرابي عن الطعام لا يطول، وتعذيبي لا يطول أيضاً؛ لأني إذا أضربت عن الطعام سأمرض بسرعة بسبب ضعف معدتي، وأُنقل من السجن إلى المستشفى، وبذلك يتحقّق نجاح الإضراب عاجلاً. كما أنّ التعذيب معي لا يطول لأنّ جسمي ضعيف، وسرعان ما يُغمى عليّ، وينقطع التعذيب.

وبادرني أحد الجالسين بإشارة عملية بيده، صوّر بها أنّ كأساً من الماء سيُرشّ على وجهي فأفيق.

وفي هذه التجربة الأولى للتعذيب الجسدي وجدت ما قاله الصديق عمليّاً. لقد أحسستُ بأنه يُغمى عليّ، وها أنا ذا أنتقل من

هذا العالم إلى عالمٍ آخر. وفي هذه اللحظات فوجئتُ بأحد المعذّبين يحمل بيده كأساً من الماء ليرشّهُ على وجهي، وما أن أفقت حتى رشّ الباقي على رجلي ليكون الضرب أكثر وجعاً وأشد ألماً.

* زنزانتي المحبوبة!

وكما أنّ كل شيء ينتهي ويزول؛ فكذلك التعذيب، والمحنة، واللذة. وهكذا انتهت هذه الوجبة من التعذيب، وفكّوا وثاق رجليّ، فقُمت أترنَّحُ لا أقدر على المشي، قدماي تورّمتا، والألم يملأ كل وجودي. قال لي أحدهم: اذهب إلى زنزانتك وسنعيدك إلى هذا المكان حتى تعترف.

حين عدت إلى الزنزانة ودخلتها أحسست براحةٍ عجيبةٍ، وشعرت بنوع من الأمن والاطمئنان. لقد كانت الجدران الأربعة التي تحيط بي، والباب الذي أُوصد بعد دخولي تخلق في نفسي نوعاً من الارتياح النفسي بعد ذلك الإرهاب الوحشي والتعذيب البشع الذي تلقيته في غرفة التعذيب.

حمدت الله أن جعل لي زنزانتي التي هي عادة محلّ وحشة وغربة مبعث ارتياح واطمئنان. جلست على الأرض، وأحسستُ بلذّة وأنا أمُدّ رجلي دون أن أتعرّض للتعذيب، وأسند رأسي إلى الحائط دون أن تصك مسامعي كلمات التقريع.

كانوا يلجأون إلى ألوان الضغط لأخذ المعلومات من الشخص. من ذلك أنهم كانوا يعطون أوراقاً بيضاء إلى السجين ويطلبون منه أن يكتب اعترافاته على شكل سؤال وجواب. ويشدّدون عليه أن يكتب، وحَذارِ أن يسأل السجين: ماذا أكتب؟ كانوا ينهالون عليه بالضرب

والشتم ويقولون له: اكتب.. اكتب.. وقد يكتب السجين صفحتين أو ثلاثاً، فيأخذها المحقق وينظر إليها باحتقار ويمزّقها أمام السجين، ويشدّد عليه أن يكتب الكثير.

لا أستطيع أن أتحدث عن كل تفاصيل التعذيب، فهي أكبر من أن يستوعبَها بيان. ولا داعي لسردها فوقعُها مؤلمٌ؛ ولكن أنتقل من هذه المشاهد المؤلمة إلى مشهدٍ آخر أروّح فيه عن أنفسكم، وأسلّي خاطركم، على أنّه يحمل العبرة لمن أراد الاعتبار.

* سجّان الأمس سجين اليوم

بعد انتصار الثورة الإسلامية بخمسة أو ستة أشهر ذهبتُ في مهمة من طهران إلى مدينتي مشهد، وكنتُ آنئذ عضواً في مجلس قيادة الثورة، وممثّل مجلس قيادة الثورة في وزارة الدفاع، ومندوب الإمام في عددٍ من أجهزة الدولة. لقد شاء الله سُبحانه أن أدخل هذه المدينة بعد سنين عجاف من الظلم والاضطهاد والاستضعاف، وأنا أشعر بعزّة الإسلام والمسلمين، وبعزّة المجاهدين في سبيل الله.

طلب مسؤولو مدينة مشهد أن أزور مبنى «اللجنة الثورية المركزية». اللجان الثورية تولّت يومئذ إدارة معظم شؤون المدن في إيران. وكانت بناية حزب «رستاخيز»[116] في مشهد قد اتُّخذت لهذا الغرض. وهي بناية فخمة وكبيرة وذات طوابق عدّة بناها حزب الشاه ليتّخذها مقرًّا له، فأكملها، ولكن الله مزّقه شرّ ممزّق، ووقعت البناية بيد الثوار فاتّخذوها مقرًّا لعمليّاتهم، وأصبحت بعد الانتصار المقرّ المركزي للجنة الثورية في مدينة مشهد.

قالوا لي: إنّ الطابق الأخير مخصّص للسجناء الخطرين. ذكروا لي أسماءهم وكنت أعرفُ أكثرَهم ومنهم «بَرومَنْد» وله لقبٌ آخر هو «بابائي» ولا أدري أي اللقبين هو الاسم الحقيقيّ، وكان من المعذّبين في سجني الخامس.

قلتُ: سبحان الله ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

وتوجّهنا إلى المبنى يرافقني «الشيخ الطبسي»[117] رئيس اللجنة الثوريّة ومندوب الإمام في سدانة الروضة الرضويّة، وكذلك محافظ المدينة. وكان هذا المحافظ معي في هذا السجن، وعذّب أيضاً.

ذهبنا إلى الطابق العلوي، فوجدتُ غرفاً كبيرة يجلس فيها المعتقلون. وفي الغرف شبابيك كبيرة تطلّ على الشارع، وليست موصدة بمحجر حديدي. ألفيت أن هذه الغرف لا تصلح للاعتقال لأنّ المعتقَل الخطر يمكن أن يلقي بنفسه من النافذة إلى الشارع، ولكن يبدو أنّ مسؤولي اللجنة الثورية يعرفون أن هؤلاء المعتقلين «أحرص الناس على حياة»، ولا يُحتمل أن يجازفوا بحياتهم، فتركوهم في تلك الغرف الفارهة ذات الشبابيك الواسعة.

فتحوا لي إحدى الغرف فوجدتُ فيها جماعة جالسين؛ عرفت بعضهم. سلمت عليهم، ونصحتُهم بأن يدلوا بمعلوماتهم، ويتعاونوا مع الثوّار، وأن لا يعقدوا أيّ أمل على عودة النظام المنهار، وأنّ هذه الثورة قد انتصرت، وستواصل انتصاراتها بإذن الله، فما عليهم إلّا الاعتراف والتعاون.

رأيتُ في زاوية الغرفة رجلاً يصلّي، عرفت أنّه «بابائي»، قلت للمعتقلين سائلاً: أهذا هو بابائي؟ قالوا: نعم. قلت: عجيب، لي معه ذكريات طويلة. توجّهت الأنظار إليه وهو يواصل صلاته الركعة بعد

الأخرى دون أن يُسلّم. كان يتوجّس مني خيفةً ويحسّ بشرّ؛ ولذلك أشغل نفسه في صلاة كاذبة حتى لا يواجهني. ذهبتُ إلى غرفة أخرى، تفقّدت المعتقلين فيها، ثم عُدتُ إلى الغرفة الأولى. فتحتها فجأة، فبُهِت بابائي حين رآني، وأصيب بالذهول والانهيار، وأخذ يتوسّل بي ويُقسم الأيمان المغلّظة بأنّه كان فتى طائشاً غُرّر به وخُدع. ووقفت أستمع إلى كلامه دون أن أجيبَه. ثم قلتُ له: أتذكر كيف كنت تعاملني في السجن؟ أذكّرك بواحدة فقط. أتذكر أنّك كنت تأخذ بلحيتي في غرفة التعذيب فتلقيني على الأرض، ثم ترفعني من لحيتي، وتسمعني كلمات جارحة، وتضربني على الأرض، وهكذا؟! قال: نعم أذكر ذلك.

وفي هذه الأثناء استشاط من كان يرافقني غيظاً، وهمّوا بالإجهاز عليه لولا أن هدّأتهم. ثم واصلت الكلام وقلت متحدّياً:

أنا مستعدٌّ لتخليصك. وأنت تعرف أني قادر على ذلك؛ ولكن بشرط واحدٍ، وهو أن تدلنا على مكان اختفاء رئيسك.

وهذا الرئيس الذي سألت بابائي عنه شخصية سافاكية خطيرة، فهو الذي بنى السافاك في مشهد، وبقي من أول تأسيسه إلى ساعة زواله، مع تغيّر الرؤساء باستمرار، وتتمركز عنده كل المعلومات المرتبطة بمدينة مشهد؛ بل محافظة خراسان. ومع علمي أنّ بابائي على علمٍ بمكان رئيسه؛ لأن هذه الزمرة كانت مترابطة، وعلى اتصال خلال أيام الثورة الإسلامية، فقد أصرَّ على أنه لا علم له بمكانه. ثم قال: أظنّ أنه فرّ من إيران.

على كلّ حال، حوكم بابائي وأُعدِم. وكان قد ارتكب جرائم يستحق على كل واحدة منها عقوبة الإعدام. ثم أُلقي القبض أخيراً -وبعد سنوات من الاختفاء- على رئيس سجن السافاك المذكور، وأودع السجن.

أذكر الشيء الكثير عن صلافة «بابائي» ووقاحته في سجني الخامس. في اليوم التالي لتعذيبي الذي ذكرتُه جاء هذا الرجل إلى زنزانتي، وعرفته رغم الظلمة المطبقة. جلس على الأرض، والجلوس داخل الزنزانة ممنوع لغير السجناء. بدأ حديثه بالسؤال عن حالي بلغة التوقير والاحترام قائلاً: كيف حال سماحة السيد؟! أرجو أن لا يسوءك السجن. وواصل كلامه: عندي لسماحتكم نصيحة، وهي أن تتفضلوا بالإدلاء بكل ما عندكم من معلومات، وتجيبوا عن كل الأسئلة بصراحة؛ وإلّا فإنّه لا سمح الله.. لا سمح الله.. قد يفعلون بكم ما لا يتناسب مع مكانتكم وشخصية سماحتكم. بهذه اللهجة الوقحة كان يحدثني من مارس بحقي أمس أسوأ ألوان التعذيب الجسدي والنفسي.

ضحكت من كلامه ولم أجبه بشيء؛ فانصرف.

* هكذا حصلت على المصحف!

كان اعتقالي في أواخر شهر رجب أو أوائل شهر شعبان. ومرت الأيام وأوشك الشهر الكريم على الحلول. سمعت رئيس مجموعة المحققين يتجوّل في الممرّ. حين اقترب وقع أقدامه من زنزانتي ناديتُه، فتح الباب وسألني عن حالي. وكان يناديني: «شيخ»، والعادة أن يدعى مثلي: «سيّد»، كما كان لِلؤمٍ في نفسه يكسر شين الشيخ.

قلت له: لقد اقترب شهر رمضان، وأنا لا أستطيع أن أؤدّي واجبات هذا الشهر الكريم من صوم وصلاة ودعاء في هذه الزنزانة، فأفرجوا عني في هذا الشهر.

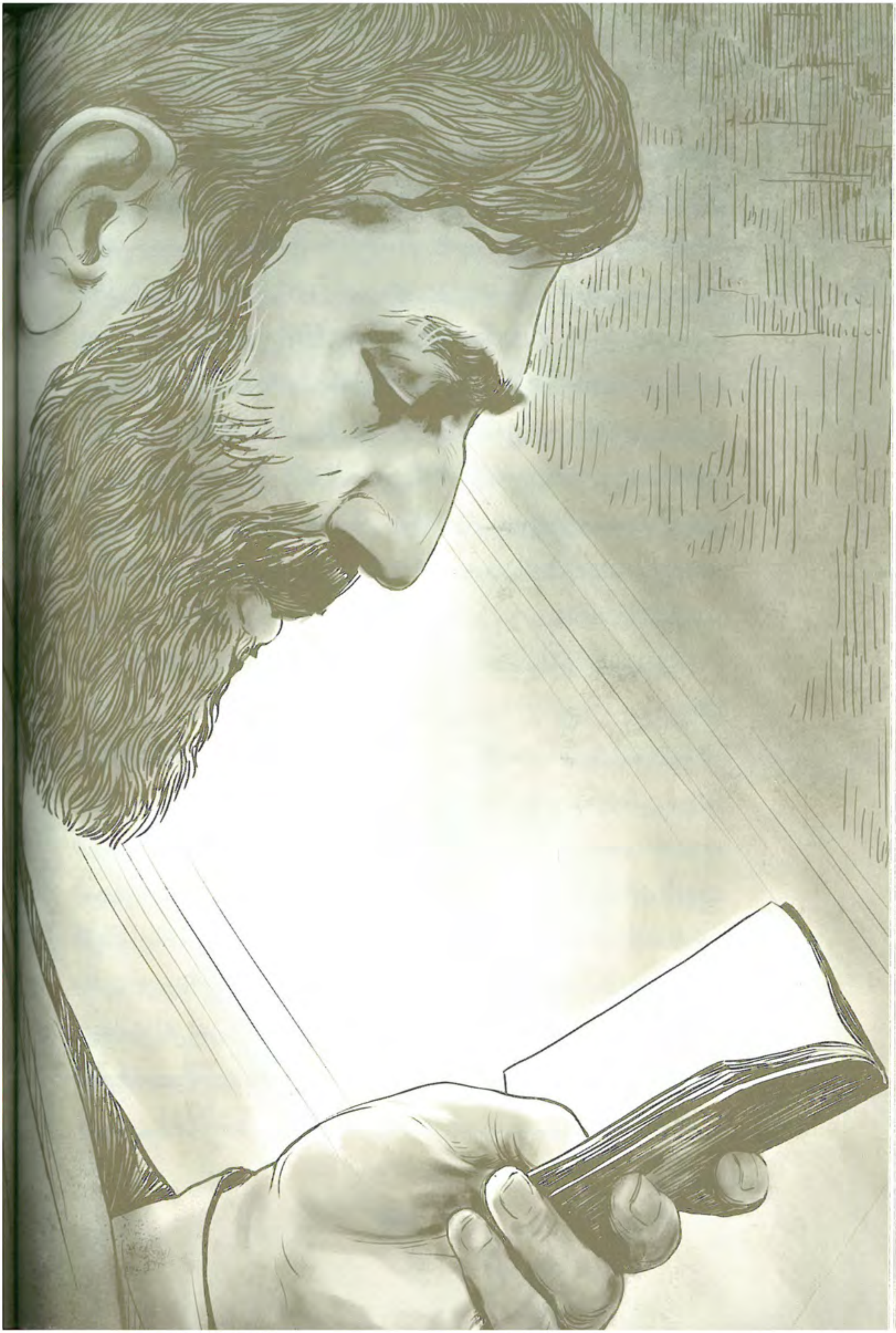

قال: عجيب. سيحلّ شهر رمضان؟! هنا أنسب مكان للصوم. هذا مسجد (وأشار إلى الزنزانة) وهذا حمّام (وأشار إلى حمامات السجن). ابقِ هنا وصلِّ وصُم.

كنت أعلم أنه لن يُفرج عنّي؛ لكني طلبت منه الكبير ليقبل بالطلب الصغير.

بادرتُ على الفور فقلت له: طيّب، اسمح لي بالحصول على مصحف.

قال: لا بأس.

أذن لي بمصحف جاؤوا به من بيتي.

كانت قراءته متعذرة في الظلام الدامس. قلت للحارس: أريد أن أقرأ القرآن، فافتحوا لي الباب قليلاً.

ذهب واستأذن، فأذِنوا بفتح الباب قدر عشرة سنتيمترات، وكانت كافية للقراءة، فقرأتُ في هذا الشهر كثيراً وحفظت ما شاء الله أن أحفظ، وكان اقتران التعذيب بالتلاوة والصوم قد أضعف بصري أكثر.

* الشيخ الحسود

من ذكريات هذا السجن قصة حلق اللحية؛ فاللحية، مضافاً إلى كونها سنّة متّبَعَة، هي بالنسبة إلى علماء الدين جزء لا يتجزّأ من زيّهم العلمي الديني. ولقد كان حلق اللحية بالنسبة إليّ كارثة في السجن الأول، ولم يتكرّر في السجون التالية، وما كان الحلق متعارفاً في سجون مشهد. وفي هذا السجن رأيتُ أحد العلماء قد حُلِقَت لحيتُه، فعرفتُ المصير الذي تنتظره لحيتي. كان للحلق يوم معيّن في الأسبوع، وحان ذلك اليوم.. وكنت أسمع أصوات خروج السجناء واحداً بعد آخر إلى غرفة الحلاقة. وسيحين دوري بعد قليل.

ماذا أفعل؟ هل أستسلم أم أقاوم؟ تضرّعت إلى الله أن يفرّج عنّي.

حان دوري. فُتحت الزنزانة. وما إن وقع نظر مدير السجن عليّ حتى قال: لا، ابقَ. وأُغلِق الباب.

لم أكن أتوقع ذلك، شكرتُ الله. تكرّر الأمر كلّ أسبوع، كانوا يجتازونني في الحلق، وأنا الوحيد الذي أُعفيت من ذلك.

وأذكر هنا حادثةً فيها عِبرة. وتبيّن أنّ دخول السجن وحده لا ينمّي شخصية الإنسان. فهذه التجربة كغيرها من تجارب الحياة تزيد البعض مراساً، وتصقل عزيمته، وتنمّي شخصيته، ولا تؤثّر في بعض آخر لا سلباً ولا إيجاباً. وقد تؤدّي عند آخرين إلى السقوط. المسألة ترتبط بمدى سموّ نظرة الفرد وهدفه في مواجهة تجارب الحياة.

كان في إحدى زنزانات هذا السجن صديقٌ من علماء الدين أكبر منّي سنًّا مبتلى بمرض الحسد، وقانا الله وإيّاكم منه، ابتلاءً شديداً. حان دوره في حلق اللحية، وعلم أنّني أُعفيتُ من حلقها. فتحوا باب زنزانته لأخذه إلى الحلق، فقال -وأنا أسمع صوته-: أنا غير مستعدٍّ لحلق لحيتي. لماذا لا تحلقون لحية السجين في الزنزانة 14 (ويقصدني طبعاً)؟ وراح يكرّر اعتراضه على حلق لحيته، ودليله على هذا الاعتراض إعفائي أنا من حلق اللحية. تألّمت كثيراً، وتعجّبت من هذا التصرف الذي يعرّضني فيه للخطر. من حقّه أن يعترض، ومن حقّه أن يذكر شتّى الأسباب لاعتراضه، لكن لماذا يعرّضني أنا للخطر؟!

وعاود الكرّة قائلاً للحارس: اذهب وقل للمسؤولين: إنّ السجين في الزنزانة 14 لا يأتي للحلق، وأنا أيضاً لن آتي.

اضطربتُ وتوسّلتُ إلى الله أن يخلّص لحيتي من الحلق.

بعد برهة جاء مسؤول السجن، وفتح باب الشيخ المذكور وشتمه وأهانه ودفعه لحلق لحيته. وراحوا يخرجون السجناء واحداً بعد آخر، وكنت أتوقّع أنهم لن يتركوني هذه المرّة بعد تصرّف الشيخ. غير أنهم ما إن وصلوا إلى زنزانتي حتى تركوها إلى الزنزانة التالية، تنفّست الصعداء، وحمدت الله سُبْحَانَهُ.

* عذّبوا تلامذتي

من ذكرياتي المؤلمة في هذا السجن ما شاهدته من تعذيب بعض تلامذتي. فقد كان في هذا السجن أكثر من عشرة معممين أكثرهم من طلابي، كما كان فيه عدد من تلامذتي الجامعيّين. في هذا السجن شاهدت تعذيب عدد من خواصّهم ممن كانت لي معهم جلسات سرية.

منهم السيد عباس الموسوي القوچاني[118] (استُشهد بعد ذلك في الحرب المفروضة). وكان في الزنزانة 15 بجواري، وشيخ آخر في الزنزانة 13 بجواري أيضاً. كان الاثنان قد اعتُقلا في قضية توزيع بيان. وأنا طبعاً اعتقلتُ بسبب قضية أخرى لا ترتبط بهما.

الشيخ اعترفَ تحت سياط التعذيب أنّه تسلّم البيان من السيد الموسوي. والاعتراف تحت سياط تعذيب هؤلاء الوحوش أمرٌ طبيعيٌّ لا يُلام عليه الفرد، غير أنّ الموسوي ما كان بمقدوره أن يعترف؛ لأنّ اعترافه كان يؤدّي إلى كارثة كبيرة، تعرّض للخطر أفراداً في مستويات عليا من النهضة. الأمر خطير جدًّا، وما كان أمامه إلّا المقاومة.

الشيخ ضُرب على باطن قدمه حتى ترك الضرب فيها حفرة قد يكون أثرها موجوداً حتى الآن. أما السيد الموسوي فقد ضُرب أكثر وعُذِّب أكثر. كان يعود من التعذيب وهو يئن أنيناً يمزّق نياط القلب. وكانوا يعذّبونه بطريقة وحشية لا نظير لها. أخذوه يوماً فعذّبوه ثم أرجعوه، وبعد ساعة أخذوه ثانية فعذّبوه وأرجعوه، وما إن حانت ساعة الاستراحة والنوم ليلاً حتى استدعوه فعذّبوه وأرجعوه، وفي منتصف الليل أخذوه أيضاً إلى غرفة التعذيب. وكنتُ أسمع صراخه وأنينه ليل نهار، وقلبي يتفطّر لكل أنّة تصدر عنه. إنها وحشية وبشاعة منقطعة النظير.

كانت سلوة السيد الموسوي الوحيدة في هذا السجن هي أنه حين يعود من غرفة التعذيب يسمع صوتي وأنا أتلو آيات من القرآن، أختارها اختياراً خاصّاً كي تكون بلسماً لجروحه، وسكناً لقلبه، وتثبيتاً لعزمه. وكنت أحياناً أتكلم معه بالعربية بنفس لحن تجويد القرآن وأوصيه بالحق وأوصيه بالصبر.

قرّر مسؤولو السجن أن يبعدوا السيد الموسوي عن الشيخ، فأخذوه إلى مجموعة الزنزانات المقابلة، فأصبح غريباً لا يجد من يسلّيه. ولذلك كان يلجأ إلى ألوان الحيل ليقترب منّي ويسمع صوتي.

كانت رجله مجروحة من التعذيب، ولم يكن يقوى على المشي، ولذلك كان يذهب إلى المرافق الصحية زاحفاً على مقعده. كان هناك مرحاضان: أحدهما قريب من زنزانته، والآخر قريب من زنزانتي. ومن ألوان تحايله للاقتراب مني أنه كان يقول للحارس: أنا رجلي مصابة كما ترى، ولا أستطيع أن أستفيد من هذا المرحاض (مشيراً إلى القريب

منه)، ولا بدّ من أن أذهب إلى ذاك (مشيراً إلى القريب مني).

والحارس كان عادة من الجنود البسطاء المتعاطفين غالباً مع السجناء، وخاصة المصابين منهم، حتى رأيت أحدهم يحمل السيد الموسوي على ظهره ليوصله إلى المرافق الصحية. سمح له الحارس أن يأتي إلى المرحاض القريب من زنزانتي. وحين خرج قال للحارس: أريد أن أتيمّم؛ لأنّه كان لا يستطيع الوضوء بسبب جراحه، ثم قال له أيضاً: إنّ هذا التراب الموجود قرب المرحاض نجس، وأريد أن أتيمم هناك (مشيراً إلى الأرض المقابلة لزنزانتي). سمح له الحارس أيضاً. فاقترب، وبدأ يتيمّم، ويتحدث باللغة العربية بلحن يشبه تلاوة الأدعيّة، فيخال من يسمعه ولا يعرف العربية أنه منشغل بالدعاء.

وما أذكره من أقواله على سبيل المثال:

يا سيدي.. السلام عليك ورحمة الله وبركاته.. أنت لا تعرف ما يحلّ بي من عذاب.. فهل إذا مِتّ في هذه الحالة أُحسَبُ شهيداً؟!

بعد أن انتهى من التيمّم مدّ رجله، وأصبح كأنه لا يستطيع الحركة، قال له الحارس: أسرع.. أسرع. أجابه: لا أستطيع.. اسمح لي أن أستريح قليلاً. ما كان أمام الحارس إلّا أن يسمح له. وبدأتُ بعد انتهاء كلامه أجيبه بالعربية وبنفس لحن دعائه وقلت: اصبر أيها السيد الجليل. اصبر.. حتى ييأس منك هؤلاء المجرمون. ولا تقل شيئاً، فالله منجيك حتماً. وواصلت كلامي معه حتى تزوّد ورجع إلى زنزانته. وقد تكرر منه هذا التحايل مراراً. هذا نموذج واحد من نماذج تلامذتي الذين عُذّبوا في هذا السجن، وثمة نماذج كثيرة.

* 2500 عاماً من المَلَكيّة

ومن ذكرياتي في هذا السجن إقامة احتفالات ما يسمى مرور ألفين وخمس مئة عام على قيام الشاهنشاهية (الإمبراطورية) الإيرانية[119]. لقد كانت هذه الاحتفالات أكبر تحدٍّ للإسلاميّين وللنهضة الإسلامية. فالشاه بإنفاق الملايين على هذه الاحتفالات وما رافقها من بذخ وإسراف لا يوصفان، أدمى قلوب كل الذين يحملون همومَ الشعب ومعاناته من أجل لقمة عيشه، وهمومَ الملايين من الإيرانيين الذين لا يتمتعون بأبسط مقومات الحياة الحديثة كالماء النقيّ والكهرباء والطرق المعبَّدة والخدمات الصحية والتعليم.

ثم إنّه بهذه الاحتفالات أراد أن يقطع صلة تاريخ إيران بالإسلام، ويضفي على إيران ما قبل الإسلام عظمة وكبرياء وانتفاخاً وانتفاشاً ليوحي بشكلٍ غير مباشر أنّ الإسلام قضى على مفاخر إيران وعظمتها.

وكان هذا الكلام يُقال مباشرة وبكل صراحة طبعاً في كتب التاريخ المدرسية وعلى لسان الكتّاب المتزلّفين للبلاط.

ثم إنّه أراد أن يركّز على وجود ثقافة إيرانية لا ترتبط بالإسلام، وتستمدّ جذورها من حضارة عريقة تمتدّ إلى العصر الأخميني.

وبالفعل، فقد ألغى الشاه بعد ذلك بقليل التاريخ الهجري الشمسي وأبدله بالتاريخ الشاهنشاهي[120] فأصبحت سنة 1350هـ.ش فجأة 2550 شاهنشاهية. وهذا التغيير له مدلوله الكبير.

ومن المضحك المبكي أنّ وفود كثير من البلدان العربية اشتركت في هذه الاحتفالات مباركة للشاه هذه الإهانةَ الكبرى للإسلام، وللفتح الإسلامي ولكل ما يربط إيران بتاريخ العرب والعالم العربي.

نعم، الإسلاميّون بذلوا كلّ جهد لفضح خطة تلك الاحتفالات، وفضح أرقام الأموال التي أُنفِقَت عليها، وقاوموا تغيير التاريخ الهجري، حتى اضطرّ الطاغوت إلى التنازل بعد سنوات عن هذا التغيير، وألغى التاريخ الشاهنشاهي رسميّاً قبل انتصار الثورة الإسلامية بأشهر قلائل.

وواصلت الأمة المسلمة في إيران جهادها ضد كلّ النعرات العنصرية التي أثارها الشاه من أجل أن يقطع صلة إيران بالتاريخ الإسلامي والعالم الإسلامي. حتى تحقق النصر الكبير بإذن الله سُبْحَانَهُ، وعادت إيران إلى أحضان الأمة الإسلامية. وحاولت الثورة منذ اللحظات الأولى لانتصارها أن تقضي على كل الحواجز التي تفصلها عن إخوانها العرب؛ ولكن ماذا لقيت إزاء ذلك من بعض الحكّام العرب هدانا الله وإيّاهم؟! والحديث ذو شجون.

على كل حال، في هذا السجن كنّا نسمع ونحن في الزنزانة أصوات جانب من هذه الاحتفالات، وكان السجناء رغم جوّ الإرهاب المهيمن على السجن يعلنون سخطهم ورفضَهم مترنّمين بأبيات لأحد الشعراء تبدأ على النحو الآتي:

شَبِ دَدْ، شَبِ بَدْ، شَبِ أهْرِمَنْ وقاحَتْ بِه شادي گُشودِه دَهَنْ*

* أي: ليلةُ وحش.. ليلة سوء.. ليلةُ شيطان إنّها الوقاحة تفتح فاها وهي تتشدّق فرحاً.

الشيفرة السرّية

* إمامة المسجد

كان سجني السادس عام 1395هـ.ق/1975م وأنا كنت آنئذ في وضع اجتماعيٍّ يختلف كلّ الاختلاف عن وضعي قبل السجن الخامس. كانت لي ارتباطاتي الاجتماعية الواسعة عن طريق إمامة المسجد. بدأت الصلاة أوّلاً في «مسجد الإمام الحسن»[121]، وهو مسجد صغير يقع في زقاق فرعيّ، ثم انتقلت إلى «مسجد الكرامة»[122]، وهو مسجد كبير، وأهميته ليست لكبره فحسب؛ بل لأنه في موقع هام لقربه من مركز المدينة الدينيّ، حيث حرم الإمام الرضا عليه السلام والمدارس الدينية، ولقربه من جهة أخرى من القسم الحديث من المدينة، حيث الجامعة ودور السينما، كما أنّه ليس ببعيد عن السوق حيث الكسبة والتجار؛ لذلك كان ملتقى فئات طالما افترقت وتخاصمت: الكسبة وطلبة العلوم الدينية وطلاب الجامعات.

وتطور النشاط في هذا المسجد فأثار حساسية الجهاز الحاكم الذي تدخّل ومنع إقامتي للصلاة فيه.

بعد ثلاثة أشهر على هذا المنع عدتُ إلى مسجد الإمام الحسن وهو لصغره وموقعه النائي لم يكن موضع اهتمام جهاز الأمن. وما إن بدأت الصلاة في هذا المسجد الصغير الذي هو «مفحص قطاة» -بتعبير الحديث الشريف*- حتى توافد عليه الطلبة والكسبة فضاق بهم المسجد، واضطرّ القائمون على أمره إلى توسعته فأصبح أكبر من مسجد الكرامة. ولإبعاد الحساسيات أو تقليلها كنتُ أقيم الصلاة فيه ليلةَ السبت فقط وألقي درساً في نهج البلاغة يحضره عدد غفير.

مضافاً إلى إمامة المسجد كان بيتي مقصداً للمراجعين تفد إليه الفئات المختلفة تسأل وتطلب وتقترح وتناقش. كنت أقابل كل المراجعين برحابة صدر حتى أنّ المراجعات كانت تتواصل أحياناً إلى منتصف الليل. ولم تكن المراجعات من مشهد فحسب؛ بل من مختلف المدن الإيرانية.

* الدروس والمحاضرات

كنت أُدعى لإلقاء محاضرات في أنحاء البلاد منها العاصمة طهران فأستجيب لبعضها وأعتذر عن أكثرها لضيق الوقت. ومن الدعوات التي استجبت لها دعوة الشهيد مفتّح[123] لإلقاء محاضرة بمناسبة وفاة الإمام الصادقعليه السلام، وبعد عودتي من طهران اعتُقل الشيخ مفتّح،

---

* قَالَ رَسُولُ اَللَّهِصلى الله عليه وآله: «مَنْ بَنَى مَسْجِداً وَلَوْ مَفْحَصَ قَطَاةٍ بَنَى اَللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي اَلْجَنَّةِ.» الأمالي (للطوسي): ج 1، ص 182

وكنت أتوقّع اعتقاله. واستجبت لدعوات من «همدان»[124] و«كرمان»، وكنت أهمّ بالسفر إلى «أراك»[125] لإلقاء محاضرة؛ إذ أُلقي القبض عليّ لاعتقالي السادس. وعلى الرغم من ازدحام المراجعات والدعوات كنت أُلقي في اليوم درسين من دروس الحوزة العلمية واحداً في الفقه والآخر في أصول الفقه. وهذه الدروس كنت قد بدأتها طبعاً منذ عودتي من قم إلى مشهد سنة 1343 هـ.ش/1383هـ.ق/1964م.

* رحلة إلى مازندران

في شهر آذر (الشهر التاسع في السنة الإيرانية وهو آخر أشهر الخريف) من السنة المذكورة إذ مال الجوّ إلى البرودة، شعرت بتعب وإرهاق شديدين، ومالت نفسي إلى قسط من الاستراحة. فاتحت زوجتي برغبتي في السفر لأيام من أجل الراحة والاستجمام فرفضت. أعدت عليها رغبتي في الأيام التالية، حتّى اتفقنا على أن نذهب إلى محافظة «مازندران»[126] في شمال إيران.

كان أبناؤنا آنئذ ثلاثة، أكبرهم مصطفى تلميذ، والاثنان لم يبلغا سنّ المدرسة. أودعنا مصطفى عند جدّته، ودعوت خال زوجتي، وهو رجل كاسب بيني وبينه أواصر صداقة قويّة، يأخذ بيدي في أيام الحرج والشدّة ويخدمني كثيراً وله سيارة ومن محارم زوجتي. فجاء هو وزوجته وأطفاله وذهبنا معاً إلى مازندران، حيث أمضينا ثلاثة أيام، وأصررت على العودة بعدها إلى مشهد لأدرك جلسة المسجد ليلة السبت، ولكنّ رجال السافاك اقتحموا بيتي قبل الجلسة فألقوا القبض عليّ واقتادوني إلى السجن.

وثمّة ذكرياتٌ لي في هذه السفرة يحسن ذكرها لأنّها تبيّن موقعي في المجتمع الإيراني قبل اعتقالي السادس.

كنتُ في مدينة «ساري»[127] (مركز محافظة مازندران)؛ إذ دخلت «المسجد الجامع»، وهو أكبر مساجد المدينة، قبيل المغرب مع ابني مجتبى وهو طفل وجلست في أحد أروقته منتظراً حلول وقت الصلاة. اقتربَ منّي شاب فأمعن النظر فيّ، وسلّم عليّ، وجلس على مقربة منّي دون أن يتكلم. ثم جاء شابٌّ آخر وجلس بجانب الأول، وجاء ثالثٌ ورابعٌ، وما إن اقترب المغرب حتى بلغ عددهم عشرين شابًّا. توجّست منهم خيفة فلم أسألهم خشية أن يكونوا من رجال الأمن.

بادرني أحدهم بالسؤال: أنت فلان؟ قلت: نعم. ثم طلبوا مني أن أؤمّهم في الصلاة. قلتُ: ثمة جماعات متعدّدة تقام في أروقة المسجد (وهذه التعددية ظاهرة مؤسِفة)، فلماذا لا تشتركون فيها؟ قالوا: لا نعترف بأئمّتها جميعاً. وهذه كانت حالة كل الشباب المؤمن في إيران، يحبّون علماء الدين الثائرين المضحين الصامدين بوجه السلطة، ولا يستسيغون من لا يفكر كما يريدون ولا يتحرك كما يحبون، حتى ولو كان يحمل في نفسه عواطف إيجابية تجاه الحركة الإسلامية، ما كان الشباب يقنعون بإبداء المشاعر والعواطف من قبل العلماء؛ بل كانوا يطالبونهم بالحركة والتضحية والصمود.

قلت لهم: وماذا تفعلون كل ليلة؟

قالوا: نصلّي خلف فلان (وذكروا لي اسم أحد أصدقائي) وقد ذهب الآن إلى طهران، ورواقه خالٍ. وأصرّوا عليّ أن أذهب إلى ذلك الرواق. أقمت الصلاة والتحق بالجماعة عددٌ آخر. وبعد الصلاة توجّهت إلى

المصلين وتحدّثت إليهم في تفسير سورة الحمد، وقسّمت مفاهيم الفاتحة إلى أقسام، وتحدّثت في كل قسم. ثم اختتمت حديثي ونهضت لأودّعهم. ألحّوا عليّ أن أقيم بينهم أياماً. قالوا: شيخنا ذهب إلى طهران، وليس لنا أحد يوجّهنا ويؤمّنا في الصلاة. قلت: لا بدّ أن أسافر لأدرك مجلس ليلة السبت. تأوّهوا وقالوا: يا ليت شيخنا يهتم بنا كاهتمامك بأفراد مسجدك، فهو يتركنا كثيراً ويذهب إلى طهران لبعض شؤونه.

في السفرة نفسها دخلت محلّاً لبيع الكتب في مدينة «شاهي» (قائم شهر حاليّاً[128]) مع ابني مجتبى، وكنت أتصفّح أحد الكتب إذ جاءني شاب وقال: أنت فلان؟ ظننت أنّه من السافاك؛ لكن بعد أن تحدث اطمأننت إليه، وصاحب ذلك المخزن عرفني أيضاً.

عُدنا إلى مشهد بعد أن حملنا معنا بعض السمكِ من بحر الخزر، وكان قد أهدانا إيّاه صيادون مررنا بهم على ساحل البحر، وما إن رأونا حتى أسرع أحدهم ليقدم لنا مما اصطادوه. أصررنا أن ندفع الثمن فأبى، وقدّم إلينا السمك وهو مستبشر بالبركة لأنّ الصيادين يتفاءلون كثيراً إذا مرّ بهم «سيّد» وشاركهم في عطاء الصيد.

* ليتني قبلتُ طلب الشباب!

وصلنا مشهد في ساعة متأخرة من ليلة الجمعة، وفي صباح اليوم التالي ذهبت زوجتي إلى بيتِ أمّها، حيث يمكث ابننا مصطفى، وأنا أيضاً توجّهت ظهراً إليه حيث نزلنا عليهم ضيوفاً على الغداء، وعدتُ إلى البيت لأُعدّ محاضرة ليلة السبت.

كنتُ أقرأ في صلاة الجماعة بعد الحمد من كل ركعة سورة من سور الجزء الثلاثين. فالمصلّي وفق فقه أهل البيت: يقرأ سورة كاملة بعد الحمد. وغالباً ما يقرأ الناس بعد الحمد سورة الإخلاص أو القدر أو ما هو دونها في الطول. وكنتُ أختار بعد الحمد سوراً أطول ذات طابعٍ حركيٍّ مستهدفاً صياغة المضمون الداخلي وبناء الشخصية الإسلامية. كنت في عصر تلك الجمعة أردّد مع نفسي آيات سورة المطفّفين استعداداً لقراءتها في الصلاة إذ دُقَّ جرس البيت، فتحت الباب فإذا الوجوه التي كنت أعرفها جيّداً لدى كل اقتحام. دخلوا البيت دون استئذان، وتوجّهوا مباشرة إلى مكتبتي حيث الكتب والأوراق والكراسات، وبدأوا بجمع كل ما يتصورون أنّه مستمسكُ إدانة. رُفع أذان المغرب، وكانت عادتي أن أدخل المسجد قبيل الأذان فأسلِّم على المصلّين وأتبادل معهم العبارات الطيبة. فقلت لرجال السافاك: إن وقت الصلاة قد حان، ولا بدّ أن أكون في المسجد لأؤمّ الناس، وإذا تأخّرت في الصلاة فسيكون مردود ذلك سيّئاً عليكم.

أجابوا ببرود: لا تقلق علينا يا سيّد. في هذه الأثناء جاء أحد إخوة زوجتي بعد أن استبطأني في المسجد. قلت له: لا أستطيع اليوم أن آتي إلى المسجد، ففهم كلّ شيء.

أجلسوني في سيارة، ولا أتذكر هل شدّوا عيني أو لا. ثم زجّوني في السجن السابق نفسه (سنة 1391هـ.ق/1971م) حيث الزنزاناتُ المظلمةُ إلّا من خيوط نور تخترق الثقوب. وأدخلوني إحداها، دون أن ينتزعوا عمامتي وملابسي كما هي العادة. جلست في الزنزانة أستعيد ذكريات الأيام الماضية وإصراري على الوصول إلى مشهد في الوقت المناسب. ليتني قبِلت طلب شباب مازندران ومكثت عندهم أيّاماً.

* معتقلاً في القطار

في اليوم التالي جاء أحدهم قبيل الظهر وقال: اجمع أمتعتك. ظننت أنهم يريدون إطلاق سراحي، وإلّا فما معنى جمع الأمتعة في أول نهار لي في السجن؟!

أركبوني سيارة، وأنزلوني عند محطّة القطار. علمت أني عازم على سفر خارج مشهد. لماذا القطار؟ لماذا لم يَجُدْ هؤلاء البخلاء بتذكرة طائرة؟! تسلّمني في المحطة اثنان من رجال الشرطة باللباس المدني وكنت أعرف أحدهما لأنه يسكن في حارتنا وأراه كلّ يوم، وكنتُ أحدس أنّه مرتبط بجهاز الأمن.

جلسنا في قطار متّجه إلى طهران، وكانت المقصورة من الدرجة الثانية، وتتّسع لستة أشخاص. كان معي في المقصورة المرافقان، إضافة إلى ثلاثة ركاب عاديّين. حاول المرافقان أن يتظاهرا أمام الركاب بأنّنا نحن الثلاثة أيضاً ركاب عاديّون، ولم تصدر منهما حركة تنبئ بأنّي معتقل، لكني خشيتُ على الركاب أن يتحدثوا معي بشيءٍ يعرّضهم لمشكلة سياسيّة، وليس ذلك بمستبعدٍ؛ لأنّ الناس عادة كانوا يبثّون شكواهم إلى علماء الدين، وخاصة الشباب منهم، مما يحيط بهم من الأوضاع السيّئة. لذلك بادرت إلى القول بابتسامة وهدوء، وبوجه طلق مخاطباً الركاب: هذان الرجلان مأموران، وأنا معتقلٌ لديهما، ويريدان تسليمي إلى السافاك في طهران.

ارتسمت على وجه الركاب علامات تعاطف لم تفارقْهم طوال مدّة السفر، وكانوا يطيلون النظر إليّ وفي أعينهم ألمٌ ممزوج بغضبٍ صامتٍ.

وصلنا محطّة قطار طهران في الصباح الباكر. أخذني المأموران إلى

دكة خاصة بالشرطة في المحطة، وأسرّا إلى الشرطة بالمعلومات الخاصّة بمهمتهما. اتصلا بالهاتف، وبعدها بمدّة وجيزة جاء بعض الأفراد وطلبوا مني أن أصطحبهم. أركبوني سيارة، وشدّوا عيني، وعاملوني بغلظة وفظاظة. راحت السيارة تطوي شوارع طهران، وكلما توقّفتْ بسبب الزحام أمروني أن أضع رأسي على مسند الكرسي المقابل.

* في سجن «اللجنة المشتركة»

وقفت السيارة في مكان، واقتادوني منها بضعة أمتار. ثم رفعوا العصابة عن عينيّ فإذا أنا في حجرة، وفيها بعض المأمورين، وفيها أيضاً المرافقان اللذان اصطحباني في رحلة القطار. تهامسوا مع بعضهم بعضاً ثم قال لي أحدهم: اخلع ملابسك: العمامة، والعباءة، والقباء، والجبّة... إلخ، ولم يبق لي سوى القميص والسروال. سلموني لباساً خاصًّا بالسجن يتكوّن من قميص وسروال خاصّين، لبستهما. وقع نظري على المرافقَين فرأيتُهما ينظران إليّ بحزن وأسف وتفجّع. ويبدو أنهما ما كانا يتوقّعان أن يرياني بهذا الوضع. ابتسمتُ في وجهيهما.

ثم أمرني السجانون أن أخلع قميص السجن وأضعه على رأسي مغطياً به وجهي، وأخرجوني من الغرفة وأنا لا أعرف المكان. اقتادوني إلى بوابة سمعت صوت سلاسلها. ثم أخذوني إلى مكان أحسست أنّه صالة كبيرة، وأوقفوني عند باب فتحوه، وألقوني خلفه، ثم أوصدوا الباب. رفعت القميص فوجدتني في زنزانة نصف مظلمة فيها مصباح ضئيل النور مغطًّى بحاجز.

وجدت في الزنزانة شابًّا سُرّ بقدومي جدًّا. سألني عن اسمي، وحين

أخبرته اهتزّ من الأعماق، وراح يردّد مراراً: حقًّا أنت فلان؟ وراح يغمرني بقبلاته من قمة رأسي حتى أخمص قدمي. وأخبرني أنه مسجون منذ عشرين يوماً، وكان خلالها وحيداً. بادلته العواطف، ولكن لم أنفتح أمامه. وهذه هي طريقة التعامل عادة في السجون السياسية؛ إذ كل شيء محتمل. وربّ رجل سجين يبدي لك الإخلاص في الودّ وهو يريد الحصول على ما عندك من معلوماتٍ. كنت أجلس معه وأسامره وأسلّيه. وبقي معي حوالى الشهرين ثم نُقل إلى زنزانة أخرى أو إلى السجن العمومي، وكان سجيناً سياسيًّا، غير أنّه لم يكن من الرساليين الإسلاميين.

كان ذلك السجن يعرف بسجن «كميته»[129] وقد تأسّس في ذلك العام أو العام السابق له، وإنّما سمي بهذا الاسم لأنّه خاضع للجنة ثلاثية مكونة من السافاك والشرطة والدرك. واستحدث هذا السجن بعد حوادث كثيرة ظهر فيها عدم وجود انسجام بين نشاطات تلك الجهات الثلاث، بسبب التنافس على التزلف للشاه، خاصة بين السافاك والشرطة. فجمعا في لجنة أمنيّة واحدة وأُلحق بهما الدرك لأن بعض الحركات الثورية كانت تبتعد عن المدن، وتتخذ من الغابات مقرًّا لها. والدرك كان المسؤول الأمني عما يقع خارج المدن.

تواصلت الأيام عليّ في الزنزانة، وهي أيام ثقيلة جدًّا لا يفهمها إلّا من عاناها. ويوم واحد في الزنزانة يعادل شهراً من البقاء في السجن العام. ولا أقلّ من أن يقال: الأشهر الثمانية التي أمضيتها في زنزانة هذا السجن تعادل ثماني سنين في السجن العام. وبالمناسبة فإنّ الشهيد رجائي أمضى 28 شهراً في إحدى زنزانات هذا السجن الرهيب.

كان طول الزنزانة مترين وأربعين سانتي متراً، وعرضها متراً وستين

سانتي متراً، وفي هذه الزنزانة الصغيرة عشتُ وحدي أحياناً، ومع سجين أو سجينين أو ثلاثة سجناء حيناً آخر، أربعةُ أشخاص في مساحة تقل عن أربعة أمتار مربعة. ويا ليت المشكلة تقتصر على ضيق المكان؛ إذاً لهان الأمر، ولكن ثمة الإرهاب النفسي والتعذيب الجسدي.

* ضجيج المعذَّبين

ضجيج المعذَّبين كان يقرع آذاننا في النهار، ويمتد في بعض الليالي حتى الصباح. وكانت طريقتهم في التعذيب مدروسة فيها تفنّن. وكل شيء في هذا السجن كان يستهدف تحطيم شخصية الفرد كي ينهار نفسيًّا، حتى في عملية أخذ الأفراد إلى المرافق الصحية. لقد كانت المراحيض داخل صالة السجن. وما إن يدخل السجين المرحاض حتى تعلو أصوات الحرس: هيّا.. هيّا.. اخرج.. اخرج بسرعة.. وكانوا يدفعون في بعض الأحيان باب المرحاض لفتحه على السجين.

أنواع الإهانات باليد واللسان كان يمارسها حرس السجن بحقّ السجناء. والكلام بين السجناء داخل الزنزانة الواحدة ممنوعٌ أيضاً، فكان التحادث بالهمس أو بالإشارة أحياناً. وإذا أحسّ الحارس بهمسنا ينهرنا بصوت غاضب أجشّ. والطعام في الغالب من أردأ ما يكون. وإذا اتفق أن وضع الطبّاخ فيه قطعة من اللحم يلتقطها الحراس لأنفسهم. وطريقة تقديم الطعام للسجناء كان فيها شيء كثير من الإهانة، تحسب أنهم يقدمون الطعام للحيوان، مع أن أكثر السجناء علماء ومفكرون وجامعيون.

ما كان يسمح للسجين أن يخرج من الزنزانة إلّا للمراحيض أو غرفة التحقيق. ذكرتُ أنّ الذهاب إلى المراحيض كارثة، أما التحقيق فشيء لا

يوصف. قلت: إن بقاء الشهر في الزنزانة يعادل سنة من السجن العمومي. وأقول هنا: إن يوماً من أيام التحقيق يعادل شهراً في الزنزانة المنفردة.

في مرة من المرات استدعوني للتحقيق، وكان معي في الزنزانة ثلاثة أشخاص. أخذوني في الصباح وما عدت إلى زنزانتي حتى المساء. رفاق الزنزانة ظنّوا أني متُّ تحت التعذيب فاضطربوا كثيراً. والطريف أني حين عدت إليهم لم يعرفوني، فقد غادرتهم بلحية طويلة، وعدت بدون لحية، وحين تكلمت معهم عرفوني فبكى بعضهم.

كان لي صاحب في الزنزانة (وهو أحمد أحمدي[130] سبط العالم الشهير الشيخ محمد علي الشاه آبادي[131] أستاذ الإمام الخميني في الفلسفة والعرفان) وكان حينما يأخذونه إلى الاستجواب يعود زاحفاً على مقعدته بعد أن يفقد قدرته على المشي. واستمرّ معه التعذيب حتى استشهد في هذا السجن. وكان حين يعود إلى الزنزانة يخيّم علينا ألمٌ شديدٌ يعتصر قلوبنا، فيسارع إلى تخفيف آلامنا وتسليتنا وبثّ الطمأنينة في قلوبنا.

أذكر مشاهد وحشية التعامل؛ ولكني لا أستطيع تصوير عمق المأساة. لقد كان المسؤولون في هذا السجن على درجة عالية من الخبث واللؤم. كان صوت تعذيب السجناء يُسمع حتى الصباح. لم أكد أغفو حتى أستيقظ على صوت أنين، ولا أدري أهو صوت حقيقي أم شريط مسجّل.

*** أمّاه!**

ومشكلتي الكبرى في هذا السجن كانت أمّي. إنّها -كما ذكرت- كانت تتحلّى بشجاعة فائقة وصمود لا يلين؛ لكنها قالت لي قبيل اعتقالي هذا ما ينبىء أنّ صبرها قد نفد بسبب كثرة ما تحمّلَتْه من

مصائب ولدها، قالت لي يوماً وكنت في بيتها: لو سُجِنتَ مرة أخرى فإني سوف أموت. حاولت حينها أن أُطمئنها وأقول لها: يا أماه، لماذا أسجن مرة أخرى؟! ماذا فعلت؟ ثم لو قُدّر أن يحدث ذلك، لماذا هذا الشعور؟ لماذا هذا الكلام الذي لا أعهده منكِ أبداً؟! لكني وجدتها جادّة في ما تقول. كانت كلمات الوالدة تقرع أذني وتقلق نفسي منذ أن اعتقلت، وبقيت في هذه الحالة مدة ستة أشهر لا أعلم ما حلّ بوالدتي. بعد ستة أشهر سمحوا لي أن يكون لي اتصال هاتفي واحد فقط. فضّلت أن أتّصل ببيت الوالد؛ كان الوالد وراء الخطّ. أول سؤال وجّهته إليه: كيف حال والدتي؟ أجابني: بخير. لم أطمئن، قلت له: أين هي الآن؟ قال: خرجت من البيت. لم أطمئن، سألت: أين ذهبت؟ قال: ذهبت إلى مجلس ذِكر في بيت فلان. تذكّرت مجلس الذكر الذي كانت تواظب الوالدة على حضوره، فارتحت وهدأت نفسي، ثم سألت عن الزوجة والأولاد. والواقع أنّي، مع قدرتي على البيان، لا أستطيع أبداً أن أصف ما يجري على الإنسان في هذا السجن، فقد رأيت فيه من البشاعة ما لم أرَ ولم أسمع بمثله حتى اليوم.

* شيفرة مورس

طبيعة الإنسان أن يتمرّد على وضع لا يستسيغه، وإذا همّ بالتمرّد تفتح أمامه طرق للإبداع والابتكار. وفي هذا السجن كانت أفكار السجناء تتركّز على تجاوز عقبتين: الأولى: عقبة الحرس وأكثرهم أميّون مأجورون تغلب عليهم البساطة، والثانية: عقبة رجال الأمن. وكان السجناء يخططون عادة للتغلب على العقبة الأولى، وينجحون فيها

غالباً. وأذكر من ذلك قضايا لا تخلو من طرافة:

الكلام داخل الزنزانة الواحدة ممنوعٌ كما ذكرت، فما بالك بالكلام مع سجناء الزنزانات الأخرى؟! كان هذا العمل خطيراً يؤدّي إلى ارتباك أوضاع التحقيق وعمليات الحصول على معلومات، خاصة إذا كان المعتقلون متهمين في قضية أمنية واحدة. ومع هذه الخطورة كان «المورس» أداة التخاطب بين السجناء. كان بيني وبين زنزانة «رجائي» فاصلة زنزانة واحدة. كنت أخاطب الزنزانة المجاورة بالمورس فيذهب النداء إلى زنزانة رجائي ويعود الجواب.

لقد تعلمت لغة المورس في هذا السجن. بدأت القصة من ضربات على الجدار أسمعها من زنزانة جاري ولا أفهم معناها. عرفت أنه يريد بهذه الضربات شيئاً. وذات يوم كنت أتطلع إلى جدران الزنزانة، وهو عمل يعمد إليه السجين عادةً كي يشغل نفسه بشيء جديد، فقرأت في ما قرأت ذكريات السجناء ومطاياباتهم ولطائفهم. وإذْ كنت أحدّق في جدار يقع جوار الباب لا يصل إليه ضوء إلّا بالكاد، رأيت جدولاً فيه حروف ورموز. وبسبب معرفتي قليلاً ببعض العلوم التي تمارس بالحرف والعدد بدأت أتفهّم لغة الجدول فإذا هي رموز المورس. بدأت أتعلمها، وبدأتُ أتفهم ضربات جاري على الحائط. ثم في مرة من المرات حاولتُ أن أجيبه ولو ببطء. فهم الجار جوابي وفرح كثيراً. بدأ تبادل الحديث بيني وبينه، هو يخاطبني بسرعة ومهارة وأنا أجيبه على مكث، ويحاول أن يساعدني، فما إن يسمع الحرف أو الحرفين من الكلمة، حتى يشير إليّ بأنه فهم الكلمة ولا داعي لبقية الحروف.

وبالتدريج ازدادت مهارتي في الحديث بالمورس حتى أصبحت

أضرب بالمورس بحيث لا يفهم من معي في الزنزانة أني أفعل ذلك. أتكئ على الحائط مسنداً رأسي إليه واضعاً يدي خلف ظهري، ثم أنقر بظفري على الجدار وأتحدث بشكل طبيعي مع رفيقي في زنزانتي دون أن يفهم أني أتحدّث بحديث آخر بالمورس مع جاري في السجن، ولا يرى منّي حركة غير طبيعية سوى أنّه يشعر بشرود ذهني يبدو عليّ، وهو ما يبدو بشكلٍ طبيعيٍّ أيضاً على كل سجين. وربما ضربت على الجدار بأصابع رجلي وأنا مضطجع مع بقية السجناء. والاستماع في مثل هذه الحالة صعب لابتعاد الأذن عن الجدار.

* السجين الذكي

الحديث مع الجار كان يدور حول كل شيء. تبادل الأسئلة حول شتى الأمور: هل أخذوك اليوم إلى الاستجواب؟ ماذا فعلت اليوم؟ ماذا رأيت في المنام؟ عرفت أنه طالب جامعي ولم أعرف عنه أكثر من ذلك. حتى اسمه الحقيقي كتمه عليّ، وهذا طبيعيٌّ. فالكتمان ضرورة لازمة للسجناء السياسيين. وكان هذا الشاب يتحلّى بخفة دمٍ فائقة وشطارة عجيبة. يحاول بشتى الصور أن يتطوع لغسل مراحيض السجن. والسجناء طبعاً يتسابقون لهذا العمل كي يخرجوا ولو لدقائق من الزنزانة. ثم يغتنم فرصة خروجه ويقوم بأعمال تدل على سرعة حركته ولباقته.

في مرة أرسل الحارس بذكائه إلى مكان بعيد عن الزنزانات، وفي خفة وسرعة توجه إلى زنزانتي ورفع غطاءها المسدول على النافذة

الصغيرة الموضوعة على كل أبواب الزنزانات، ودعاني ثمّ طبع قبلة على وجهي، وعاد إلى محلّ عمله في المراحيض دون أن يلتفت إليه أحد.

وفي مرة رأى وهو يمارس عمله في النظافة أنّ كمية من الزُّبد والمربّى موضوعة على قالب الثلج داخل كوز الماء الكبير (الحِبّ) في ممرّ السجن. الكوز كان مغطى طبعاً، لكن صاحبنا فتحه للحظة ورأى ما رأى فيه. علم أنّ هذه الكمية من الزبد والمربى هي ممّا سرقه الحارس المناوب من فطور السجناء، فالطعام في عشاء ذلك اليوم كان رديئاً لا يعجب الحارس، ولذلك أعدّ عدته، ووضع ما سرقه على قالب الثلج كي يستفيد منه في العشاء. طمحت نفس صاحبي إلى هذا الطعام المسروق، خاصة وهو صائم في ذلك اليوم. وفي خفة متناهية فتح باب الكوز وأخذ ما فيه من الطعام واتجه إلى الزنزانة، وأخبرني بالمورس بما فعل. قلت له: كله في الإفطار هنيئاً مريئاً. وحين حلّ المساء أقبل الحارس بشهية فائقة إلى الكوز ليأخذ ما أودعه فيه. فجنّ جنونه حين رأى أنّ ما فيه قد سُرِق. لم يصدّق أنّ السجين يستطيع أن يفعل ذلك. سأل بقية الحراس، ولما أيقن أنّ ذلك من فعل السجناء عزم على تفتيش الزنزانات مع بقية الحراس. كان صاحبي قد أكل قسماً من الطعام وبقي قسمٌ آخر فاتّصل بي فزعاً يسأل عمّا يفعل بالباقي وهو وحيد في زنزانته. قلت له: كلْ ما استطعت وضَعِ الباقي تحت البساط وأخف آثار الجريمة. وتم تفتيش الزنزانات، وفتشت زنزانة جاري أيضاً، ولكن لم يعثروا على شيء، ومرّت القضية بسلام لتبقى في سجل ذكريات هذا السجن دلالة على تمرّد الإنسان السجين على واقعه.

* السجين اللئيم

لقد رافقت في هذه الزنزانة ألوان الأفراد فيهم الشباب المؤمن المتحمّس. وأحدهم شابٌّ من «نهاوند» ينتمي إلى «جماعة أبي ذر»[132] الثانية. وكانت المجموعة الأولى قد أُبيدت بأجمعها، فشكّل شباب مدينة نهاوند هذه المجموعة الثانية. وإنما ذكرت هذا الشاب بالذات لأنّي رأيته أخيراً. فقد زارني مجموعة من المؤمنين وسألت عن أسمائهم فذكَرَ لي أحدُهم اسمَه، فتوقّفت عند هذا الاسم قليلاً. ثم سرعان ما أسعفتني ذاكرتي بأنّه هو رفيق الزنزانة نفسه من مجموعة أبي ذر الثانية.

وكان بين من صاحبتُهم في هذه الزنزانة شيوعيّون. أحدهم شاب لم يذكر لي أنه شيوعيّ. وقد حلّ في الزنزانة ونحن ثلاثة فصار رابعنا. وما كان حلوله في الزنزانة حلولَ من يريد أن يستقرّ فيها؛ بل مثل شخص يهمّ بالرحيل. عندما سألتُه عن نفسه لم يكن صريحاً، وتحدّث في أمور هامشية. تلمّست فيه شيئاً من الطيبة، وقلتُ له يوماً: أجد فيك توجّهاً نحو المعنويّات. لم يلبث طويلاً فقد أُخرج من الزنزانة إلى حيث لا نعلم. وقبيل الثورة اتّصل بي هاتفيّاً، وقال: أنا أعمل في الصحيفة الفلانية. وكرر عليّ مراراً عبارتي التي قلتُها له في السجن. ثم عرفت أنّه من أعضاء حزب «توده» (الحزب الشيوعي). وعثرنا على وثيقة تدل على عضويّته في السافاك. وفي حوادث انهيار الحزب الشيوعي، أُلقي القبض عليه في من اعتقل من أعضاء حزب توده. وكانت زوجته تكتب لي راجية إطلاق سراحه، وتذكرني أيضاً بما قلته لزوجها في السجن. وبقي معتقلاً ثم أُفرج عنه.

والشيوعيّون ليسوا في حقدهم على الدين وخبث سريرتهم على نمطٍ واحدٍ. فهذا الرجل لم يكن شديد التعقيد؛ لكني ابتُلِيت بخبيثٍ حاقدٍ من الشيوعيين في هذه الزنزانة، كان في غاية الدناءة وانحطاط الأخلاق.

حين أودع الرجل الزنزانة كنت جالساً مع أحد السجناء نتلو أذكار تعقيبات صلاة المغرب. وعادتي في الصلاة داخل السجن أن أتعمّم ببعض ملابسي البيضاء وأرتدي بطانية بدل العباءة، فيخيل لمن يراني في ظلمة الزنزانة أني أرتدي ملابس رجال الدين.

كنت، كما ذكرتُ، جالساً مع رفيقي بعد صلاة المغرب إذ فُتح باب الزنزانة فدخل رجل طويل القامة. لم يرَ شيئاً في أول الأمر؛ لأنّه دخل من مكان مضيء إلى مكان مظلم. بعد برهة وقع نظره عليّ وعلى صاحبي فاكفهرّ وجهه وقبع في زاوية من الزنزانة حزيناً بائساً كئيباً. اقتربتُ منه وشرعت أعامله كما أعامل كلّ نزيلٍ جديدٍ، محاولاً رفع الكآبة عنه وتسليته. قلت له: أنت جائع أو عطشان؟ لكن الوجوم لم يفارقه. حسبت أنه منكمش بسبب ما يعانيه من ضغوط نفسية. شرعت أمسح بيدي على كتفه ورأسه وعنقه، حاول أن يمتنع عن الإجابة عن أي سؤال. ثم علمت أنّه ألقي القبض عليه صباح ذلك اليوم ولم يتناول طعاماً بعد الاعتقال وربّما ضرب أيضاً.

كنت قد اعتدت على إبقاء شيء من طعام الفطور لأتناوله بين الوجبات بسبب إصابتي بالقُرحة في هذا السجن. قدّمت له خبزاً وشيئاً من المربّى. أبى أن يأكل، فأطعمته بالإجبار وسقيته، فانفتحت أساريره قليلاً. وأخّرت صلاة العشاء مراعاة لحاله، ولِما رأيت فيه من انكماش شديد. واصلت معه حديث تسلية ومواساة. وبعد

أن رأى منّي شدة الاهتمام ظنّ أنني أفعل ذلك لاعتقادي أنه من السجناء السياسيين الإسلاميّين، أو أنني أفعل ذلك لأكسبه إلى صفِّ الإسلاميين. رفع رأسه وقال بلهجة لا تخلو من جفاف: اسمح لي أن أعترف بأنّني لا أدين بأي دين.

فهمتُ ما دار في خَلَده، وطفقت أبحث عن عبارة مناسبة لذهنيته ومنطقه وظروفه. قلت له: إن الرئيس الأندونيسي سوكارنو[133] قال في «مؤتمر باندونغ»[134]: إن الملاك لاتحاد الشعوب المتخلفة ليس وحدة الدين أو وحدة التاريخ والثقافة وأمثالها؛ بل وحدة الحاجة. ونحن الآن تربطنا معاً وحدة الحاجة. القضايا واحدة والمصير غير معلوم، ولا ينبغي أن يفرق الدين بيني وبينك.

ما كان يتوقع مني هذا الجواب. وجدت التغيير واضحاً على وجهه. انفتح كثيراً، واختلط بنا. ثم قلت له: استرح أنت ونحن نصلي.

كانت زوجته تقبع في زنزانة أخرى بهذا السجن. وطالما استفدت من خبرتي الطويلة في هذا السجن لإيجاد ارتباط بينه وبين زوجته. وأبديت له كل حبّ وخدمة.

بقي معنا شهرين، وفي أحد الأيام قال لي: حين وقعت عيني عليك شعرت بالمأساة. قلت في نفسي: ابتلينا بالملّا. وأقول لك الآن: لم أرَ في عمري شخصاً مثلك في سعة الصدر وعدم التعصّب.

لكن كل مواقفي هذه لم تغيّر من خُبث سريرة الرجل التي تلمستها في ما بعد. كان يغتنم كل فرصة للاستهزاء بالدين وعلمائه، ويحاول بشتى الطرق أن يستهين حتى بالعادات والتقاليد التي تمتُّ إلى الدين بصلة بشكل يثير التقزز والاشمئزاز.

* لم أر مثلك!

أتذكر أني أصبت يوماً بمغص في الأمعاء واحتجت إلى المرافق باستمرار. وما كان الذهاب إلى المرافق ممكناً إلّا ثلاث مرّات في اليوم فقط. وكانوا يصادرون أحياناً بعض النوبات.

في يوم إصابتي بالمغص كان الحارس -لحسن الحظ- فيه شيء من الطيبة. فتح لي باب الزنزانة مرّات عدة، وما تبعني إلى المرحاض؛ بل وقف منتظراً عند باب الزنزانة. عدت في إحدى المرّات فوجدت أحد السجناء معنا يعنّف هذا الشيوعي بشدّة ويطرحه أرضاً وعرفت أنّ هذا الإنسان المعقّد أخذ يسخر منّي أمام الحارس. وإهانة السجين أمام الحارس من قبل سجين آخر ذنب لا يغتفر في عرف السجناء.

قلت له مرة: هل تذكر أنّك قلت لي: لم أر في عمري شخصاً مثلك في عدم التعصب وفي سعة الصدر؟

قال: نعم.

قلت: وأقول لك بدوري: لم أر مثلك رجلاً في التعصب وشدّة العناد.

والواقع أنّ موقفي كان ينطلق من عقيدتي، وموقفه أيضاً كان نابعاً من عقيدته. الإسلام يحثّ أتباعه طبعاً على الالتزام الصارم بأحكام الإسلام. والإنسان المسلم وقّاف عند حدود الله. لكن هذه الأحكام نفسها تدعو إلى الانفتاح على غير المسلم واللين معه والابتعاد عن التشدد والحدية في الحديث مع المخالفين.

منطق الإسلام توضحه نصوص القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه: «فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» *.

---

* سورة الزمر: الآيتان 17-18

ويقول: «ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» *.

ويقول سبحانه: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» **.

ويقول جلّ من قائل: «لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» ***.

وهكذا نصوص السنّة النبويّة تدعو إلى ذلك. والحثّ على طلب العلم ولو في الصين له دلالة كبيرة على هذا الانفتاح الكبير. كلّ العلوم يمكن أن يتلقاها الإنسان المسلم عن غير المسلم ويوجهها الوجهة التي يريدها الدين. أما الشيوعيون فهم أصحاب نصوص جامدة، وقوالب معدّة لا روح فيها ولا عاطفة، ولا قيم فيها ولا أخلاق. وهذا هو الطابع السائد على تعامل كل أصحاب الأفكار المادية.

ومن المؤسف أنّ المسلمين اليوم يوسمون بالأصولية، ويُقصد بهذه الكلمة التعصب والتشدّد، وهو ظلم كبير ما بعده ظلم.

* حزمة نور

تخطر في ذهني الآن حوادث تبدو لمن لا يعرف حياة الزنزانة المظلمة المغلقة المقطوعة عن العالم الخارجي أنّها عادية. ولكن هي بالنسبة إلى سجين في مثل هذه الزنزانة حدثٌ هامٌّ، يبقى في الذاكرة

---

* سورة النحل: الآية 125

** سورة سبأ: الآية 24

*** سورة الممتحنة: الآية 8

بوضوح كامل لأهميته. من ذلك حادثة إشراق حزمة من نور الشمس داخل الزنزانة. ذات يوم لفت نظري نور ضئيل استطاع أن يخترق كل ما علا نافذة الزنزانة الصغيرة من عتمة وغبار، وينفذ إلى داخل الزنزانة. لم أتمالك نفسي من البهجة، فصحت يا جماعة! البشارة! الشمس.. الشمس.. وتسمّرت عيوننا إلى هذا النور الذي يربطنا بالفضاء الحرّ الطليق. وبقينا ننظر إليه مسرورين حتى غاب عنّا بعد نصف ساعة أو أقل. وفي اليوم التالي ازدادت الحزمة وطالت مدة ضوئها، وبقي الأمر على هذا المنوال أسابيع حتى أصبحت الشمس في زاوية لا يصل إلينا عطاؤها المتواضع هذا.

وفي يوم من الأيام استيقظتُ على صوت عصافير تزقزق خارج الزنزانة. كان صوتاً بهيجاً يبشر بحلول فصل الربيع، ويربطنا بما وراء الزنزانة من طبيعة حرّة طليقة. عرفنا أن خلف الزنزانة أشجاراً. ولعلها أورقت لتوّها وبعثت في الجوّ بهجة غنت لها العصافير. كل هذه الصور الجميلة كانت تبعثها في أذهاننا أصوات العصافير، فتنشرح لها نفوسنا وتبعث فينا نشوة ولذة.

ومما يراود ذهني غالباً حتى الآن من هذا السجن صوت أذان الصبح. لقد كان صوتاً ضعيفاً جدًّا، ولا بدّ من أنّه يأتي من مكان بعيد. استطاعت أمواج هذا الأذان أن تغتنم فرصة هدوء المدينة والهواء الصافي لدى الفجر لتتسلّل إلى داخل الزنزانة، ولتلتقطه أذني باشتياق تامٍّ، ولتبعث في نفسي لذة أنتشي بها حتى الآن متى ما تذكرتها. ولبعد الصوت كنت أسمع منه كلمات وتغيب كلمات، ولكن لا أنقطع عن انتظاره والاستماع إليه فجر كلّ يوم.

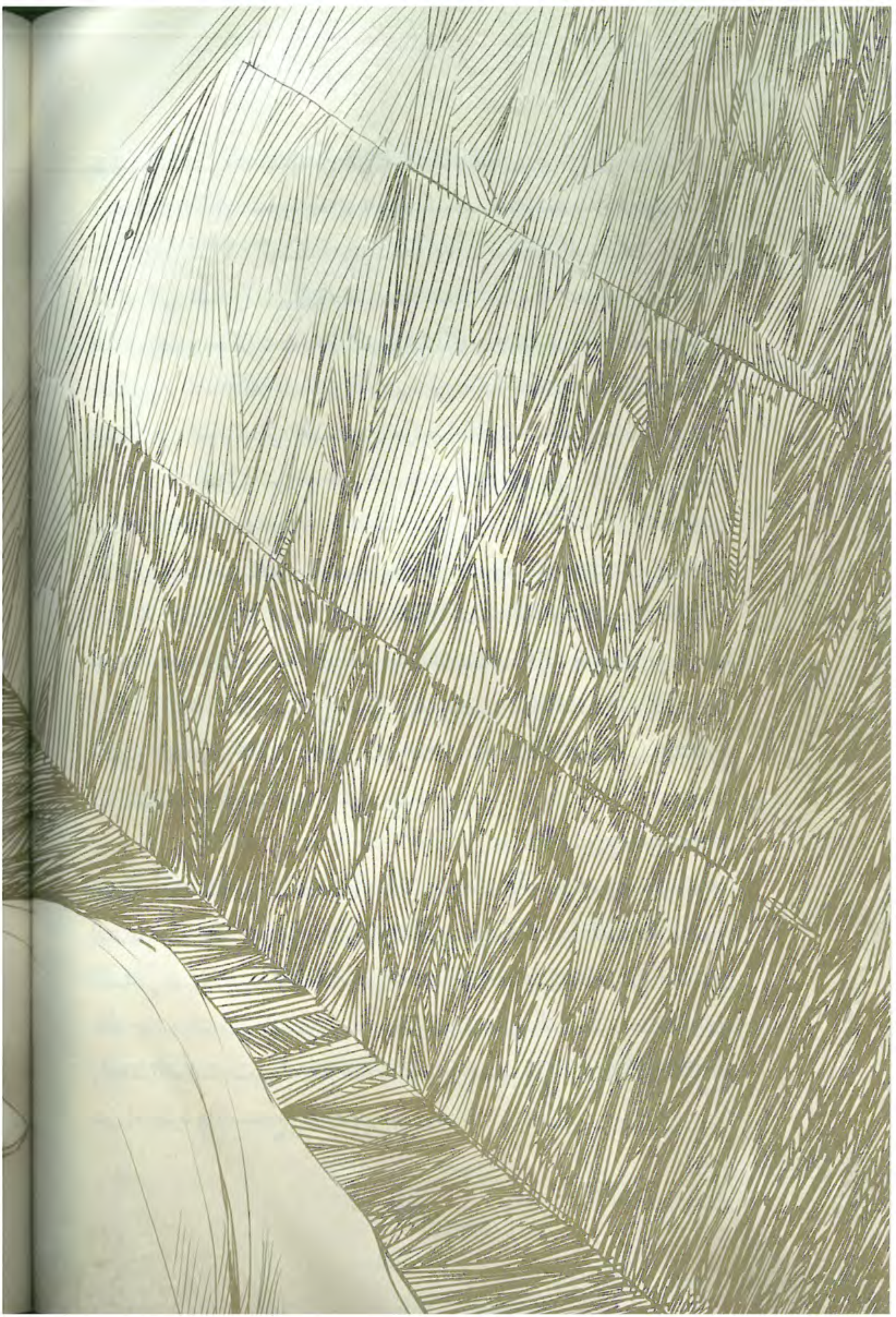

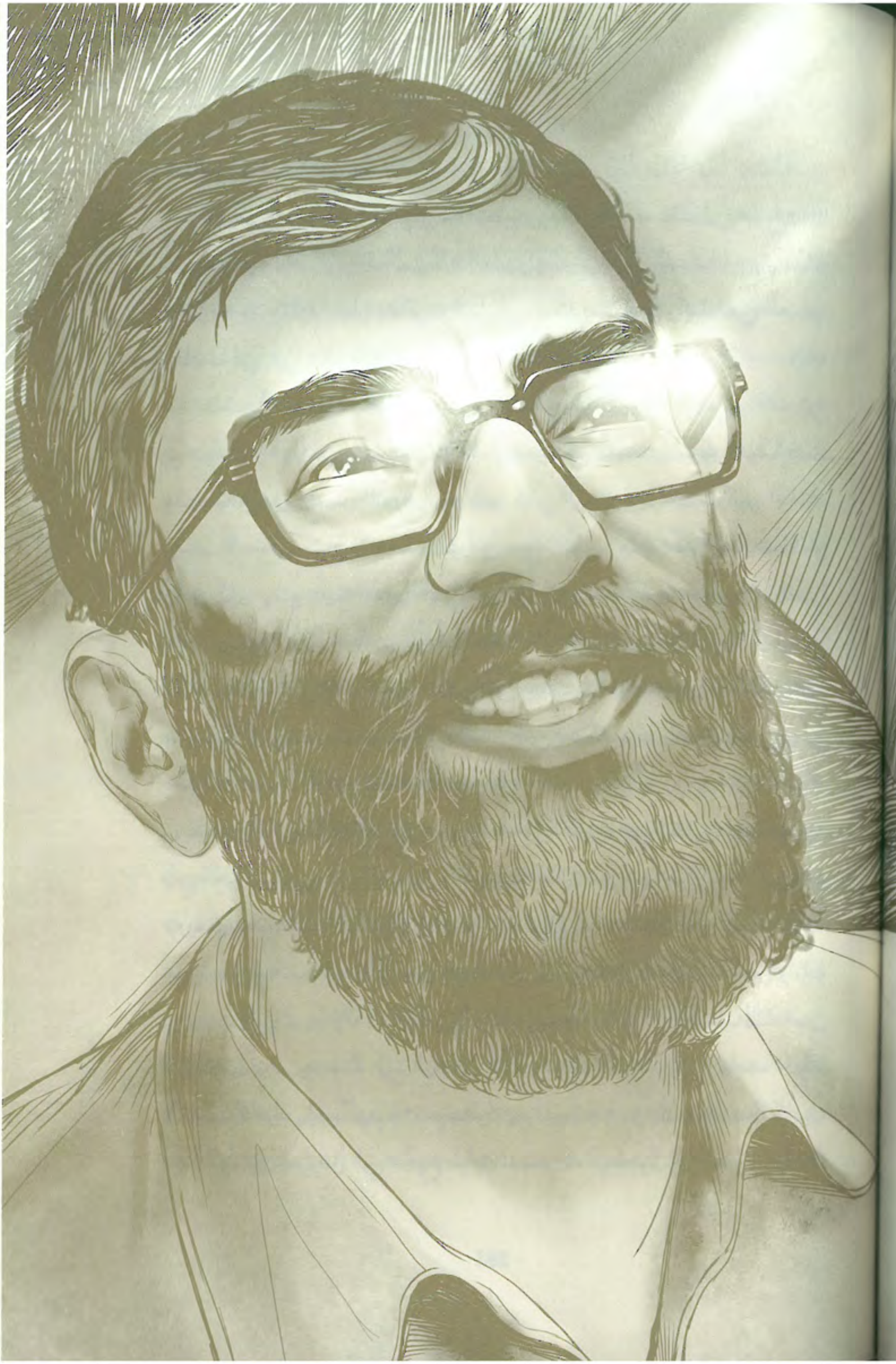

* الرؤيا المدهشة

كل شيء في هذا السجن له أهميته ودلالته؛ لأنه يشكل معلماً هامّاً من معالم حياة الزنزانة المغلقة المنعزلة عن الحياة العامة، ومن ذلك «الرؤيا» إذ كنا نشغل بعض وقتنا في الحديث عما رأيناه في المنام. وكانت لي في هذا السجن رؤى صادقة مدهشة. منها:

نمتُ بعد صلاة الصبح يوماً فرأيت في ما يرى النائم أني واقف في صحراء قفراء وأمامي نهرٌ جافٌّ لا ماء فيه. وعلى ضفافه أشجار قد شاخت وهرمت وتجردت من الأوراق. ثم ظهر على البعد فجأة كلب كبير الجثة، رهيب المنظر، ينبح نباحاً مسعوراً ويُسرع نحوي، ولكن من الجانب الآخر الذي كان بيني وبينه النهر. استولى عليّ خوفٌ شديدٌ، وبقيت متحيراً ماذا أصنع. نظرت يمنة ويسرة أطلب ملاذاً ولات حين ملاذ. وما إن أصبح الكلب مني على بعد عشرة أمتار حتى نقصت سرعته، ثم انخفض صوته بالتدريج حتى سكت ثم سكن تماماً، وبقي يحمحم، ثم انصرف عني وولّى مدبراً. دُهِشتُ، وفرحتُ فرحاً عظيماً.

وحين استيقظت لم يبق من هذه الرؤيا شيء في ذهني. بعد هنيهة فتح الحارس باب الزنزانة وفي يده ورقة وقال: من هو عليّ؟ وكانت هذه طريقتهم في السؤال عن الشخص، يذكرون اسمه دون ذكر لقبه حفاظاً على سرّية الأسماء؛ لأنّه من المحتمل أن يخطئ الحارس رقم الزنزانة ويذهب إلى غير زنزانة الشخص المطلوب، عندئذ إذا ذكر لقب الشخص كان كمن أعلن وجوده في السجن لأهل تلك الزنزانة التي جاءها خطأً. ولتعدّد الحرس وتبدّلهم وعدم معرفتهم للمسجونين بأشخاصهم، كانت هذه الطريقة تمارس في جميع مرات استدعاء السجين إلى خارج زنزانته.

قلت: أنا. قال: أيّ عليّ؟ قلت: علي خامنئي. قال: غطّ وجهك واخرج معي. وكانت هذه عادتهم عند استدعاء الشخص. لا بدّ أن ينزع قميصه ويلقيه على وجهه، ثم يقتادوه إلى المكان المطلوب. عرفتُ من منعطفات الطريق أني أتجه إلى غرفة التحقيق. وبالمناسبة فإني تعرّفت بالحدس على كلّ أجنحة السجن ورسمت على الورق ما ارتسم في ذهني، من هندسة البناية بعد خروجي منها. ثم زرت السجن بعد الثورة فإذا هو غير بعيدٍ عمّا تصورت، وإن لم يكن منطبقاً تماماً.

* خمينيّ مشهد!

أدخلني الغرفة وأجلسني على كرسيٍّ وقال: ارفع رأسك. وهي عبارة تعني الأمر برفع القناع. رفعت الغطاء فرأيت المحقق المسؤول عن ملفي (وكنا نسميه أنور السادات لما بينهما من شبه في الملامح) واقفاً أمامي. وشرع يطرح أسئلته المعتادة وأنا أجيب. وفي هذه الأثناء فتح باب الغرفة رجل وأدخل رأسه وخاطب المحقق وقال: عندك شاي دكتور؟ وكلمة «دكتور» وهكذا كلمة «مهندس» يتخاطب بها المحققون. وهي لا تنمّ إلّا عن عقدة الحقارة والضعة في نفوس هؤلاء الجهلة القريبين من الأميّة. ثم السؤال عن الشاي «شنشنة أعرفها من أخْزَمِ» وبها يريد السائل أن يتظاهر بأنّ حضوره طبيعيٌّ ليس عن قصد مسبَق.

دخل، ثم قال وكأنّه فوجئ برؤيتي: ما هذا؟ وهو سؤال معروف في السجن؛ إذ لم أسمع محقّقاً يقول عن السجين: من هذا؟! أجابه المحقق: هذا خامنئي من مشهد. فقال الرجل الداخل وكأنّه اندهش لسماعه اسمي: عجيب، هذا هو؟ هذا الذي يريد أن يكون

خميني مشهد؟! وهذه عبارة مذكورة في ملفّي مراراً: يريد أن يكون خمينيّ مشهد. وأردف قائلاً: دكتور، إنّه رجل خطير. ثم هزّ الرجل رأسه وخاطبني قائلاً: خامنئي، إنك لن تنجو من هذا المكان. ثم قال: أسألك عن معنى «التقية» ومعنى «التورية». وبدون أن ينتظر جواباً منّي التفت إلى المحقق وقال: إن هؤلاء يتظاهرون في عمل غير عملهم الواقعي ويسمونه «التقية»، ويقولون ما يبدو في الظاهر غير حقيقته ويسمونه «التورية».

يبدو أنّه كان منزعجاً جدًّا من تقيّتنا، ومن حقّه أن ينزعج لأنّا كنّا نتقي الجهاز الحاكم، وكانت التقيّة خندقاً لجهادنا. والجهاز الحاكم عجز عن مواجهتنا في هذا الخندق. كنت طول هذه المدّة مطرقاً، ثم رأيتُ إصراره على تعريف المصطلحين. أجبته وأنا مطرق بجواب ساذج يتناسب مع المقام.

قال: لا، ليس الأمر كذلك. وشرع في تهديدي.

أحسستُ بخوف منه منذ وروده؛ لأنّي شعرت بأنّه يحمل مهمة إيذائي. وزاد خوفي عندما ازداد تهديده. وفي هذه الحال رفعتُ رأسي في وجه هذا الرجل المهدّد فرأيت عجباً. هو الكلب نفسه الذي رأيتُه في المنام! بنفس الملامح تماماً.

استعاد ذهني بسرعة صورَ ذلك الحُلُم. إسراع الكلب نحوي، ونباحه الشديد المتواصل، ثم توقّفه دون أن يؤذيني. فجأة غمرت نفسي طمأنينة عجيبة، وارتياح كاملٌ. وأيقنتُ أنّ الرجل لن يصيبني بأذى، وهكذا كان. طالت هذه الجلسة ساعات التحق خلالها بهذين الاثنين آخرون من زملائهما فبلغوا تسعة، وأحاطوني من جميع الجهات،

ولكن لم يصلني منهم أذى.

عرفتُ بعد ذلك صاحب ذلك الوجه واسمه «كمالي». وله بعد الثورة قصة طريفة تدلّ على حظّه العاثر. فقد فرّ وتوارى عن الأنظار، ثم بعد أشهر عدة راجع بنفسه المسؤولين في سجن «إيفين»[135] وطلب مرتباته المتأخّرة التي لم تصرف له خلال الأشهر الماضية، وسمّى نفسه. رحبوا به واستدعوه إلى الداخل ثم حقّقوا معه، وحاكموه محاكمة علنيّة عرضت على شاشة التلفاز. وطلبت المحكمة مني شهادة بشأنه، ولكنّي لم أفعل لأنّه لم يؤذِني. وذهب آخرون وشهدوا على جرائمه، وأعدم.

وهذه الجلسة من التحقيق تلتها طبعاً جلسات تحقيق أخرى مشابهة. تعرّضت فيها للضرب باليد ولألوان التعذيب النفسي ولحلق اللحية. ومن عادة المحققين أن الجلسة إذا طالت ووجدوا من السجين صلابة يعمدون إلى السعي لهزيمته نفسيًّا. فيجتمع في غرفة التحقيق خمسة أو ستة أشخاص أو أكثر، ويحيطونه ويحتوشونه بالإهانات والسباب اللاذع. المحقق الأصلي واحد طبعاً والباقون يدخلون بالتدريج متظاهرين بأنّ دخولهم طبيعي غير مقصود. ويجمعهم دائماً طلب الشاي من فضيلة الدكتور.

احتوشني هؤلاء مرات، وكنتُ لا أتردد في الإجابة عن كل أسئلتهم. وأهتم في الإجابات أن تكون خالية من كل ما يشكّل مستمسك إدانة ضدّي. في واحدة من هذه الجلسات سألني محقق اسمه «كوچصْفَهاني» بتهكّم وغرور وبلهجة موهنة: سيدّ.. تعرف السيد سعيدي؟

- قلت: نعم، إنه كان صديقي.

وهذه مسألة لا تخفى على رجال الأمن، فكلانا من خراسان.

- ثم قال: هل تعرف أنّه مات في السجن؟

- قلت: نعم.

- قال: هل تعرف أنّ التحقيق جرى معه في هذه الغرفة؟

وكان كاذباً في ما تضمّنه هذا السؤال.. سكت ثم واصل كلامه:

- قلت لسعيدي: أفرغ ما عندك من معلومات. أجابني: لا بدّ أن أتفاءل بالقرآن حتى أرى أخير في ذلك أم لا. قلت له: هذا تطيّرٌ لا تفاؤل.. ولم يسمع كلامي وأصابه ما أصابه.

وهنا سكت كوچصفهاني قليلاً ثم قام من مكانه واقترب منّي، وأخذ قلماً من نهايته وجعل يضرب بنهايته الأخرى على رأسي كما يفعل بعض المعلمين المتغطرسين المتعالين مع تلاميذهم ثم قال:

- سيد هذا تطيّر.. هذا تطيّر..

ضحكتُ في نفسي لحماقته واختلاقه الكذب والمشاهد المصطنعة لتهديدي، ولم يكن لكلامه أيّ وقع ولا أدنى تأثير في نفسي.

أعود إلى حديث الرؤى الصادقة في السجن، وأتذكر الآن اثنتين منها، إحداهما رأيتها بنفسي والأخرى رآها من رافقني في السجن.

* رؤيانا

الرؤيا التي رأيتها بنفسي هي أنني رأيتني في أحد مساجد مشهد. وهو مسجد أعرفه، وما يزال موجوداً الآن، ويقع في وسط السوق وإمامُ ذلك المسجد السيد علم الهدى من تلاميذ السيد الميلاني المقربين ومن خواصّ حاشيته وقد عيّنه السيد الميلاني إماماً لهذا المسجد. ورأيتُ على طرفي باب المسجد رجلين كأنهما ملكان، ويبلغان من

طول القامة بحيث أرى رجليهما ولا أرى أعاليهما. ثم رأيت أنَّ فراش المسجد قد جُمع تمهيداً لتعميره، ورأيتُ أنّ بعض أحجار إزار الجدران قد تساقط وانتشر التراب والأحجار على أرض المسجد.

عندما استيقظت قلتُ لصاحبي وأنا أستذكر ما رأيته في منامي: إما أن يكون السيد علم الهدى قد توفي أو السيد الميلاني.

في اليوم نفسه أو اليوم التالي استُدعِيت للتحقيق. ذهبوا بي إلى حجرة أخرى غير حجرة التحقيق المعتادة. رأيت رئيس المحققين واسمه «كاوه» في انتظاري، حقق معي. وكان مما قاله لي في هذا التحقيق: لا بدّ من أنك عرفت أن السيد الميلاني قد مات؟

- قلت: ومن أين لي أن أعرف؟

- قال: نعم، إنّه مات.

كان ذلك في أوائل سنة 1295هـ.ق/1975م.

أما رؤيا صاحبي (وكان من علماء الدين ومن آخر من رافقني في هذا السجن، وفيه شيء من الركون إلى السلطة الظالمة، ولكن مع ذلك سُجن وضرب ولعله أُرسل إلى زنزانتي للحصول عن طريقه على معلومات، غير أنه أطلق سراحي وبقي هو في السجن) فأرويها عن لسانه، قال:

رأيتُ أنّي ذهبت بصحبتك إلى حرم السيد عبد العظيم الحسني[136] في مدينة «ري»[137]. قلتَ لي وأنت تنظر إلى المئذنة المرتفعة في الحرم: أنا أريدُ أن أذهب إلى قمة هذه المئذنة. قلتُ لك: ذلك غير ممكن. قلتَ لي: بل ممكن. وفجأة رأيتُ أنّك علوتَ عن الأرض وارتفعتَ إلى قمة المئذنة. وعندما وصلتَ إلى قمتها ناديتني من بعيد وأنت تلوّح بيديك مودّعاً: أرأيت أني أستطيع أن أفعل ذلك؟!

بقيتُ واجماً أنظر إليك بدهشة واستغراب، فإذا أنت ترتفع من أعلى قمة المئذنة وكأنّك تطير. ثم ودعتني بيدك وارتفعت إلى السماء.

بعد أن قصّ عليَّ رؤياه قلت: لا بدّ من أنها الشهادة. ولم تكن كذلك، فقد كانت إطلاق سراح؛ إذ لم تمض إلّا أيام قلائل حتى أُطلِق سراحي.

* ستكونُ يوسفَ

بمناسبة حديثي عن الرؤى الصادقة فإنّ ذهني يحتفظ برؤى عجيبة أذكر إحداها، كانت على ما أظنّ سنة 1346 أو 1347 هـ. ش/1387 أو 1388هـ. ق/1967 أو 1968م.

كان الوضع السياسيّ في مشهد آنذاك في ذروة الشدّة، والمحنةُ قد بلغت بالإسلاميّين مبلغاً عظيماً، فلم يبقَ معي في الساحة إلّا أشخاص قليلون من الأصحاب، والباقون آثروا ترك ساحة الجهاد.

في تلك الظروف رأيتُ في ما يرى النائم أنّ السيد الإمام الخميني توفي ونعشه سُجّيَ في بيت من بيوت مشهد يقع قرب بيت والدي. اجتمع أناس كثيرون للتشييع وأنا بينهم يعتصرني الألم ويطغى عليّ الحزن. أخرجنا التابوت من البيت ورفعناه على الأكتاف، ثم راح المشيّعون وهم جمع غفير يسيرون خلف الجنازة، وفيهم عدد كبير من علماء الدين وأنا أسير معهم. كانت الجنازة تسير أمامنا -كما هو المعتاد- ويمشي خلفها المشيّعون وأكثرهم العلماء، وأنا أمشي معهم وأبكي بكاء عالياً، وأضرب بيديَّ على رجليّ من شدة التألم. ومما كان يزيد من ألمي وحزني أني أرى بعض العلماء (ولا أزال أتذكر وجوههم) يتكلمون ويضحكون، دون أن يتذكروا أو يعتبروا، ودون أن يبدو عليهم

شعور بالألم. وما كان لي إلّا أن أصبر والألم يحزّ في نفسي.

وصلت الجنازة إلى نهاية المدينة فعاد أكثر المشيّعين، وواصلت الجنازة طريقها خارج المدينة، وواصل السير معها عدد يتراوح بين 20-30 مشيعاً وأنا معهم. ثم وصلت الجنازة إلى هضبةٍ. بقي أكثر المشيّعين في أسفلها، وواصلت الجنازة طريقها إلى قمة الهضبة ومعها 4-5 مشيعين وأنا منهم، أسير خلف الجنازة حتى وصلنا القمة.

قمم الهضاب تبدو عادة من الأسفل صغيرة حتى إذا اعتلاها الإنسان وجدها منبسطة كبيرة، لكن تلك القمة التي ارتفعنا إليها كانت -كما ترى من الأسفل- صغيرة تشبه سريراً. فوضعنا عليها التابوت.

ذهبتُ إلى طرف الرِّجل لأودّع السيّد الإمام وأنا أرى وجهَه. فلما وقفت عند جانب الرِّجل أنظر إلى وجهه المسجّى في التابوت، وإذا يدُه اليمنى تتحرك إلى الأعلى، وقد مدَّ سبّابته، تملّكتني دهشة عظيمة، ثم رأيت أن السيد شرع ليستوي قاعداً وعيناه مغلقتان، حتى وصلت سبابته إلى جبيني، فمسته أو قربت من مسه وأنا أنظر متعجِّباً مندهشاً ثم فتح شفتيه وقال مرتين بالفارسية:

«تو يوسف ميشى.. تو يوسف ميشى»

(أي: ستصير يوسف.. ستصير يوسف).

استيقظتُ من المنام، وكل تفاصيل الرؤيا في ذهني، كما هي في ذهني حتى الآن. قصصت رؤياي على كثير من الأهل والأصدقاء منهم أمّي التى سارعت -رحمها الله- إلى تفسير الحُلُم بالقول:

- نعم، تصير يوسف، بمعنى أنّك دائماً في السجون.

وممن نقلت له هذه الرؤيا وتفسير الوالدة الشيخ جواد الحافظي،

ونحن في الزنزانة سنة 1390هـ.ق/1970م في مشهد.

بعد أن انتُخِبت رئيساً للجمهورية جاءني الشيخ الحافظي وقال:

- كنت يوم انتخابات رئاسة الجمهورية في مكة؛ لأَنَّ الانتخابات اقترنت بموسم الحج. وحين اتّجهت إلى صندوق الاقتراع في بعثةِ الحجّ الإيرانية أجهشت في البكاء وأنا أتذكر الرؤيا وتفسير والدتكَ لها؛ إذ علمت أنّ الأمر لم يكن السجن وحده.

* عزّة الإسلام

أعود إلى السجن وأذكر أنّ الجوّ فيه كان مُفعماً بألوان الإرهاب الجسدي والنفسي. كان مسؤولو السجن في غاية القسوة والفظاظة والبطش والتنكيل بالسجناء الإسلاميين، ومع ذلك كانت ثمة ظاهرة عجيبة تلمّستها في هذا السجن وهي عزة الإسلام رغم ما كان يعاني أتباعه من استضعاف ويتمتع به أعداؤه من قوّة. لقد بلغت المحنة في سنوات اعتقالي الأخير هذا ذروتَها حتى ما عاد أحد يحتمل ظهورَ الإسلام في الساحة الاجتماعية. كنا نتصبّر بقراءة البشائر القرآنية، ونكرر في الصلاة قراءة سورة «الكوثر» ونلقّن أنفسنا أن الكوثر لا بدّ من أن ينتهي بقيام الدولة الإسلامية. كل الحسابات المادية كانت تنبئ باستحالة العودة الإسلامية.

في خضم هذه المحنة دُعيت يوماً إلى غرفة التحقيق في هذا السجن. لم يأخذوني إلى الغرفة المعهودة؛ بل إلى غرفة أخرى. جلست أنتظر المحقق وإذا برئيس المحققين «كاوه» -الذي فرّ بعد الثورة- يدخل والابتسامة ترتسم على وجهه، وأخذ يتحدّث معي ببشاشة، ويسأل عن

حالي ويتلطّف بي. استغربت، فهذا الرجل كان قد ضربني بنفسه، وها هو الآن بهذا اللين. راح يتحدث عن بساطة اتهامي، وسهولة القضية. في هذه الأثناء دخل المحقق في قضيتي واسمه «مشيري»، وجلس قريباً مني ومن كاوه (وكان شابًّا ومع ذلك يترأس جمعاً من المحققين منهم المحقّق في ملفّي) خلف المنضدة، واسترسل كاوه في الحديث وقال مشيراً إلى محقق الملف: إنّه يستطيع أن يساعدك.

كان واضحاً أنّ كاوه يريد بحديثه هذا أن يبشّرني بقرب الإفراج، وأن يلقي عن كاهله مسؤولية ما نزل بي حتى الآن، ويوجّه تبعة ذلك على هذا المحقق الصغير.

لم يفوّت مشيري فرصة الردّ على كاوه فقال بلغة لبقة:

- نعم، نسأل الله أن يكون أمر ملفّك سهلاً، ولكن اعلم أن الأمر موكول لرئيسنا (وأشار إلى كاوه) وهو -وإن كان شابًّا أصغر مني سنّاً- له مستقبل كبير وضّاء.

عرفت أنهم يريدون إطلاق سراحي، ولكن لماذا هذا التملّق؟! لماذا هذا الجدل بين المحقق ورئيسه أمامي؟! لماذا يريد كلّ منهما أن يبرّئ نفسه؟! هذان يملكان الآن قتلي بكل سهولة. فأنا أعزل لا حول لي ولاقوّة.

ومن قبل هذين الاثنين قابلني المحقق «كوچصفهاني» وراح يتحدث عن تدينه، ومما قاله:

- أنا منذ طفولتي كنت ملازماً لمنبر الواعظ حسام (وكان الشيخ حسام من مشاهير وعّاظ مدينة «رشت» من محافظة گيلان[138]).

يا إلهي، يريد أن يتظاهر بالتديّن.. لماذا؟

لم يكن وراء كلّ ذلك شيء سوى عزّة الإسلام. فالإنسان المسلم

كبير في نظر هؤلاء مهما بلغوا من القوة والبطش، ويشعرون أمامه بالصِّغَر والضعف.

* أنت مطلق السراح

في يوم من الأيام كنت في الزنزانة مع صاحبين: أحدهما عالم الدين الذي ذكرته، والآخر من المجاهدين المخلصين الذي أشرت إليه سابقاً وذكرت أنه سبط الشيخ محمد علي الشاه آبادي.

جاء المأمور على عادته وقال:

- من علي؟

- أنا علي.

- علي ماذا.

- علي خامنئي.

- غطّ رأسك واتبعني.

أخذني إلى حجرة كاوه. وما إن رآني حتى قال لي:

- أنت مطلق السراح.

تعجّبت كثيراً. خرجت من غرفته وأنا لا أصدّق ما سمعت من رئيس المحققين. لأول مرة أرى ممرّ السجن لعدم وجود قناع على وجهي، فقد سُمح لي هذه المرّة أن أخرج من غرفة المحقق دون قناع.

كل من سمع بعد ذلك بإطلاق سراحي تملّكته الدهشة، وكان سؤاله الأول: لماذا أطلقوا سراحَك؟!

وكنتُ أجيب على الفور: اعترضوا على مسؤولي السجن.

ذهبتُ أولاً إلى الزنزانة فوجدتُ أحد الصاحبين، وكان الآخر قد

خرج لبعض شأنه. فرح بإطلاق سراحي، وودّعته، ثم أُخِذتُ إلى غرفة الملابس، وهي الغرفة التي بقيت فيها ملابسنا بعد أن خلعناها عند دخولنا السجن. الوقت كان يميل إلى المغرب، والطقس كان ما يزال حارًّا لأن إطلاق سراحي اقترن بأواخر الصيف، بينما ملابسي كانت شتوية لأني اعتُقلت في الشتاء.

لبست القباء والجبّة والعباءة والعمامة، وخرجت من بوابة السجن، فكان كل شيء جديداً، وكل ما أراه مثيراً، الناس والحركة بدون حارس، والمصابيح التي أخذت تؤلم عينيّ بعد أن ألِفت الظلام الطويل.

طالما رأيت مشهد إطلاق سراحي في المنام وأنا في السجن، وهكذا شأن بقية السجناء يرون ما يحنّون إليه في منامهم، فهل هذا حُلُم أيضاً؟!

توجّهت إلى منطقة «توبخانة» القريبة من السجن، وكان معي شيء بسيط من النقود. شعرت بالجوع، فاشتريت شيئاً من الطعام وأكلته دون التفكير في ما يجب أن يلتزم به مثلي من عدم الأكل على قارعة الطريق.

اتّصلت ببيت الدكتور بهشتي. ما كاد يصدق... هذا أنت؟ خرجت؟ كيف أطلق سراحك؟ ثم قال: أنتظرك بشوق.

ذهبت إلى بيت السيد بهشتي، وكان هناك أيضاً الأخ «شفيق» الذي كان ينوي مغادرة بيت بهشتي حينما اتصلت، فبقي كي يراني.

أول ما لفت نظرهما من شمائلي لحيتي المحلوقة. تعجّبا، قلت: حلقوها، وستعود كأولها. بقيتُ ساعة، وأخذت مبلغاً من المال، وذهبت إلى بيت أخي الأكبر، وكان يسكن طهران. وهناك اتصلت بمشهد، ثم سافرت إليها.

الأهل قصّوا عليّ بعد ذلك الأعاجيب مما عانوه من ألم ولوعة

ويأس خلال مدة سجني. ذكرت لي زوجتي أن والدتها كانت تأخذ ابني مجتبى وكان آنذاك طفلاً فيه كثير من مظاهر البراءة والوداعة والاتّزان والحبّ والحنان والالتزام ببعض العبادات، كانت تأخذه إلى حرم ثامن أئمة أهل البيت الرضا عليه السلام، وتقول له: توسّل بالإمام الرضا إلى الله سبحانه أن يطلق سراح والدك. والطفل يتجه ببراءة إلى الإمام عليه السلام ويتوسّل به. وذات ليلة ذهب مجتبى مع جدته وتكرر المشهد، ولكن هذه المرّة بدت على مجتبى علامات تأثر كبير، فبكى وانتحب وخاطب الإمام الرضا عليه السلام بلهجة تدلّ على نفاد صبر الطفل وشدة لوعته، وكان يتحدث مع الإمام كأنّه ماثل أمامه ويذرف الدمع بغزارة، حتى أن جدّة الطفل ندمت على ما فعلته وعزمت أن لا تعيد الطلب على مجتبى.

وبعدها بيومين، رنّ جرس الهاتف في البيت ليسمعوا صوتي أتصل بهم من بيت أخي في طهران وأنا مطلق السراح.

سيل المنفى

* وفاة السيد مصطفى الخميني

في سنة 1397هـ.ق/1977م ساد البلاد توتّر عام. في هذا العام توفّي السيد مصطفى الخميني نجل الإمام الخميني في النجف في ظروف غامضة، فأثارت وفاته حالة من ألمٍ عميق بين الناس تحول إلى مجالس سخط واعتراض على السلطة.

بعد وصول نبإ وفاة السيد مصطفى رضوان الله تعالى عليه خططنا في مشهد لاتخاذ الموقف اللازم. ذهبت إلى دائرة البريد والبرق فكتبت أربع برقيات واحدة باسمي والأخرى باسم الشيخ الطبسي وثالثة باسم الشيخ المحامي والرابعة باسم السيد هاشمي نژاد[139].

حين سلمت البرقيات إلى موظف البريد استغرب وراح يريها أصدقاءه، فساد الموظفين جوّ من الدهشة، فقد كانت نصوص برقيات التعزية تضم عبارات تحدٍّ للسلطة لما فيها من إجلال لشخص السيد الإمام، ومواساة عميقة لما يحمله من هموم. وظنّ موظف البريد أني سأتراجع حين يحسب لي تكلفة المخابرة؛ لكنّه فوجئ بتسليمه عملة من فئة 1000 تومان، وكانت باهظة على أمثالي آنذاك.

ثم حاولنا إقامة مجلس فاتحة في أحد المساجد، فمنعته السلطات وأغلقت المسجد. وفي قم أقام المؤمنون مجلس فاتحة؛ ولكنه انتهى باعتقال عدد منهم. كانت تلك الأيام حافلة بنشاط إسلامي منقطع النظير عمّ كل المدن الإيرانية وكنت وأمثالي منهمكين في العمل السياسي والتنظيمي بين طلاب الحوزة العلمية والجامعات، وفي تدوين نشرات الفكر السياسي، وفي الاتصالات السرية، وكذلك في عقد مجالس تفسير القرآن الكريم، وتوضيح المفاهيم الحركية الإسلامية وغيرها كثير كثير.

في تلك الأيام اتصل بي الشيخ الخلخالي[140] من قم وقال لي: لقد ألقي القبض على جمع من المؤمنين ولا بدّ أن يحين دوري ودورك. قلت: لماذا؟ ما السبب؟ ماذا فعلت حتى يلقى القبض عليّ؟!

* عقاب.. عقاب.. أخذناه!

وفي ساعة متأخرة من إحدى ليالي شتاء ذلك العام كنت نائماً وإذ دُقَّ الباب. استيقظت من النوم، وعلى عادتي ذهبت بنفسي لفتح الباب دون السؤال عن الطارق. كانت قد بقيت ساعة حتى الفجر وأفراد العائلة نائمون في الفناء الداخلي. فتحت الباب فإذا بشباب يحملون بأيديهم رشاشات ومسدسات، خطر في ذهني فجأة أنهم يساريّون يريدون تصفيتي؛ إذ أخبرني السيد بهشتي يومذاك أن اليساريين يقودون حملة تصفيات للإسلاميين، وطلب مني أن أكون على حذر. فقد اقتحموا بيت «السيد الموسوي القهدريجاني» في كرمانشاه ليلاً، وأوثقوه وهمّوا بقتله لولا أن فرّ في حادثة عفوية ونجا من الموت. والمسألة لا تزال غامضة لم تتصدَّ لكشفها.

وما إن خطر في بالي ذلك حتى أسرعت لغلق الباب. حاولوا أن يحولوا دون إغلاق الباب ولكن خوف الموت قوّاني فغلبتُهم وأغلقت الباب. ثم خطر في ذهني أن هؤلاء قد يتسوّرون الجدار أو يدخلون من منفذ آخر، وإذا بهم يضربون على الزجاج السميك الموجود في باب البيت بأسلحتهم، فهشّموه وبينا أنا أفكر في طريق للخلاص إذ صاح أحدهم: افتح الباب باسم القانون، عرفت من كلامهم أنهم من رجال السافاك. حمدتُ الله أنهم ليسوا من اليساريّين كما ظننت. اتجهت إلى الباب ففتحته، فهجم ستة أشخاص وشرعوا بضربي بعنف وقسوة بين باب البيت وباب الفناء الداخلي. عندها استيقظ مصطفى وهو آنذاك ابن 12 عاماً وأخذ ينظر بذعر إلى مشهد ضرب والده من خلف الزجاج الرقيق الذي كان بيني وبين مكانهم ويصرخ. واصلوا ضربهم بالأيدي والأرجل دون رحمة وتعمّدوا ضربي برؤوس أحذيتهم على ساقي. ثم وضعوا القيد في يدي، وأمروني أن أتقدمهم إلى داخل البيت. قلت لهم: ليس من المروءة أن يراني أهلي مقيّداً، فكوا القيد. فكوه، ودخلت البيت فوجدت زوجتي واجمة وحولها أبناؤها الأربعة بين نائم ومستيقظ، وأصغرهم ميثم وكان ابن شهرين. قلت لهم: لا تخافوا، ضيوف.

راح رجال السافاك يبحثون في البيت حتى المطبخ ودار الخلاء. بادرت زوجتي مبادرة رائعة. دخلت غرفتي التي أستقبل فيها الناس، وكان لها بابان: باب يفتح على مكتبتي، والآخر على الفناء الداخلي للبيت. فجمعت ما كان فيها من بيانات سرية، ولا أدري كيف عرفت بوجودها في الغرفة. ولا أدري كيف استطاعت أن تدخل دون أن يعلم رجال الأمن بدخولها. حتى أنا لم ألتفت إلى مبادرتها حتى أخبرتني هي

بعد ذلك. جَمَعَتْ هذه البيانات ووضعتها تحت السجادة، ولم يعثر عليها رجال السافاك. دخلوا غرفة المكتبة وفتّشوها وأخذوا شيئاً كثيراً من كتبي وكتاباتي وأوراقي وما تزال مفقودة.

بقوا ساعة أو أكثر يفتّشون كلّ زوايا البيت وخباياه، حتى دخل وقت صلاة الصبح. قلت: أريد أن أصلي. رافقني أحدهم إلى مكان الوضوء. توضأت وعدت إلى المكتبة حيث صليت. ثم صلّى أحدهم ولم يصلّ الباقون؛ بل واصلوا تفتيش البيت، ولم يتركوا شبراً فيه إلّا ونقّبوه. وأظن أني طلبت من أم مصطفى شيئاً من الطعام، ثم طلبت منها أن توقظ مجتبى ومسعوداً، اللذين استولى عليهما النوم ثانية بعد استيقاظهما، لأودّعهما. وقيل للأولاد عند توديعهم: أبوكم عازم على سفر. قلت: لا داعي للكذب، وأخبرتُ الأولاد بالواقع.

حينما خرجت من البيت وجدتُه محاصَراً من قبل أفراد آخرين. جاؤوا بسيارة إلى داخل الزقاق الضيق الذي يقع فيه بيتي. وكانت سيارة «جيب» عادية، وبدون أن يشدّوا عيني أجلسوني في السيارة. وكان أحدهم يردد خلف اللاسلكي: عُقاب.. عُقاب.. عقاب.. أخذناه.. أخذناه.

كان ذلك قبل انتصار الثورة بعام واحد فقط.

* النفي وليس السجن

أخذوني إلى مركز السافاك في مشهد وأنزلوني إلى سردابه. وكان فيه ممرات ضيقة، وعلى جانبيها زنزانات. بقيت هناك ساعات، تفاءلت خلالها بمصحف كان معي، فطالعتني آية فيها بشرى، سارعت إلى تدوينها خلف المصحف. جاؤوني بطعام. بعد تناول الطعام

أجلسوني في سيارة انطلقت خارج المدينة، لم أدرِ ماذا يريدون أن يفعلوا، فالأمر يختلف عن المرات السابقة. السيارة عادية، وبدون شدّ العيون.. والتوجه إلى خارج المدينة.

توقفت السيارة عند مركز شرطة الدرك. فعلمت أنهم يريدون نفيي لا سجني. بقيت في مركز الدرك خمسة أيام جاء خلالها الأهل والأصدقاء لزيارتي أكثر من مرّة. كان في مركز الدرك سجن عسكريٌّ؛ ولكن لم يدخلوني السجن؛ بل وضعوني في حجرة ضابط المخفر. كان رئيس المخفر رجلاً برتبة عقيد يتمتّع بشيء كثير من الشخصية والنجابة، فلم يكن يتعامل معي تعامل سجّان مع سجين. كان لي نوع من الحريّة، أخرج من الغرفة في الصباح الباكر وأمارس الرياضة في الهواء الطلق.

* سيدنا استخر لي!

أُخبرتُ أنّ منفاي مدينة «إيرانشهر»[141]. استبشرتُ بالخبر لعلمي بأن صديقي الشيخ محمد جواد حجّتي كرماني منفيٌّ إلى هذه المدينة. وفي يوم الرحيل جاء الأهل والأصدقاء لتوديعي، ولم تكن لحظات الوداع مزعجة، فأنا مقبل على نفي هو أخفّ بكثير مما مرّ عليّ من سجون. ركبنا في محطة الباصّات باصاً متّجهاً إلى زاهدان لنذهب منها إلى إيرانشهر. رافقني في هذه الرحلة ثلاثة أحدهم برتبة ضابط والآخران من الرتباء. وتوقّفت السيارة في مدينة «گناباد» للصلاة وتناول الطعام. وبالمناسبة فإنّ أهل گناباد كانوا يعرفونني لزيارتي هذه المدينة أكثر من مرّة؛ إذ ينتمي إليها عدد من طلابي منهم الشيخ فرزانه، والشهيد كامياب وصادقي الگنابادي وغيرهم، وارتباطي بطلابي عادة أكثر من

ارتباط أي أستاذ بتلامذته، فكانت بيني وبين هؤلاء الطلبة علاقات عاطفية عميقة، ولذلك شاركت في حفلات زواجهم في هذه المدينة وتعرّفت بذلك إلى أهاليها وعرفوني. حين ترجلنا من السيارة أقبل نحوي شابٌّ وقال: سيدنا استخر لي (والناس هنا عادة يستخيرون الله في أمورهم بواسطة علماء الدين)، وإذ كنت أهمّ أن أستخير له والمرافقون يراقبونني عن كثب، همس الشاب قائلاً: ما للاستخارة أتيت؛ بل أردت أن أعرف سبب مجيئِك إلى المدينة مخفوراً. قلت له: وهل تعرفني؟ قال: نعم، ثم ذكرت له مسيري وطلبت منه أن يخبر الإخوة بتوجهي نحو منفاي في إيرانشهر.

وصلنا زاهدان فجر اليوم التالي. ذهبنا إلى مسجد فصليت، ثم تناولنا طعام الفطور، وبقينا في المدينة ساعة أو أكثر، وبعدها ركبنا باصاً آخر واتّجهنا إلى إيرانشهر. أخذوني أوّلاً إلى مركز حاكم المدينة فقيل لهم: خذوه إلى مركز الشرطة. وفي مركز الشرطة فتحوا لي ملفّاً وأخذوا مني التزاماً بعدم ترك المدينة وبالحضور إلى المركز يوميّاً للتوقيع.

* الانقطاع إلى الله...

خرجت وحدي أطلب مسجداً. فدلّوني على مسجد «آل الرسول» وعرفت أنّه مسجد الشيعة الوحيد في المدينة، وهناك مساجد أخرى للإخوة أهل السنة. والمسجد الذي دخلتُه كان في غاية الروعة والجمال، مفروشاً بالسجاد الفاخر الثمين، وفي ساحته الأشجار الباسقة والمياه الجارية العذبة التي لا تقل عذوبة عن ماء طهران المشهور في إيران بعذوبته. شعرت بنوع من السرور والانشراح، فالجوّ دافئ لطيف

في المدينة يتناسب مع طبيعة جسمي التي لا تتحمل البرد القارس الشتوي. والمنظر بهيج. تخفّفت من بعض ملابسي، ووضعتها في زاوية، ثم توضأت، وتهيأت للصلاة، وشعرت بحالة من الانقطاع ما أزال أتحسّس حلاوتَها.. فأنا كنت في تلك الساعات منقطعاً عن الأهل والأولاد والأصدقاء ومتّجهاً بكل وجودي إليه سُبْحَانَهُ، وفي هذا الشعور لذة ما بعدها لذّة.

خرجتُ من المسجد حاملاً حقيبتي، فرأيت الناس ينظرون إليّ نظرتهم إلى منفيٍّ جديدٍ قدم إلى مدينتهم، فالمدينة معروفة بأنّها منفى السياسيين. ذهبت إلى الشارع الرئيسي للمدينة، وكان عندي عنوان أحد المؤمنين واسمه «رؤوفي» فدلوني على دكّانه، وجدته مغلقاً. تجوّلت ثم عدت فألفيته ما يزال مغلقاً. وقفت لحظات أنظر إلى المحل من خلف زجاج الواجهة، ثم تحولت عن الدكان فرأيت سيارة «فولكس واگن» تقف إلى جانبي وفيها شخصان. سألني أحدهما: من تريد؟ قلت: رؤوفي. قال: هل تعرف رؤوفي؟ قلت: لا، ولكن عرّفني عليه فلان. نزل من السيارة وقال: أنا رؤوفي وهذا أخي. فتعانقنا، وركبت السيارة، وكان وقت صلاة المغرب أوشك على الحلول فاتّجهنا إلى «الفاطمية»، وهو مكان للذكر والصلاة سمّي باسم الزهراء عليها السلام. صليتُ المغرب، شعرت بتعب شديد، قلت: أريد أن أستريح. خيّروني بين الاستراحة في ذلك المكان أو الذهاب إلى البيت، ففضّلت أن أضطجع في ذلك المكان. بعد ساعة استيقظت والنوم لا يزال يثقل جفوني، فرأيت وجوهاً غريبة لا أعرفها تجمّعت في الفاطمية بمناسبة شهر محرم. ثم رأيت بعدها الشيخ حجّتي كرماني، وذهبنا إلى بيت رؤوفي.

* زيارات بين الأصدقاء

بقيتُ في بيت رؤوفي 3 أو 4 أيام ثم عزمنا أنا والشيخ حجتي على الانتقال إلى منزلٍ آخر، رغم إصرار رؤوفي على أن نبقى في بيته. وجدنا البيت وكنّا نهمّ بالانتقال إليه إذ جاء وفد من زاهدان لزيارتنا مؤلَّف من 20 شخصاً وعلى رأسه الشيخ «معين الغرباء». وهو من العلماء المعروفين يومئذ في زاهدان. أخبرناهم بعزمنا على الانتقال، فاشتركوا معنا في تنظيف البيت وتجهيزه. بقينا في هذا البيت شهوراً ثم انتقلنا إلى بيت أفضل.

كان معين الغرباء هو ثاني من زارنا في المنفى، والأول كان «كريم پور». فقد جاءنا في منتصف الليل ونحن في بيت رؤوفي، فدُقَّ الباب، ولم يكن صاحب البيت موجوداً. انتابني شعور خاصٌّ حين سمعت دقّ الباب. وكان هذا الشعور الشبيه بالخوف يساورني كلما دُقّ باب البيت ليلاً، بشكل لا شعوري بعد المداهمة الليلية في مشهد. ذهب الشيخ حجتي وفتح الباب فإذا بشابٍّ وديع أنيق. عرفنا أنه من أقرباء رؤوفي وأنّه متعاطف لدرجة غريبة مع السجناء والمنفيّين. يتحلّى بهمة فائقة للعمل في سبيل الله، وطَرَحَ علينا خطة للعمل الإسلامي، وقد استشهد في الحرب المفروضة رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ.

أول من زارني من مشهد «الحاج علي شَمَقْدري»، وهو يمثل شريحة خاصة من تلامذتي، ويتميّز أفرادها بأنهم من «العامة» بالمعنى السائد، لكنّهم كانوا مزوّدين بثقافةٍ إسلامية رفيعة، وبمعلومات عن حقيقة الإسلام قد لا يعرفها المثقفون وأهل العلم. تشربت نفوسهم المفاهيم الإسلامية الحركية فأصبحوا يعيشون الإسلام بكل وجودهم.

والحاج علي هذا كان يتابع جميع مجالسي في مشهد بدقة واهتمام، ويكتب المفاهيم الإسلامية العميقة. زارني الرجل في اليوم الثاني من الانتقال إلى البيت الأول مع أولاده الصغار وإخوته. وبالمناسبة فقد استشهد ابنه وأخوه في سبيل الله والدفاع عن دين الله.

وممن زارنا في المنفى حين كنّا في البيت الثاني الشيخ صدُّوقي ومعه جمعٌ بينهم الشيخ راشد وكان ذلك قبيل النوروز[142] وفي أواخر شهر إسفند (الشهر الأخير من أشهر السنة الشمسية)، ثم غادروا إلى «چابهار»[143] حيث كان الشيخ ناصر مكارم الشيرازي[144] منفيًّا فيها، ثم عادوا وباتوا عندنا ليلة أخرى لانجذابهم إلينا أنا وحجتي. والشيخ راشد يزدي معروف بأنّه لطيف المعشر، حاضر النكتة، فَكِهٌ، لا تفارق الابتسامة شفتيه، والطريفةُ لسانه على ما يحمله من علم وأدب. أنست به وتعرّفت إليه لأول مرّة، وهو أيضاً أنس بي وأُعجب بي فكان يردّد لدى عودته إلى يزد: كم أودّ أن أُنفى إلى إيرانشهر لأبقى إلى جوار السيد خامنئي.

ومن الطريف جدًّا أنّ الإخوة غادرونا، ولكن بعد أسبوعين تقريباً جاءني ضابط شرطة وبيده ورقة سلّمني إياها، فرأيت سطوراً بتوقيع الشيخ راشد يخبرني فيها أنه في مخفر الشرطة. أسرعت إلى المخفر فوجدتُ الشيخ جالساً ويحيط به ثمانية ضباط، ينكّت لهم وهم غارقون في الضحك. سألتُه عمّا جاء به، فعلمت أنه صعد المنبر في يزد يوم 10 فروردين/20 ربيع الثاني 1398هـ.ق/30 مارس/آذار 1978م، المصادف لأربعين شهداء تبريز في مجلس فاتحة عقد بهذه المناسبة، وقال ما قال، فاعتقلوه ووضعوه في سيارة إسعاف واتّجهوا به مباشرة

إلى إيرانشهر. ذهبت به إلى منزلي وكان بيننا تعاون في ما قمنا به بعد ذلك من نشاط في هذه المدينة.

وأذكر هنا أنّ الشيخ حجتي قد غُيّر منفاه في أوائل أيام النوروز (قبل مجيء الشيخ راشد) ونقل من إيرانشهر إلى سنندج[145]، حيث الجوّ اللطيف البارد. وكان وهو في سنندج يبعث إليّ برسائل يقول فيها: حرامٌ عليّ هذا الجوّ اللطيف وأنتم تسكنون في حرّ إيرانشهر.

وفي شهر فروردين وهو أول أشهر الربيع ارتفعت حرارة الجوّ في هذه المدينة، والعائلة جاءت لزيارتي خلال تلك الأيام، وكان ميثم ابن 6 أشهر. وما كان بإمكان الأسرة أن تبقى معي في إيرانشهر، فحرارة الجوّ ترتفع منذ أوائل الصيف ارتفاعاً شديداً لتبلغ ثلاثاً وخمسين درجة مئوية، والبيت لا تتوفر فيه وسائل التبريد، ولا وسائل الراحة، وفي الأسرة أطفال صغار. ولذلك عادوا إلى مشهد بعد أن أمضوا في المدينة أسبوعين.

* التعارف والتعامل مع أهل السنة

في البداية لم يكن لنا تعامل مع أهل المدينة. كنّا نجلس مع رؤوفي وأخيه وعدد قليلٍ آخر من الأفراد ونعقد جلسة مصغرة ونطالع ونتحاور. وبين مدة وأخرى، يزورنا أشخاصٌ من زاهدان وقم ومشهد. ثم بدأت بالاتصال الفردي بالأشخاص وخاصة الشباب.

أوّل من تعرّفت إليه من شباب إيرانشهر شاب اسمه «آتش دست». والده من صغار الكسبة في المدينة. كان آنذاك طالباً في الثانوية لا يزيد عمره على 16 سنة، وعن طريقه تعرفت إلى أمثاله من الشباب. وعقدنا معهم جلسة تواصلت حتى خروجي من إيرانشهر. وأذكر

استطراداً أنّ «آتش دست» واصل دراسته ودخل الجامعة، وجاءني مرة بعد انتصار الثورة الإسلامية مع عائلته وخطيبته، وأجريت خطبة عقد زواجه، ثم بعد ذلك اشترك في جبهات القتال واستشهد ﵀، وما يزال والده يتردّد عليّ.

حاولت أن أوسع دائرة عملي إلى خارج المدينة؛ إذ لم يكن يسمح لي بذلك في داخلها. جاءت مبادرة من أهالي «بزمان»، وهي تبعد 100 كيلومتر عن إيرانشهر. ذهبنا إليها في سيارة أحد الأصدقاء مع الشيخ حجتي ثم تواصلت زيارتنا للمدينة أسبوعيًّا أو مرة كلّ أسبوعين. كنت أقيم الجماعة هناك وألقي خطاباً قصيراً، ثم تحسست السلطات المحلية، فضغطت على سائق السيارة، ولم يخبرنا صاحب السيارة بذلك؛ ولكن عرفنا أنّه في موقف حرج فانقطعنا عن «بزمان». ومن أول اهتماماتي في إيرانشهر إحياء «مسجد آل الرسول». فالمسجد كان معطّلاً، ومشكلته أنّ مَنْ بناه لم يكن يسكن في إيرانشهر؛ بل كان يأتي العشرة الأولى من محرّم كلّ سنة فيقيم مجلس ذكر الحسين﵇ ثم يرحل ويبقى المسجد دون استفادة تذكر منه.

التقسيم الطائفي في إيرانشهر اقتضى -مع الأسف- انفصال مساجد السنة عن مساجد الشيعة. وكان للسنّة مساجد صغيرة لكل منها نفر من المصلين، وللشيعة مسجد واحد (مسجد آل الرسول) وهو معطّل طوال السنة! اقترحت إحياء المسجد فأيّدني كثيرون، وبدأت بإقامة الجماعة فيه بالتعاون مع الشيخ راشد. وبعد الصلاة كنتُ أتحدث إلى الناس مدة 10-15 دقيقة أضمّن حديثي ما قلّ ودلّ. كانت الصلاة والخطبة القصيرة تبثّان من مكبرة الصوت، وكان لذلك دورٌ هامٌّ في

إحياء الروح الدينيّة عند الأهالي وخاصة الشيعة كما كان له أثر إيجابي لدى المؤمنين من أهل السنّة لما كانوا يرون من التزام بالصلاة والقراءة الفصيحة فيها، وتنوع السور القرآنية لدى القراءة.

ثمّ اقترحت على المؤمنين أن نقيم الجمعة، فأقمناها، وكان الحضور فيها جيّداً بحيث كانت أكبر جمعة في إيرانشهر. وكان الشيخ راشد لشدة اهتمامه بهذه الصلاة يتصدّى بنفسه لرفع الأذان.

توطّدت لنا بالتدريج علاقات طيّبة مع علماء السنّة، ورحت أفكر في خطة عمليّة لإزالة الحواجز النفسية بين أهل السنّة والشيعة في المدينة من خلال تعاون ديني مشترك. فتحت الحوار مع أحد علماء السنّة في إيرانشهر واسمه «المولوي قمر الدين»، وكان إمام «مسجد النور»، وقلت له: إنّ المسؤولية الإسلامية تفرض علينا أن ننظر إلى مستقبل الإسلام وما يتهدّده من أخطار، وما يقف أمامه من عقبات. والمسلمون جميعاً في هذه النظرة المستقبليّة يتحملون مسؤولياتٍ جساماً بغض النظر عن انتمائهم المذهبي. أما إذا عكفنا على نبش الماضي والبحث في كتب الأقدمين عن مواضع الخلاف فلا يؤدّي ذلك إلّا إلى اشتداد الضغائن وهياج العواطف، ولا مصلحة في ذلك للإسلام والمسلمين. قلت له أيضاً: هذا لا يعني أن نقطع صلتنا بالماضي، فوجودنا الفكري والعقائدي مرتبط بهذا الماضي، ولكن تعاوننا ينبغي أن يكون على أساس المستقبل والنظرة المستقبلية. وهذا في الواقع كان محور حديثي مع كل الإخوة الذين التقيتهم من علماء السنّة، ووجدت عند المخلصين منهم استجابة حسنة لهذه الفكرة.

* مولد النبي ﷺ يوحّدنا

وفي إطار هذا التصوّر وضعتُ خطة عملية متواضعة وهي إقامة مهرجان مشترك بين أهل السنّة والشيعة خلال الأيام من 12 ربيع الأول وهو تاريخ مولد الرسول ﷺ برواية أهل السنّة، إلى 17 منه وهو تاريخ المولد الشريف برواية الشيعة، واتفقنا على ذلك[146].

أعددنا مسجد آل الرسول لإقامة المهرجان، وكان ذلك أيام صيف قائظٍ. وبالمناسبة، تبلغ درجة الحرارة في إيرانشهر 63 درجة مئوية في الشمس، و54 درجة مئوية في الظلّ. وكان من أصعب الأمور علينا أن نذهب في الظهر إلى المرافق، فقد كانت في مؤخّرة ساحة البيت، وعلينا أن نجتاز 20 متراً للوصول إليها. فحرارة الشمس لا تُطاق تشوي الوجوه وتحرِق البشرة، ويبقى الطقس ملتهباً طوال اليوم، وفي الساعة العاشرة ليلاً يحسّ الإنسان بخيط رفيع من نسيم لطيف، ثم تزداد الخيوط وتجتمع ويصير الطقس لطيفاً منعشاً، غير أن الأرض تبقى ملتهبة لا يمكن الجلوس عليها بارتياحٍ مهما وضِع عليها من بساط.

أمّا في عصر يوم المهرجان فكان الطقس مختلفاً تماماً. تصاعدت سحب في السماء فحجبت لهيب الشمس، ثم هبّ نسيم لطيفٌ غير معهود في تلك الساعات تبعتْها زخّات مطر خفيفة، وتوقّعنا أن تكون ليلة المهرجان ليلة ممتعة.

يوم عيد المولد النبوي، ويوم «مهرجان»، اقترنَا بطيب الطقس واعتداله وزخّات المطر، فخرج الناس أفواجاً ليتمتّعوا بالطقس وليتوجهوا إلى مسجد آل الرسول الذي غصّ بالمصلين فامتلأ المصلّى والإيوان حوله. والمقصورة كانت مفروشة بالسجاد الثمين. وقفت لصلاة المغرب

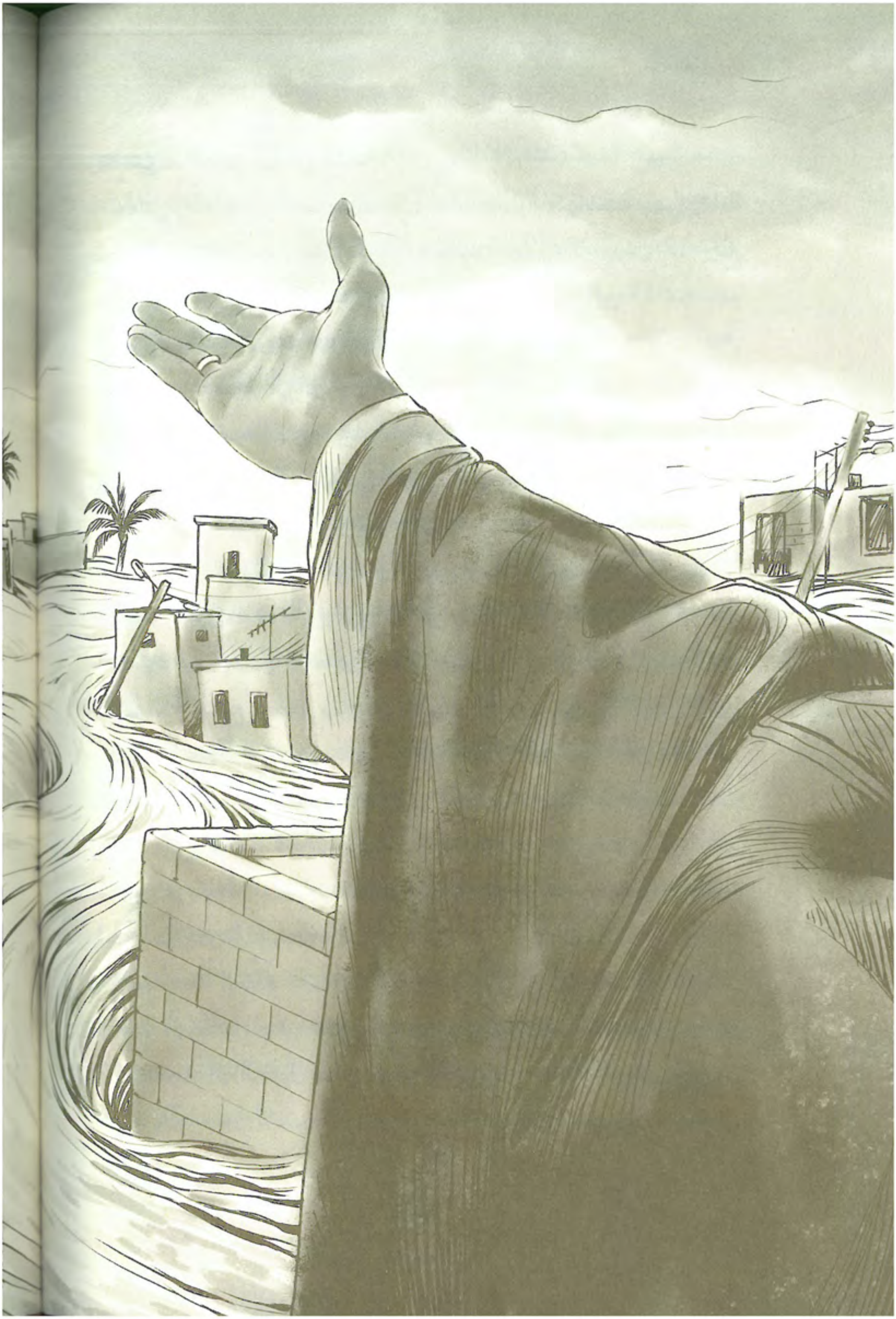

أؤمّ المصلين. وفي الركعة الثانية من الصلاة سمعت صوتاً غريباً يشبه صوتَ عربة تجرّ سعفاً كثيراً تنسحب أطرافه على الأرض. غير أنّ صوت الخشخشة هذا لم ينقطع، ولو كان عربةً لمرّت وانقطع الصوت. بعد لحظات سمعت صوت تلاطم المياه فعرفت أنّه «السيل».

* السيل وتربة الحسين عليه السلام

بعد انتهاء الصلاة وجدنا أنّ السيل قد غمر المدينة، وقد طغى الماء حتى وصل إلى إيوان المسجد رغم ارتفاعه مقدار نصف متر عن سطح الأرض. رفعت صوتي طالباً من الناس أن يواجهوا الكارثة. طلبتُ أوّلاً أن يجمعوا سجاد المسجد ويضعوه على مكان مرتفع كي لا يتلفه الماء. ثم طلبتُ منهم أن يتّخذوا الاحتياطات اللازمة لحماية الأطفال والنساء. استمرّ تدفّق السيول ساعتين أو ثلاثاً، وخلالها كنّا نسمع أصوات انهدام البيوت واحداً تلو الآخر، حتى خشيت أن ينهدم المسجد. كل شيء كان رهيباً. الظلام بسبب انقطاع التيار الكهربائي، والسيول الجارية الجارفة، وانهدام البيوت واستغاثة الناس.

وفي مثل هذه الحالة الحرجة المرعبة يجول ذهن الإنسان باحثاً عن أيّ وسيلة لمواجهة الموقف. وكانت ذاكرتي تختزن مسموعةً مفادها أنّ تربة سيد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام يمكن التوسّل بها -بإذن الله سبحانه وتعالى- لدرء مثل هذا الخطر المحدق. أخرجتُ من جيبي قطعة أحتفظ بها من التربة التي شرّفها الله بريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله، فتوكّلت على الله جلّ جلاله ورميت بها في السيول المتدفّقة، وما هي إلّا لحظات حتى توقّف السيل بفضل الله ومنّه.

بعد أن توقّف السيل بادرت إلى تشكيل لجنة لإغاثة المنكوبين. وما كان بالإمكان القيام بنشاط مهمٍّ في تلك الليلة، فأوكلنا الأمر إلى صباح اليوم التالي. توجّهت إلى البيت، وكان يتألّف من بيتين، بينهما باب مشترك، أسكن أنا والشيخ راشد في أحدهما، وفي الآخر السيد رحيمي والسيد الموسوي الشالي (وهما أيضاً نُفيا إلى إيرانشهر بعد الشيخ راشد. السيد رحيمي استُشهد بعد انتصار الثورة الإسلامية حين كان نائباً في مجلس الشورى الإسلامي). وجدت البيت سالماً لم يدخله الماء؛ بل وصل إلى مقربة منه.

شاع في المدينة أنّ بيت المنفيين لم يدخله الماء وحسبوا ذلك لنا كرامة. ولكني أوضحتُ الأمر للناس وقلت لهم: إنّ عدم دخول الماء إلى بيتنا يعود إلى موقعه في مكان مرتفع لم يرقَ إليه السيل وليس في الأمر كرامة.

* مركز الإغاثة

في صباح اليوم التالي ذهبت ومعي رحيمي وراشد إلى خارج المدينة لنرى البيوت التي جرفها السيل في وادي المدينة. وهي البيوت التي لها السهم الأوفى في تسبب الكارثة؛ لأنّ المدينة كانت على مرّ التاريخ عرضة للأمطار، وكانت مياه الأمطار تشقّ طريقها عبر الوادي وتجتاز المدينة، وبقيت المدينة سالمة على مرّ القرون. لذلك كان كلّ بناء على طريق هذا «المسيل» ممنوعاً لأنّه يؤدّي إلى سدّ طريق المياه وتدفقها إلى داخل المدينة. غير أنّ نفراً من الباحثين عن الأرض المجانية يجازفون في بناء بيوتهم في الوادي، وما يزال بعضهم

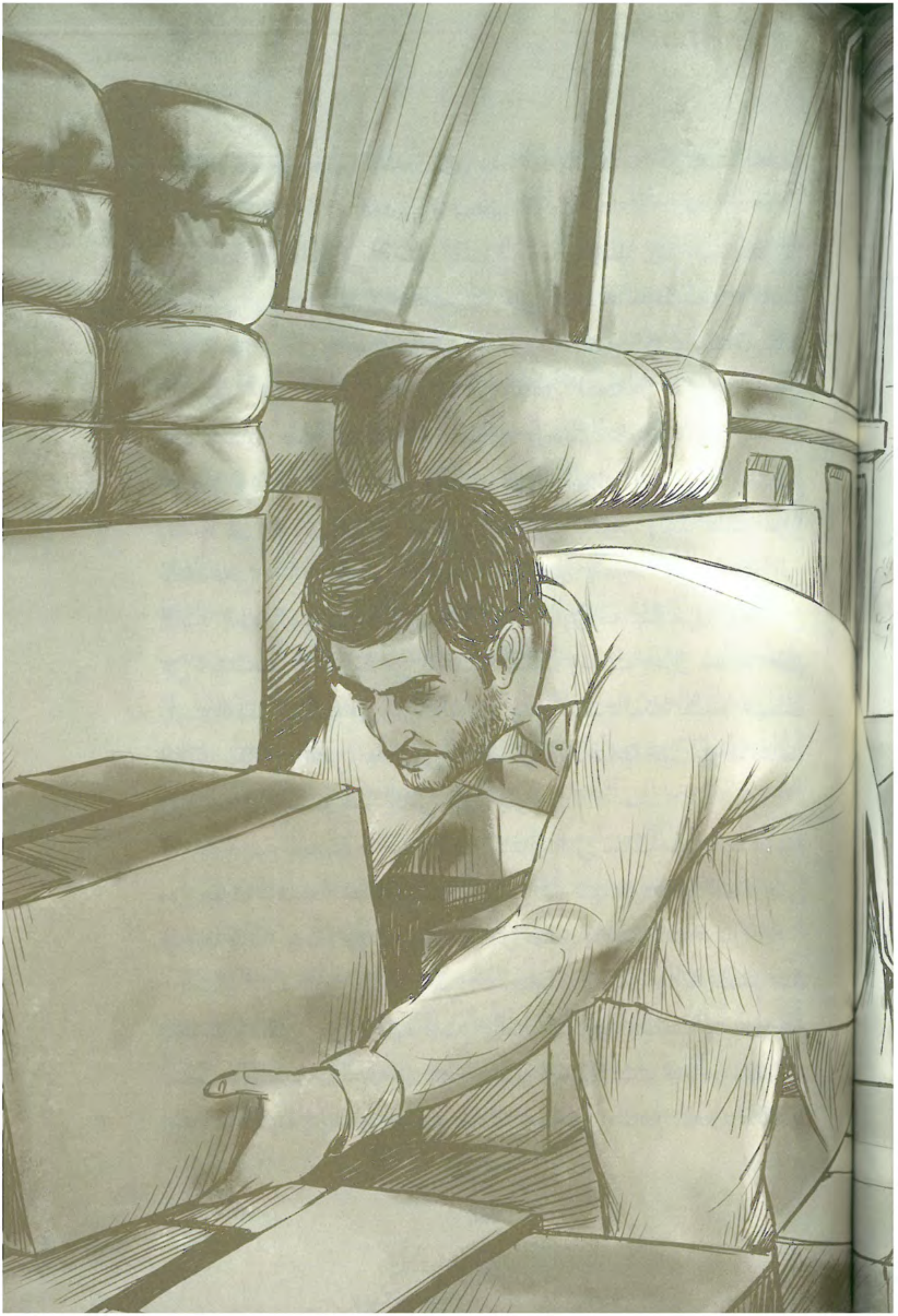

يفعل ذلك في بعض المدن دون علم منه بأنه لا يعرّض نفسه للخطر فحسب؛ بل يعرّض المدينة بأجمعها للخطر.

ذهبنا إلى الوادي فوجدنا تلك البيوت المبنية فيه أصبحت أثراً بعد عين. وإذ كنا واقفين هناك رأينا على البعد عائلة بلوشية[147] قادمة فيها نساء ورجل وأطفال. وعلى يد الرجل طفلٌ نائم، والنساء يبكين وينتحبن. حين اقتربوا منّا عرفنا أن الطفل المحمول على يد الرجل ميت. هزّني هذا المنظر من الأعماق، ورحتُ أنتحب عالياً.

وأنا لي حساسية خاصة بالنسبة إلى الأطفال والنساء. لا أستطيع إطلاقاً أن أتحمّل أيّ إساءة تنزل بطفل أو بامرأة. ولقد قلت مراراً لأصدقائي: أنا لا أصلح للقضاء بين رجلٍ وامرأة؛ لأنّي أنحاز إلى المرأة قطعاً. وهكذا الأطفال لا أطيق أن أرى مصيبة تنزل بهم حتى في المشاهد التمثيليّة في الأفلام؛ لذلك شعرت بحزن شديد حين رأيت الطفل الميت في كارثة السيل، وأجهشت بالبكاء بشدّة. فهمت العائلة بكائي وتألمي، وقال لي راشد: إنّهم اندهشوا حين رأوك متألّماً أكثر منهم. وانتشر خبر بكائي بين البلوش.

عدنا إلى المدينة فأخبرتنا لجنة الإغاثة التي شكلناها أنّ 80 بالمئة من بيوت المدينة قد انهدمت، والتي لم تنهدم دخلها الماء حتى غمرتها كلّها، وأكثر بيوت إيرانشهر من طابق واحد.

خطر لي فجأة أنّ الناس في المدينة لم يتناولوا وجبة طعام منذ غداء يوم أمس، ولا بدّ أنهم جياع. رأيتُ الخبازين قد أغلقوا مخابزهم بسبب السيل. الماء دخل المحلات والمستودعات والأمر سيستمر أياماً. فالمدينة يتهددها الجوع. قلت لأصحابي: لنرفع شعار: «أنقذوا

المدينة الجائعة»، ولنعمل على توفير الطعام بأي طريقة ممكنة. رأيت الناس متفرقين في الطرقات مبهوتين قد أذهلتهم الكارثة عن الإحساس بالجوع. رأيت في جانب من الطريق حانوت بقالة استطاع أن ينجو من الغرق بسبب ارتفاع محله، وصاحبه واقف عند بابه يتلفت يميناً ويساراً لا يدري ما يفعل. جئته وقلتُ له: هل يوجد في محلك شيء يقتات به الناس؟ قال: فقط بسكويت. قلت: هات ما عندك. اشتريت منه كل صناديق البسكويت ولم تكن كثيرة، ووزّعتها في المكان نفسه على الناس المشرّدين. هذه جرعة مسكّنة فقط وموضعية وليست علاجاً لمدينة جائعة.

ذهبتُ إلى إدارة البريد، واتصلت هاتفيًّا بالشيخ الكفعمي الذي مرّ ذكره في زاهدان وهو العالم الكبير المعروف في جميع محافظة بلوشستان. حدثته عن أبعاد الكارثة، وقلت له: نحتاج إلى خبزٍ وتمرٍ، وإذا أمكن فالجبن أيضاً بأقصى سرعة وبقدر المستطاع. وطلبتُ منه أن يتّصل بالشيخ صدُّوقي في يزد، وأن يتّصل بمشهد وطهران ويخبر الجميع بحاجتنا إلى الطعام. كرّرت مرات عدة بصوتٍ عالٍ: قل للجميع أنا أنتظر بفارغ الصبر الخبز والتمر.

حين وضعت سماعة التلفون رأيت الناس خلفي يستمعون إلى استغاثتي وشدة اهتمامي مندهشين. ينظر بعضهم إلى الآخر بإعجاب واستغراب. وكان من الطبيعي أن ينتشر خبر عملي هذا في المدينة خلال أقل من ساعة. وانشدّت قلوب الأهالي إلى محاولاتي؛ لأنهم كانوا على علم بعدم قدرة علمائهم وبعدم قدرة المسؤولين الرسميين على الإغاثة العاجلة. فالعلماء غير قادرين والرسميّون غير مهتمين؛ بل كانوا عاجزين.

ذهبتُ إلى مسجد آل الرسول لإعداده كي يكون مركزاً للإغاثة. واتجهت كل الأنظار إلى المسجد. وما هي إلّا ساعتان أو ثلاث حتى جاءت شاحنة ضخمة مملوءة بالخبز والتمر والبطيخ والجبن. فتحنا مكبّر الصوت في المسجد على تلاوة من القرآن الكريم، ثم أعلنّا أنّ مسجد آل الرسول أصبح مركزاً لدعم الناس وإمدادهم بما ينجيهم من الطعام. قلت لإخواني: أعطوا الطعام لأيّ شخص جاءكم، وإذا قال: هذا قليل، أعطوه أكثر. وإذا قدم عليكم ثانية أعطوه ولا تقولوا له: سبق أن أخذت. حتى نتجنّب إثارة حرص الناس. طبعاً كنت مطمئنًّا بأن الإخوة في المدن الأخرى سيدعموننا. وهكذا بدأنا عملية الإغاثة.

قسّمت الأعمال بنفسي بين الإخوة بدقة، وأصبح عندنا تنظيم جادٌّ، واستفدت من تجربتي السابقة في «فردوس»[148] سنة 1388هـ.ق/1968م. واستمرّت العملية 50 يوماً، زرنا خلالها الناس في البيوت والصرائف والخيام، وعملنا إحصاء لعدد أفراد الأسر. كانت الأرقام التي تُعطى لنا غير دقيقة أحياناً؛ لكنّا كنّا نحملها على الصحة ولم ندقّق. ودخلنا في أعماق مشاعر هؤلاء الناس.

جعلنا التوزيع حسب ما دونّاه من إحصاء، وعملنا بطاقات تموين، تسلم كل عائلة حصتها حسب البطاقة. ووزّعنا خلال هذه المدّة أعداداً كبيرة من الفوانيس والبطانيّات والأواني والمفروشات وسائر مستلزمات المعيشة البسيطة، إضافة إلى المواد الغذائية التي كانت توزع بين حين وآخر. وكان هناك من زيّف بطاقة التوزيع وقلّد توقيعي عليها، غير أنّ توقيعي، وإن كان بسيط الظاهر، يحمل رمزاً أعرفه أنا. كنت أعرف تزييف التوقيع؛ ولكن لم أجاهرهم بذلك.

خلال تلك الأيام (أيام الإغاثة) جاء الشيخ حجتي من سنندج إلى إيرانشهر. فقد مرض في منفاه الثاني (سنندج) وطلب إجازة للمجيء إلى كرمان فسمحوا له، ومنها جاء إلى إيرانشهر لزيارتنا. كان قدومه فرصة جددنا فيها اللقاء، وسهرنا حتى الصباح. وفي الصباح دعوتُه للذهاب إلى المدينة والتجوّل فيها بسيارتي. أجلسته بجانبي وقدت السيارة، فثارت دهشته حين رأى الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً يرفعون أيديهم إلينا محيّين حين يرون سيارتنا. استغرب وقال: أتتذكر أنّ الناس في البداية كانوا يبخلون علينا حتى بالسلام؟! قلتُ: نعم أتذكر، ولكن هكذا يكون موقع الفرد في قلوب هؤلاء الناس حين يشاركهم في سرائهم وضرائهم.

وفي نهاية خمسين يوماً من الإغاثة وبعد تجاوز ما أمكن تجاوزه من آثار السيول عملنا حفلاً كبيراً، وخطبت فيه، وما يزال تسجيل الخطبة وصور الاحتفال موجودة.

* شعبية المنفيّين

حلّ شهر رمضان وحلّت معه فرصة الارتباط بالناس أكثر من بقية الشهور. وكان رئيس الشرطة مستاءً جدًّا من هذه الشعبية، ولا يدري كيف يتصرّف تجاهنا نحن المبعدين في المدينة، وحاول مرات أن يبدي لنا سريرته الخبيثة. وحين حلّ شهر رمضان كان رئيس الشرطة هذا لحسن الحظ في إجازة استمرت أسبوعين، وجاء مكانه ضابط شابٌّ متزن متعقل تُشمّ من حديثه معنا رائحة التودّد والتعاطف وكان أول لقائنا به في المسجد. ومجيء رئيس الشرطة ليلتقي بنا في المسجد طبعاً كان أمراً غير عاديّ.

كنت في ليلة ماشياً في شارع ومعي اثنان من الإخوة المنفيّين. وقفت

سيارة إلى جانبنا ونزل منها الضابط الشاب، وطلب أن يختلي بي ليُسرَّ لي أمراً. افترقت عن الأخوين، ومشيتُ معه قليلاً، فأخبرني أنّ المنفيين سيتوزعون على ثلاث مدن، أحدهم إلى «جيرفت»[149]، والثاني إلى «إيذه» والثالث إلى «إقليد» (والرابع كان قد أطلق سراحه قبل ذلك)، وطلب حصر الخبر في إطار المنفيّين. أخبرت الإخوة بالأمر. كان الضابط الشاب آنئذٍ على وشك الرحيل من إيرانشهر فقد عاد رئيس الشرطة من إجازته. ولم تمض مدة طويلة حتى أُخبرنا بضرورة التهيّؤ للانتقال إلى منفى جديد. وبعدها جاء الشرطة ليلاً وطلبوا من السيد رحيمي أن يتهيّأ للمغادرة، ثم قالوا لي: سوف تغادر أنت أيضاً بعد ساعتين. حاولنا أن نقنعهم بإرجاء موعد السفر إلى الصباح، ولكن وجدناهم مصرّين على السفر ليلاً، وعرفنا سرّ الأمر. فقد دخلنا المدينة ونحن غرباء وها نحن نخرج منها ليلاً لأنّ السلطة تخشى ردّ فعل أهالي المدينة.

كان رحيمي مشغولاً برزم حقائبه والشرطة يستعجلونه. وحينما ازداد ضغطهم على رحيمي انفجر رحمه الله أمام الشرطة ورئيسهم وألقى خطاباً قصيراً حماسيًّا ما تزال كلماته ترنّ في أذني، قال لهم: «لا تغترّوا بهذه السلطة الزائلة فإنها سوف تأفل لا محالة وسوف تبزغ سلطة الإسلام». واسترسل في هذه الكلمات الحماسية التي كنّا نحسبها آنذاك شعارات لا أكثر. وأنا بدوري شعرت بالخجل من حماس ظننت أنّه في غير محله.

على كل حال، أخذوا رحيمي، وحان دوري، فقلت لهم: عندي سيارة، ولا بدّ من أن أذهب بسيارتي. قالوا: هذا غير ممكن. قلت: إذاً أمتنع عن الذهاب وافعلوا ما شئتم. وما كان أمام رئيس الشرطة إلّا أن يوافق. وأما قضية امتلاكي السيارة فلها قصة طريفة أقف عندها قليلاً.

نصرٌ بعدَ عُسر

* سيّارتي

كنتُ قبل النفي أتردّد على طهران لأداء بعض المهام التي ترتبط بالعمل الإسلامي. وكنت أحتاج هناك إلى الحركة المستمرة، وكان لا بدّ من سيارة شخصية. اقترح عليّ أحد إخواننا المناضلين المخلصين وهو صادق إسلامي[150] أن يجعل سيارة أحد أقاربه وهو «الحاج أحمد قديريان»[151] تحت تصرفي عند سفري إلى طهران. قبلت ذلك. وصادق إسلامي استشهد في مأساة انفجار مقر «الحزب الجمهوري الإسلامي»[152] على يد الزمرة المنافقة، حيث راح ضحيته كوكبة من أركان النهضة الإسلامية وشخصيات الثورة البارزين، وعلى رأسهم الشهيد السيد محمد الحسيني بهشتي. والحاج أحمد قديريان كان تاجراً قبل الثورة، وبعد انتصار الثورة الإسلامية طلّق كلّ عمله التجاري وثروته، وأصبح في خدمة أجهزة الدولة والثورة، وهو حيٌّ يرزق والحمد للّه.

وللحصول على السيارة كنتُ أتّصل لدى وصولي طهران في كل مرة بقديريان ويأتيني هو بنفسه أو ابنه بالسيارة وتبقى تحت تصرّفي أسبوعاً أو أسبوعين، ثم حين المغادرة كنت أضع السيارة في موقف المطار أو موقف محطة القطار، وأضع مفتاح السيارة تحت عجلتها، وأتّصل بقديريان فيأتي ويأخذ السيارة. كانت السيارة التي اعتدتُ على قيادتها في طهران من نوع بيجو 404 صالون، وهي واحدة من سيارات قديريان. فالرجل كان تاجراً في السوق وله سيارات عدّة. وبالمناسبة فإنّه واحد من كثيرين تركوا كسب الدنيا ليتاجروا ويتعاملوا مع الله في خدمة الثورة الإسلامية بعد انتصارها، وهناك طبعاً من اتّخذ من الثورة دكّان كسب لمعاشه.

كنت أحتاج إلى السيارة في إيرانشهر لأتردّد على أطراف المدينة ولأصل إلى مطار زاهدان؛ لأنه المطار الوحيد في المنطقة، وكنت أذهب إليه بالزي البلوشي لاستقبال من يأتي لزيارتي من الأهل والأولاد. وبالمناسبة كان لباسي البلوشي يتناسب مع سحنات وجهي ولحيتي، وكان ارتداؤه في تلك الظروف أفضل من ارتداء لباس علماء الدين بسبب الحظر على خروجي من إيرانشهر. وما أزال أحتفظ بهذا الزي وأرتديه أحياناً.

وبسبب احتياجي للسيارة اتّصلتُ بقديريان وقلت له: إذا كنت تعتبر أهمية إيرانشهر كأهمية طهران فابعث لي بسيارة. بعد أيام جاءني شخص وقال: أنت فلان؟ فأجبتُه بنعم. قال: أتيتُ لك بسيارة. وأراني سيارة بيجو 404 ولكن لم تكن صالوناً. قلت له: هل بعث بها قديريان؟ قال: نعم. قلت له: ولكن المعهود أن سيارة قديريان من نوع صالون.

قال: لا أدري، أنا مكلّف بتسليم هذه السيارة لك. وكانت سيارة نظيفة وجديدة، استعملتُها في المنفى بإيرانشهر وجيرفت. وبعد النفي أودعت السيارة عند أحدهم، وقلتُ له: اذهب بها إلى قديريان. وكانت السيارة قد أصابها ما أصابها آنئذ جرّاء استعمالها في المناطق الحارة والوعرة. ولكن بعد مدة من وصولي إلى طهران (في طريق العودة من المنفى إلى مشهد) جاء شخص وأعاد لي السيارة بعد صيانتها وتنظيفها حتى أصبحت كالجديدة. قلت له: ما هذه؟ قال: هذه سيارتك، وقديريان اشتراها منذ البداية لك. فوجئت بالخبر، قلت: لماذا لم يخبرني من البداية حتى لا أكلّفه الصيانة والتنظيف؟!

بقيت السيارة عندي، وبعد انتصار الثورة كنت بسبب الظروف الأمنية أركب سيارة خاصة وضعها الحرس الثوري تحت تصرّفي، وما وجدتني أحتاج إلى سيارتي، فبعتُها بثمنٍ بخسٍ لرخص أسعار السيارات آنئذ. ثم انتقلت من بائع لمشتر خمس مرات أو أكثر، حتى رآها أحد الإخوة في يد أحدهم فاشتراها منه ونظفها وأعادها إليّ قبل سنتين أو ثلاث، وهي الآن موجودة تحت تصرّفي.

* في طريقي إلى المنفى الجديد

أعود إلى حديث الانتقال إلى المنفى الجديد. بعد أن وافقت الشرطة على استعمال سيارتي جلست خلف المقود، وجلس إلى جانبي أخو زوجتي «حسن خجسته» الذي اعتدنا على تسميته «حسن آقا»، وكان آنئذٍ قد جاء إلى إيرانشهر ليمضي معي أيّاماً، وكان يتردّد على إيرانشهر لنقل رسائلي إلى الإخوة المنفيين في المناطق المختلفة

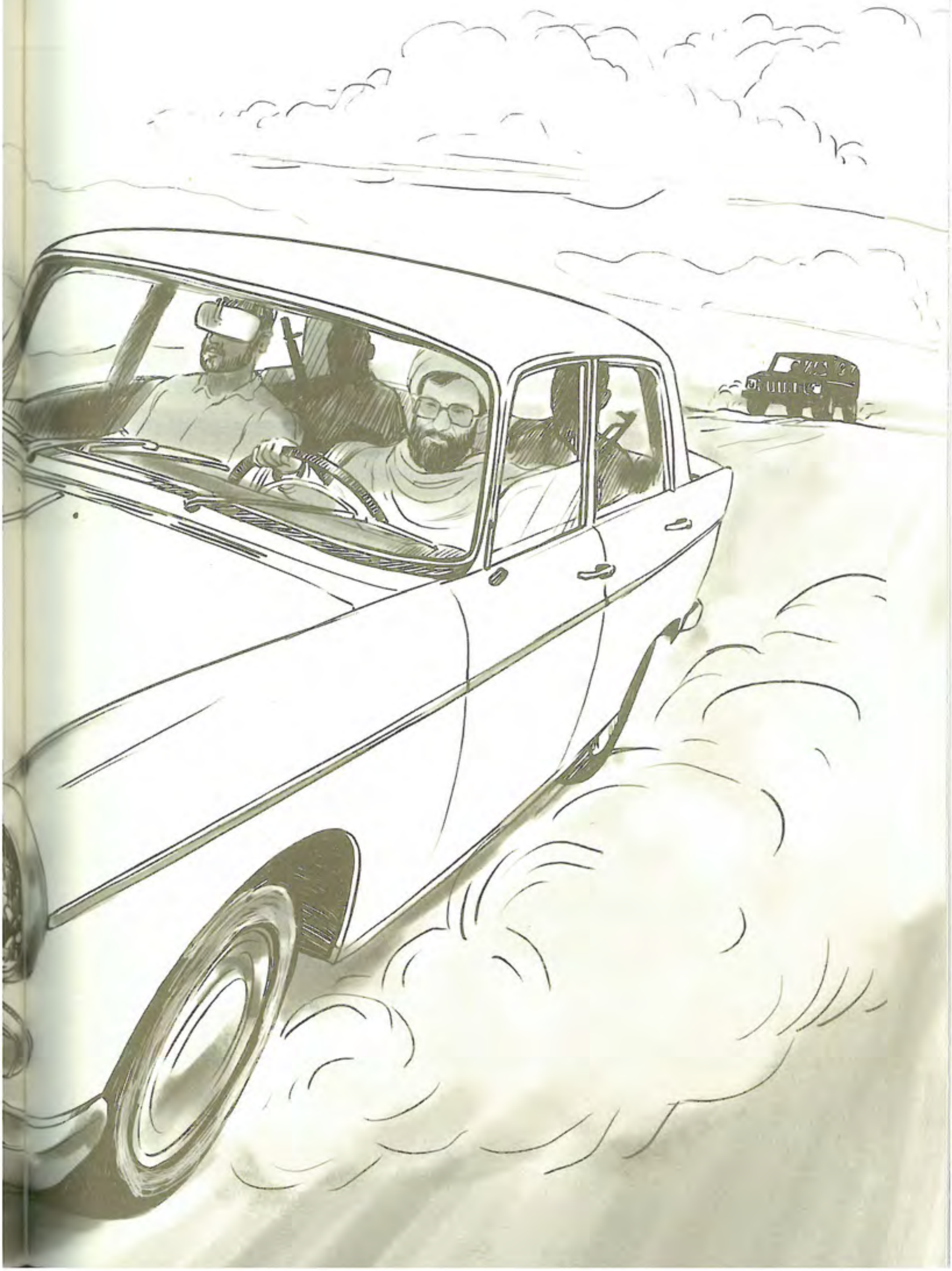

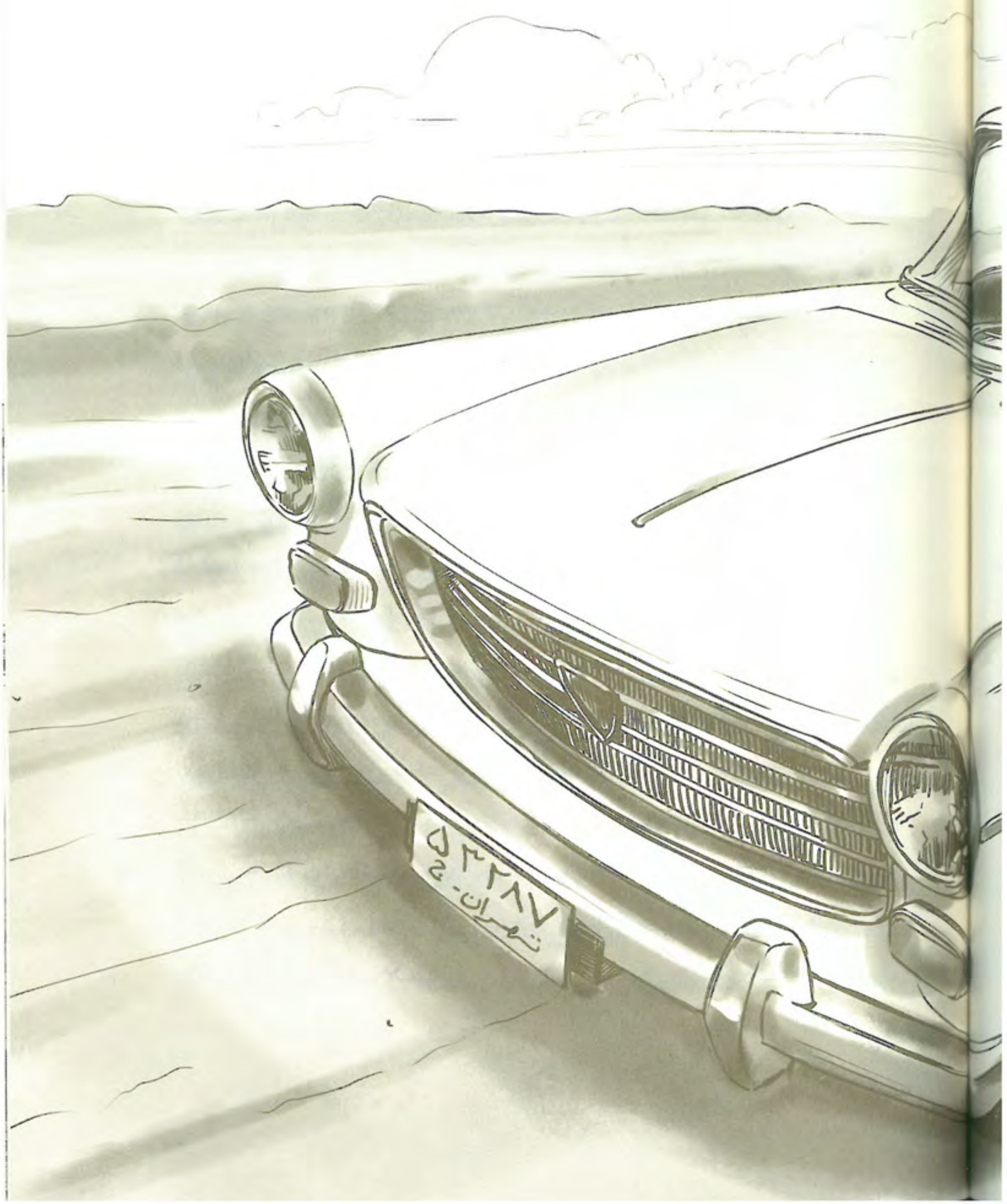

۵۳۲۸۷
تهران - ج

وإلى يزد وشيراز[153] ويأتيني برسائلهم. وكان يؤدي هذه المهمة معه أصغر پور محمدي. جلس في المقعد الخلفي للسيارة مأموران يحمل كل منهما بندقية كبيرة قديمة. وسارت خلفنا سيارة شرطة أكل الدهر عليها وشرب، تجرّ نفسها بصعوبة، وكان من الطبيعي أن أسبق سيارة الشرطة، لذلك طلبوا مني أن أسير خلفهم. وبعد مدّة عدلوا عن رأيهم ووجدوا أنّ المصلحة تقتضي أن أسير أمامهم، وهكذا كانوا في حيرة من أمرهم تارة يتقدمون وتارة يتأخرون. ثم حصل في سيارتي عطلٌ أدّى إلى غليان مائها. فكنت بين الفينة والأخرى أتوقف وهم يصرون عليّ أن أواصل؛ ولكنهم كانوا يرون واقع المشكلة. وقبل أن نصل مدينة «بم» (في الطريق بين إيرانشهر وجيرفت) ملأت خزّان السيارة بالماء، وانطلقت بسرعة نحو المدينة، كي أختصر المدة وأتخلص من تعب قيادة تلك السيارة التي لم يكن يبقى الماء فيها في ذلك الجوّ الحارّ الملتهب. وبدأت سيارة الشرطة خلفي تعطي الإشارة تلو الإشارة لأَتوقّفَ، وأنا لا أعبأ بهم. ثم التفت الشرطيان الموجودان في السيارة إلى ابتعادي عن سيارة الشرطة، وطلبا مني أن أتوقّف، ولكني لم أكترث، واكتفيتُ بالقول: إنّنا متوجهون إلى مركز الشرطة، وسيارة الشرطة سوف تلتحق بنا في المركز. ووصلت إلى المركز ووصلت بعدنا سيارة الشرطة وأفرادها يلهثون من شدة العناء والتعب ومحاولة اللحاق بنا.

كان الطقس حارّاً، وأنا في غاية التعب. رأيت في غرفة قريبة من باب المركز أسِرَّة من طابقين، فقلت لحسن: اذهب إلى «الحاج صديقي» (وهو شاب يزدي ساكن في مدينة بَم[154] وسائق شاحنة ويتمتّع بهمة عالية في مساعدة المنفيين، وكان يزورنا مع جماعة في إيرانشهر)،

وأخبره بوجودي في مركز الشرطة. وبدون استئذان استلقيتُ على أحد هذه الأسِرَّة، واستسلمتُ لنومٍ عميق لم يطل؛ إذ جاء أخونا اليزدي، ورحّب بنا كثيراً، قلت له: سيارتي معطوبة، وأمامنا إلى جيرفت 12 فرسخاً، والطريق جبليٌّ وعر وضيّق بحيث لا تستطيع أن تمرّ في بعض مناطقه أكثر من سيارة واحدة (أصبح في عهد الجمهورية الإسلامية من الطرق الجيدة) فلو أوصلتنا بسيارتك وأعطيت سيارتي للصيانة. قال: حبّاً وكرامة، وذهب وجاء بسيارته، وكان يملك سيارة شخصية صغيرة.

* الصلاة في المقهى

جلس صاحب السيارة خلف المقود وأنا بجانبه، ثم جلس حسن آقا واثنان من الشرطة في المقعد الخلفي، وثلاثة عناصر شرطة تبعونا في سيارتهم خلفنا. قرب الظهر وصلنا إلى مقهى. والمقهى يقع في مصيف جميل مزدان بالبساتين والأشجار الغنّاء وطقسه لطيف وماؤه عذب، وهو معروف لكل من يتردد على هذا الطريق؛ لأنّه محل استراحة المسافرين وتناول طعامهم. نزلت من السيارة، واتجهت إلى المقهى وخلفي أصحابي، اثنان من المدنيّين والباقون شرطة. سألتُ أوّلاً عن مكان الوضوء فدلّوني على مكان يقع خلف المقهى. ذهبتُ إليه فإذا هو بستان جميل. توضأنا، وقلت لمن معي: دعونا نُقِم الصلاة في هذا المكان. كان من المفروض أن يعترض عناصر الشرطة على هذا الاقتراح؛ لأنه مكان مكشوف مُعرّض لرؤية المارّة في الشارع. لكنهم لم يفطنوا إلى ذلك، وفطنوا إليه في ما بعد.

ما إن وقفنا لصلاة الجماعة حتى انشدّت إلينا أنظار أهل القرية. فالناس

عامة، والقرويون خاصة، يحبون «السادة» و«العلماء» و«المظلومين» و«المعارضين للسلطة القائمة آنذاك»، وكل هذه الخصائص كانت ملحوظة في عمامتي السوداء والزيّ الديني ووجود الشرطة ورائي.

بعد أن انتهت الصلاة كانت على قارعة الطريق مجموعة من القرويّين قد تجمّعت وهم ينظرون إلينا بدهشة وإعجاب. تغدينا، وقلت لعناصر الشرطة: أريد أن أستريح قليلاً. حاولوا أن يقنعوني بمواصلة المسير، فأبيت، وقد اعتادوا أن يتنازلوا أمام طلباتي لأنهم أنِسوا بي أوّلاً، ثم إنّهم وجدوا مني عدم تنازل لطلباتهم. رضخوا للأمر فاضطجعت، ووقفت عناصر الشرطة حولي خشية أن أفلت من قبضتهم. وبعد هجعة قصيرة نهضت وتهيأنا للمغادرة. حين اتّجهنا إلى السيارة رأينا عشرات الأفراد يحيطون بها ويرفعون أصواتهم بالصلاة على محمد وآل محمد، وهو شعار ديني يعبّرون فيه عن تعاطفهم. فبادلتُ هؤلاء التحية والعواطف، لكن عناصر الشرطة ذُعروا ودُهشوا، فعطفت عليهم لما وقعوا فيه من موقف حرج. وركبنا السيارة، واتجهنا إلى جيرفت، بعد أن تركت فينا هذه الواقعة المعبّرة عن طبيعة الأمة أطيبَ الأثر وأحسنَ الوقع.

* جيرفت

وصلنا جيرفت. ومدينة جيرفت في الواقع بستان كبير. يخيل إليك حين تراها أنها كانت في الأصل بستاناً ثم بنيت فيها البيوت وشيّدت المتاجر ومُدّت الشوارع. طقسها حارّ مثل طقس إيرانشهر غير أنه مشبع بالرطوبة ومملوء بألوان الحشرات والهوام، بينما هواء إيرانشهر خفيف ونقيّ وخالٍ من الحشرات.

أخذوني إلى مركز الشرطة، وكان بناية ضيقة خانقة تركها المسؤولون ليستريحوا في بيوتهم. طُلِب مني أن أجلس ريثما يعود عناصر الشرطة إلى محلّ عملهم.

قلت: لا أطيق البقاء في هذا المكان وأفضّل أن أجلس خارج البناية. فرشتُ عباءتي جوار الشارع المار أمام المركز، وكان خالياً إلّا من بعض المارّة الذين كانوا يستغربون لرؤيتي أمام مركز الشرطة. أرسلت حسن آقا ليبحث عن بيت الشيخ ربّاني الأملشي. وكان الشيخ قد نُفي قبل وصولي بشهرين إلى هذه المدينة، وكنت أعلم أنّه استأجر بيتاً فيها واصطحب أهله.

علاقتي بالشيخ ربّاني الأملشي رحمه الله قديمة تعود إلى 1377هـ.ق/1957م، حين التقيتُ به لأول مرة في مدينة كربلاء، حيث كان هو والشيخ هاشمي الرفسنجاني هناك. ثم توطدت بيننا علاقات وثيقة أحبّني وأحببته واشتركنا في مباحثة علمية في أحد الدروس لمدة سنتين.

بعد إنجاز الأمور الإدارية في مركز الشرطة اتجهنا إلى بيت الشيخ ربّاني، فلما رآني سُرَّ بشدة، وقال: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ قلت: هكذا قُدّر لي.

كنت المنفيَّ الثاني بعد الشيخ ربّاني إلى هذه المدينة، ثم التحق بنا المرحوم الشيخ ربّاني الشيرازي والتحق آخرون بينهم كسبة حتى بلغَ عددنا تسعة. فقد اقتضت سياسة النظام الحاكم آنئذ جمع المنفيّين المنتشرين يومئذ في بضع عشرة مدينة إيرانية داخل عدد قليل من المدن كي لا ينتشر نشاطهم في مناطق عدّة. فالمنفيّون كانوا يمارسون أينما حلّوا نشاطاً شعبيًّا إسلاميًّا.

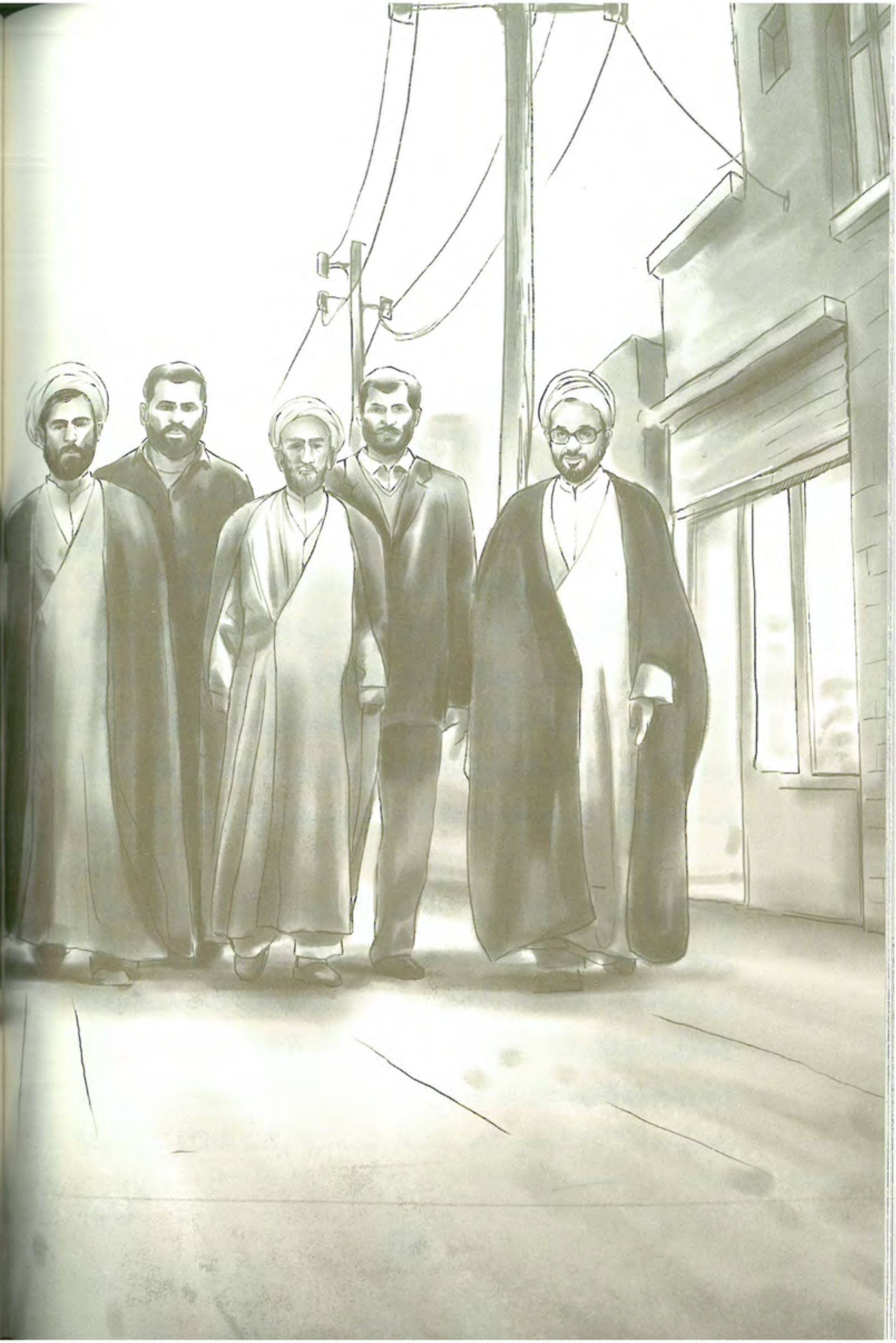

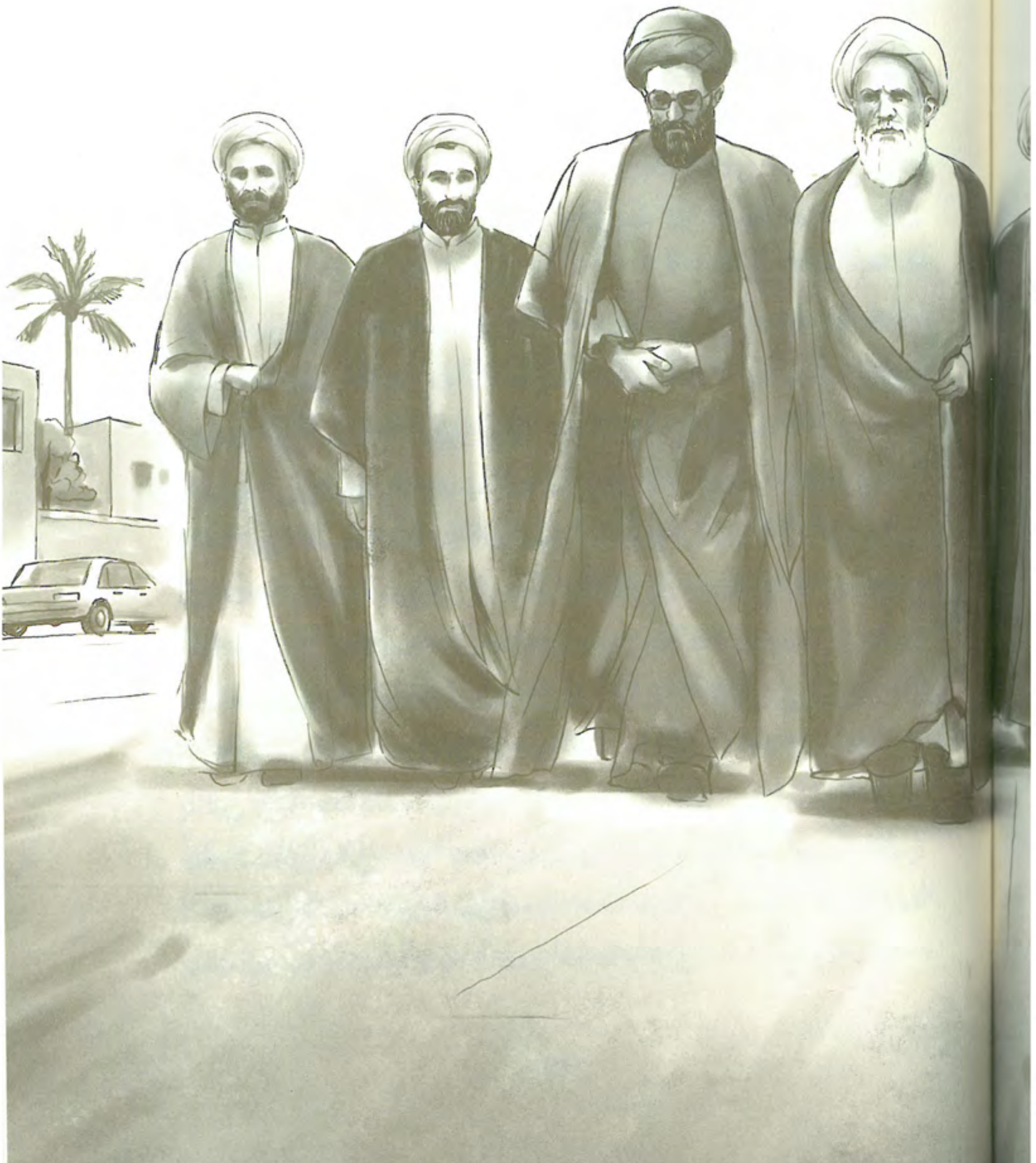

* شيخ المنفيّين

أذكر أنّ أحد كسبة «قُم» المنفيّين جاء بعدي بأيام قلائل وحلّ في بيت الشيخ ربّاني أيضاً. وكان هذا البيت مقصد كل المنفيين، تجمّعنا فيه ثم تفرقنا بعد أن استأجرنا بيوتاً عدّة. وما أزال أتذكر ساعة وصول هذا الكاسب الذي جاؤوا به من منفاه الأول في ضواحي خراسان إلى جيرفت. لقد كنت نائماً في بيت الشيخ ربّاني إذ سمعت أصواتاً عند الباب، نهضت وفتحت الباب فوجدت أن هذا المنفيّ وصل مع اثنين من الشرطة في سيارة مليئة بالأثاث والأمتعة، كان الرجل قد اصطحب كل ذلك معه إلى منفاه الجديد.

لفت نظري منذ اللحظة الأولى نشاط الرجل وهمّته وشجاعته وشطارته (وهي ظاهرة يتميّز بها أهل قم بشكل عام). طلب من الشرطيّين أن يقفا على مسافات قريبة بينهما، ثم بدأ يناول أحدهما الأثاث، وهذا للثاني، كي يضعها عند باب البيت. وكان يقوم بذلك بسرعة وخِفّة. وكلما ناول الشرطي قطعة أثاث يقول له: «بگو مرگ بر شاه» أي: «قل، الموت للشاه». والشرطيّان لا يعبآن بكلامه؛ بل يضحكان ممّا يدلّ على أنّه استطاع أن يجتذبهما إلى جانبه بشدّة. وبعد ذلك عرفت أنّه طلب من الشرطيين المرافقين أن يعرجا على مدينته «قم» في الطريق من خراسان إلى جيرفت، واتفق معهما على أن يمضي أياماً بين أهله، ثم يلتقي بهما بعد ذلك ليتوجّهوا إلى جيرفت. وتمّ له ذلك، ولا بدّ أن أذكر هنا أن أهالي «قم» بخفّة دمهم وذكائهم وشطارتهم خدموا الثورة كثيراً، حتى علماء الدين الذين أمضوا ردحاً طويلاً من عمرهم في الإقامة بهذه المدينة اكتسبوا هذه الصفة بدرجة وأخرى.

بعد أن اكتمل عددنا بدأنا بإقامة مجالس في المسجد الجامع. كان شيخ المنفيين سنًّا ربّاني الشيرازي نقدمه أمامنا ونمشي نحن خلفه. وكان الجمع يتكون من سبعة علماء وكاسبين اثنين. وذهابنا بهذه الصورة الجماعية إلى المسجد كان يشكل تظاهرة تلهب عواطف الأهالي. ثم يرتقي أحدنا المنبر كل ليلة ويلقي كلمة تتعالى خلالها الهتافات والشعارات. وأول هتاف تصاعد في المسجد كان من جانب النساء خلف الستار.

* طلائع أخبار الثورة

طلائع أخبار الثورة وصلتنا ونحن في إيرانشهر. فقد وقعت حادثة «قم»[155] في 29 محرم 1398هـ.ق/1977م. ثم توالت الأحداث. وبمناسبة أربعين شهداء قم وقعت حادثة تبريز[156]، وبمناسبة أربعين شهداء تبريز وقعت حادثة يزد[157] وحوادث جسام في مدن أخرى.

حين وصلتنا أخبار قم اتّخذنا منها موقف اندهاش ممزوج بعدم تصديق. فالجوّ السياسي كان خانقاً ولا ينبئ بتحرك اجتماعي جماهيري. ثم من غير المتوقع أن يصعّد الموقف إلى حدّ المجابهة والاستشهاد. لم يكن لهذه الواقعة مقدمات تجعلنا نصدّق بوقوعها؛ بل وقعت مفاجئة. كانت في الواقع حدثاً كبيراً بحدّ ذاته، ولد فجأة دون سابق إرهاص.

بعد أن تتابعت الأحداث أدركنا أنّ ثمة حادثة عظيمة على وشك الوقوع. ورحت أتابع الأحداث بدقّة. وكان هناك من الشباب من يضعني في صورة كل ما يحدث بتفاصيله؛ منهم الشيخ الصالحي وهو

من قم، وكان آنئذ في مقتبل شبابه ونشطاً وفيه خفة حركة.

في خضمّ تلك الأحداث بعث لي الشيخ صدوقي من يزد رسالة صغيرة طلب فيها مني أن أراسله بشأن ما يحدث في البلاد. وجدت الفرصة سانحة لأن أخاطب علماء الدين في البلاد من خلال الشيخ صدوقي، وأعطيهم تحليلاً معمقاً عما يجري وعمّا يجب أن يتخذوه من مواقف وتدابير؛ لأن علماء الدين دخلوا بالفعل ساحة قيادة الأمة، وهذه القيادة تحتاج إلى عناصر نضج وعمق وقراءة للأحداث ورسم المستقبل والحذر من المؤامرات، وهي عناصر قلّما تتوفر في العلماء القاطنين في غير حوزتي قم ومشهد وفي غير العاصمة طهران آنذاك؛ إذ لم يسبق لأغلبهم أن خاضوا غمار قيادة أحداث سياسية، خاصة وأنها بمثل تلك الضخامة.

كتبت للشيخ صدوقي رسالة في صفحتين كبيرتين ضمنتها رأيي في الأحداث الجارية من منظور سياسي وإسلامي. كتب لي الشيخ ثانية، وشكرني، وطلب المزيد. فكتبت له ثماني صفحات كبيرة عن «مسؤولية العلماء تجاه الثورة الإسلامية وإزاء مؤمرات الأعداء»، ونشر في كرّاس ووُزّع بغير اسم في مشهد ويزد ومناطق أخرى.

حين رأيت الآثار الإيجابية لمثل هذه الكتابات وأهميتها في تنضيج الموقف القيادي من الأحداث واصلت الكتابة. من ذلك أني اغتنمت فرصة وقوع الأحداث الجسيمة في شيراز فكتبت رسالة في 4-5 صفحات إلى «السيد الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب»[158] خاطبته وكل علماء شيراز. ومن جيرفت كتبت رسالة إلى السيد شريعتمداري. وسبب كتابتي إلى السيد شريعتمداري كان تصريحاً

له نُشر في الصحف آنذاك أشار فيه إلى مَنْ أسماهم «المتطرفين».

وكان دأب السيد شريعتمداري أن يطلق تصريحات يحاول فيها أن يرضي السلطة والجماهير معاً. ولا بدّ أن تكون الكفة الراجحة في هذه التصريحات رضا السلطة؛ لأنّها تفهم معنى التصريحات وتتخذ منها الموقف الحازم. أما الجماهير فيمكن أن تُخدع بموقف ضعيف مهزوز. وتعبير «المتطرفين» له خطورته الكبيرة؛ لأنّه لو سَرى على الألسن لتحوّل كل الناشطين في خط الثورة والسائرين على نهج الإمام الخمينيﷺ إلى متطرفين مدانين. فكتبت إليه وحذرته من مغبة إصدار مثل هذه التصريحات. وقلت له: إن مثل هذا الكلام سيعطي للسلطة المبرر لقتل الجماهير الثائرة باسم القضاء على التطرف، وتتحملون وزر كل ذلك. وبعد أن أنهيت كتابة الرسالة ووقّعتها، بلغني، قبل أن أبعثها، نبأ وقوع مجزرة «الجمعة السوداء»[159] (5 شوال 1398هـ.ق/8 سبتمبر/أيلول 1978م) في ميدان جاله (ميدان الشهداء حاليّاً) بطهران، فكتبت على هامش الرسالة: هذه بداية عمليات القضاء على المتطرفين.

كان وصولي إلى جيرفت متزامناً وعزل جمشيد آموزگار[160] عن رئاسة الحكومة ومجيء شريف إمامي[161]. وهي حادثة آذنت بالإسراع في مسلسل الأحداث. فقد عمّ التوتر البلاد، واتجهت الأمور إلى الانفلات من يد السلطة، وخفّت الضغوط. والانفلات هذا عمّ المنفيّين، فمنهم من ترك جيرفت بدون إذن، فنجا بعضهم تماماً واعتقل بعضهم في طهران. ومنهم من أبى أن يأتي إلى منفاه الجديد في جيرفت مثل الشيخ محمد جواد حجّتي كرماني، فقد كان منفيًّا في سنندج ثم نُقل إلى جيرفت، وحينما مرّ على طهران أبى أن يواصل سفره، وبقي في

طهران، واعتقل على أثر ذلك لأيام. أما أنا فقد بقيت في جيرفت كي لا يقال عني إنّي فررت أو تعبتُ من المنفى. وما أردت أن يلقى القبض عليّ فارًّا كما أُلقي القبض على بعض الإخوة؛ إذ لم يكن يتناسب ذلك مع شأني، وبقيت حتى يصدر أمر انتهاء مدة نفيي بشكل رسميٍّ، وكنت أعلم أن ذلك لا يطول.

* إطلاق سراحي

وفي ليلة جاء رئيس الشرطة وقال لي: أنت مطلق السراح. لم أُبدِ أي تعجب أو سرور، وتلقّيت الخبر دون اكتراث به. تعجّب كثيراً من موقفي. ثم قلت له: أريد أن أبقى في جيرفت، استغرب أكثر وألحّ عليّ أن أغتنم الفرصة وأترك المدينة. قلت له: لا، سوف أبقى. وكان لي هدف من كلامي؛ لأني احتملت أن يكون في إطلاق سراحي مؤامرة تستهدف حياتي في الطريق. ولقد سمعت أن بعض المنفيين قد تمّت تصفيتهم في طريق عودتهم بواسطة اصطدام مصطنع. استمعت إلى هذا الخبر من إذاعة طهران التي كانت تنقل آنذاك وقائع مجلس الشورى. وجاء هذا الخبر على لسان أحد أعضاء المجلس. وكان المجلس آنئذ يموج بفوضى عجيبة، ويحاول بعض نوابه مَلَقاً أن يدافعوا عن الثوريّين. ثم إنّ إصرار رئيس الشرطة قوّى هذا الاحتمال.

قررت أن يكون خروجي من جيرفت دون علم من السلطة. بعثت لصاحبي «صديقي» سائق الشاحنة في «بم» ولشخص آخر في تلك المدينة وهو الحاج يزدان پناه من يدعوهما إلى المجيء إلى جيرفت. جاءا وقلت لهما: أريد أن أفرّ من جيرفت وحكيت لهما القصة. قالا:

سنذهب بك ليلاً، ولتبق سيارتك وأمتعتك في جيرفت كي لا تشعر السلطة بخروجك منها. كان معي في البيت أمتعة كثيرة جاء بها غالباً الإخوان الذين زاروني، أخذت الضروري منها وتركت الباقي، وقلت للإخوة: هذه الأمتعة وقف على المنفيّين إلى جيرفت. ولكن -لحسن الحظ- لم يستفد منها أحد، فالثورة اندلعت بإذن الله (تعالى) وانتصرت بفضله ومنّه.

خرجت من جيرفت في السحر وذهبنا إلى بَمْ. ثم جاء أحدهم بسيارتي إلى بَمْ. بقيت في هذ المدينة يومين التقيت فيهما بالأهالي، ثم اتّجهت إلى مدينة كرمان وكانت سفرةً ممتعةً حافلة بذكريات جميلة طوينا فيها الطريق ليلاً، وكان ثمة أكثر من داع للإحساس بسرور عميق، الحرية، وتصاعد الحركة الجماهيرية الإسلامية، وصور المستقبل المشرق. هذا إلى جانب متعة السفر الليلي في طريق بهيج.

ألقينا العصا في مدرسة من مدارس العلوم الدينيّة بكرمان، ثم توجّهت إلى السوق لشراء حذاء وجوارب؛ لأني كنت أكتفي بالنعال العادي في إيرانشهر وجيرفت دون جوارب لشدّة الحرّ فيهما، وهذا الوضع لا يناسب كرمان. غير أني وجدت سعر الحذاء لا يتناسب مع ما أملك، فأعرضتُ عن شرائه واكتفيتُ بشراء الجوارب.

كان من المنفيّين في كرمان الشيخ عباس پور محمدي[162] وهو من أهالي رفسنجان في محافظة كرمان، وكان مبعداً إلى «بندر لنگه» ثم نقل بسبب مرضه إلى كرمان للمعالجة. وكان يسكن في بيت كبير مشجّر لأحد تجار كرمان. ولما علم بوجودي في المدينة دعاني إلى ذلك البيت، وأصرّ عليّ أن أقيم فيه، فوافقت، وبقيت يومين في هذه المدينة. وكانت فترة

مليئة بالزيارات واللقاءات، فلقد سبق أن عرفني أهل كرمان، فتوافدوا عليّ. وكنت أستقبل الجماعات الزائرة القادمة إلى البيت منذ الصباح حتى المساء. وخلال مدة إقامتي القصيرة في كرمان بلغنا نبأ ضغط النظام العراقي على الإمام الخميني في النجف، ومحاصرة بيته.

ذهبتُ بعد كرمان إلى يزد فرأيتُ الشيخ صدوقي قائداً للمدينة بكل ما لكلمة القيادة من معنى. يحدد للناس موقفهم ويعيّن واجبهم في كل الأمور النضالية والسياسيّة والاقتصاديّة، ويعلمهم كل شيء. يعيش ساحة الثورة بكلّ جرأة، ويخوض المعركة مع النظام كالأسد الهصور لا يخاف شيئاً ولا يهاب أحداً. يقطع الشوارع والطرقات في الساعات المتأخرة من الليل دون حراسة. وفي يزد سمعت أنّ الإمام اتجه إلى باريس. ومن يزد سافرت بالطائرة إلى طهران ومنها إلى مدينة مشهد. بقيتُ في مشهد أنهض بأعباء الثورة حتى استُدعيت إلى طهران بأمر الإمام الراحل في قصة لا مجال لذكرها للاشتراك في مجلس قيادة الثورة الإسلامية. و في 11شباط/فبراير 1979م انتصرت الثورة الإسلامية. وفي أوائل 1981م انتُخِبتُ رئيساً للجمهورية، وكان بين إطلاق سراحي من المنفى وانتخابي عضواً لمجلس قيادة الثورة حوالي شهرين، وبين إطلاق السراح وانتخابي رئيساً للجمهورية أقلّ من ثلاث سنوات.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» * و «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» **.

---

* سورة الروم: 4 - 5

** سورة الصافّات: 180 - 182

الهوامش

1. **مشهد الرضا**، ثاني أكبر مدينة في إيران وأكثرها سكاناً، تقع في شمال شرقي البلد، وهي مركز محافظة خراسان الرضوية. فيها مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ولذلك تستضيف سنوياً ملايين الزوار من داخل إيران وخارجها.

2. **الإمام علي بن موسى الرضا** عليه السلام، هو أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومن سلالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهو ثامن أئمة الشيعة. بدأت مرحلة إمامته بعد استشهاد أبيه الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام في عهد هارون الرشيد. وبعد موت هارون الرشيد أجبره المأمون العباسي على القدوم إلى خراسان وقبول ولاية العهد. وكان المأمون يعتزم بذلك تشويه سمعة آل بيت النبوة دفعاً لخطر إقبال المسلمين على الإمامة والولاية في هذه الشجرة الطيبة، ولكن على الرغم من ولاية عهد الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام إلّا أن مكانته لم تنتقص عند المسلمين، وفشل المأمون في تحقيق أهدافه. وأخيراً استشهد الإمام بالسمّ الذي دسّه إليه المأمون العباسي في طوس. وقد أضحى مرقده اليوم مزاراً عظيماً في مدينة مشهد المقدسة.

3. **السيد هاشم ميردامادي نجف آبادي، (1886 - 1960م)** هو جدّ الإمام الخامنئي لأمّه. تتلمذ في الفقه والأصول على يد كبار علماء زمانه في النجف الأشرف. وكان ذا منحى عرفاني وذا صلة بشخصيات كبيرة من أمثال السيد أحمد الكربلائي والسيد مرتضى الكشميري. بعد هجرته إلى مشهد أضحى من علماء خراسان ومن رجال الدين المجاهدين خلال فترة حكم رضا شاه

بهلوي، ومن المعارضين لمشروع السفور الإجباري والقبعات البهلوية، ومن علماء الدين الناشطين في انتفاضة مسجد كوهرشاد. أُلقي القبض عليه بعد هذه الواقعة وقضى ستة أعوام في المنفى.

4. **رضا بهلوي، (1944 – 1878م)** أحد المنتسبين لقوات القزاق العسكرية التي تم تأسيسها من قبل الروس خلال العهد القاجاري. ورغم أنه في أواخر حكم القاجار كان من قادة قوات القزاق، أُنيطت إليه من قبَل ضباط الاستخبارات البريطانية مهمة تدبير انقلاب عسكري ضد الحكم القاجاري في إيران، فأنجز هذه المهمة في آذار 1921 م، وتم انتخابه رئيساً للوزراء في إيران بضغوط بريطانية. وفي سنة 1925 م، وبمساعدة البريطانيين، أعلن نهاية السلالة القاجارية. قدّم الكثير من الخدمات للبريطانيين، وكانت فترة حكمه، التي انتهت بانقلاب بريطاني آخر، من أكثر فترات الحكم الملكي مرارة في إيران.

5. **السيد محمد حسن الحسيني (1895 - 1815م)** المشهور بالميرزا الشيرازي، أحد كبار مراجع وزعماء الشيعة، تولى مرجعية الشيعة العامة بعد وفاة أستاذه الشيخ مرتضى الأنصاري. وكان عالماً بصيراً عارفاً بزمانه. عُرف في التأريخ المعاصر بفتوى تحريم التبغ والتنباك المناهضة للشركة البريطانية المعتدية. وكان من زعماء الكفاح ضد النفوذ الاستعماري في البلدان الإسلامية وخصوصاً في إيران.

6. **الحركة الدستورية، (1907 – 1905م)** حركة اجتماعية سياسية في إيران انطلقت في بدايات القرن العشرين بقيادة رجال الدين من ذوي البصائر في سبيل كبح جموح السلطة الملكية وتحقيق العدالة والمصالح العامة. ولكنها تحوّلت بتدخّل بريطانيا وعملائها إلى دستورية ملكية، وكان هذا التدخل مستهلاً لتعاسة إيران وتفشّي مشاكلها وإهدار دماء كثيرة من أبناء شعبها. بعد أن خشيت بريطانيا قوة رجال الدين الشعبيين إثر نهضة تحريم التنباك، خلقت ظروفاً مأزومة في إيران فأقصت الوجوه والشخصيات المؤثرة من رجال الدين، وقدّمت العناصر التابعة لها، وحاولت زعزعة وإضعاف التيار الوطني الديني في إيران.

7. محمد خياباني، (1920 - 1880م) رجل دين مجاهد وواعظ ومن المطالبين بالحرية في انتفاضة الشعب ضدّ الحكم الاستبدادى القاجاري. بعد سقوط مدينة تبريز، استشهد على يد أزلام الدولة القاجارية. دخل نائباً في الدورة الثانية لمجلس الشورى الوطني، بيد أن معظم شهرته تعود لمشاركته في الانتفاضة ضد وثوق الدولة. دفن جثمانه بعد استشهاده في صحن مرقد السيد عبد العظيم الحسني بطهران.

8. محمد كاظم الخراساني، (1911 - 1839م) المعروف بالآخوند الخراساني، أحد مراجع التقليد والفقهاء المشهورين في النجف وصاحب الكتاب المعروف «كفاية الأصول». وهو من تلامذة الفقيهَين الكبيرَين الشيخ مرتضى الأنصاري والميرزا الشيرازي، وأحد أبرز حماة الحركة الدستورية في إيران.

9. السيد أبو الحسن الأصفهاني، (1946 - 1860م) أحد كبار مراجع الدين في النجف. تسنّم زعامة الشيعة على مدى سنين طويلة في جميع الأقطار، وقد تتلمذ على يديه الكثير من كبار علماء الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

10. قم، من مدن إيران الكبيرة، تقع على بعد 125 كيلومتراً من جنوب طهران. فيها مرقد السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام ابنة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام. وتعدّ أكبر مركز للعلوم الدينية في إيران والعالم، يسكنها عدد كبير من طلبة العلوم الدينية وأساتذتها، وتحتوي على العديد من مراكز الأبحاث والدراسات.

11. زاهدان، من المدن الكبيرة في إيران ومركز محافظة سيستان وبلوشستان. من حيث المواهب الإقليمية والسعة تحولت بعد الثورة إلى أحد المراكز الاستراتيجية والتجارية في إيران.

12. حافظ الشيرازي، (1390 - 1315م) الخواجة شمس الدين محمد المعروف بحافظ، أحد أكبر وأشهر الشعراء الإيرانيين، عاش في القرن الثامن الهجري. ومردّ لقبه إلى حفظه مختلف قراءات القرآن الكريم. ألهمت أشعاره الكثير من كبار العرفاء، وهي تعدّ من أجمل وأرصن وأشهر الأشعار الفارسية.

13. السافاك، منظمة الأمن والاستخبارات الإيرانية التابعة لرئاسة الوزراء في زمن الشاه، وهي من أهم المؤسسات الأمنية والاستخباراتية التي أسسها

النظام البهلوي بعد انقلاب 19 آب 1953م بمساعدة وتوجيه من أمريكا في سنة 1956 م. يعتبر السافاك أداةً لتنفيذ الكثير من مطاليب المخابرات الأمريكية (السي آي أي) والمخابرات الإسرائيلية (الموساد). مارست هذه المنظمة خلال عقدي الستينيات والسبعينيات أكبر دور في التصدي للمناضلين والمجاهدين، حيث قُتلت طائفة من الثوار في معتقلات السافاك وقُتل آخرون خارج السجون بأشكال مختلفة بتدبير من السافاك. ولا يزال الكثير من الثوار يحملون في أذهانهم ذكريات تعرّضهم للتعذيب في معتقلات السافاك. من خصوصيات السافاك وممارساتهم خلق أجواء رعب وإرهاب وبثّ إشاعات وتلفيق ملفات لأشخاص أبرياء، واعتقالات دون رادع، وتعذيب بأكثر الأساليب تطوراً. في أواخر عقد الستينيات وعقد السبعينيات خضع جهاز السافاك لدورات تدريبية على يد الكيان الصهيوني الغاصب في مجال التعذيب، وكانت نتيجة ذلك تأسيس اللجنة المشتركة لمكافحة التخريب، والتي خلقت فترة عصيبة للثوار ومعارضي النظام البهلوي.

14. **محمد مصدّق (1879 - 1966م)** سياسي وطني إيراني. استطاع كممثل للتيار الوطني بتحالفه مع التيار الديني بزعامة آية الله أبو القاسم الكاشاني أن يتولى رئاسة الوزراء في إيران. الخطوة الأهم التي قام بها هي تأميم النفط الإيراني. إنه كان يرى السلطة البهلوية من صنيع السياسة البريطانية، ومن أجل مقارعتها مال إلى أمريكا، لكنه سقط أخيراً بالانقلاب الأمريكي البريطاني المشترك في 19 آب 1953 م. وهو يعتبر في إيران رمزاً للثقة بأمريكا.

15. **فتنة أذربيجان (1946 - 1947م)**، في سنة 1946م أقدمت جماعة من العناصر المرتبطة بالدولة الشيوعية السوفيتية، وبدعم سياسي وعسكري من تلك الدولة، على إعلان استقلال إقليم أذربيجان الإيراني شمال غربي البلاد، ما يعني تقسيم إيران. وانتهت هذه الأزمة الوطنية في نهاية المطاف سنة 1947 بجهود الإيرانيين الغيارى في أذربيجان وزنجان وبحضور القوات العسكرية الإيرانية، فقتل بعض المتمردين المطالبين بالتقسيم ولجأ البعض الآخر إلى الاتحاد السوفيتي.

16. **السيد أبوالقاسم الكاشاني، (1885 - 1961م)** ولد في طهران، وتوجّه إلى

النجف الأشرف في الخامسة عشرة من عمره لدراسة العلوم الدينية، وتتلمذ على يد كبار أساتذتها وأصبح من علماء الدين الأعلام. كان يحمل رؤية سياسية وكان عارفاً بمجريات عصره. في أحداث الحرب العالمية الأولى والحركة الجهادية لعلماء النجف ضد المحتلين في العراق، كان آية الله الكاشاني أحد علماء الدين المجاهدين المكافحين، وقد صدر حكم إلقاء القبض عليه بعد احتلال العراق. وبعد هجرته إلى إيران لاقى ترحيباً جماهيرياً وتولى نيابة الشعب لعدة دورات في مجلس الشورى الوطني. وإنّ دعمه للدكتور مصدّق في قضية تأميم النفط أدى إلى دعم جماهيري للأخير. ولكن آل هذا الاتحاد إلى الخلاف بسبب إثارة التفرقة من جهة وعدم التزام مصدّق بوعوده من جهة أخرى، فأفضى إلى سقوط حكومة مصدّق. كما كان آية الله الكاشاني من أبرز حماة نواب صفوي وحركة فدائيي الإسلام.

17. السيد حسن الطباطبائي القمي، (1911 - 2007م) وهو نجل آية الله العظمى السيد حسين الطباطبائي القمي. ولد في النجف الأشرف وانتقل خلال فترة طفولته مع أبيه إلى مدينة مشهد وبدأ فيها بدراساته الحوزوية. بعد حادثة مسجد كوهرشاد تم نفيه مع أبيه إلى كربلاء، وبعد وفاة والده عاد إلى مشهد في أواخر عقد الأربعينيات من القرن العشرين. في سياق نهضة الإمام الخميني التي انطلقت عام 1963 م، انخرط في النشاطات السياسية والكفاح ضد الشاه، حتى ألقي عليه القبض في انتفاضة الخامس من أيار سنة 1963 م، وبقي محبوساً في طهران لعدة أشهر عاد بعدها إلى مشهد. وبعد سنتين جرى نفيه إلى مدينة خاش ومنها بعد سنة واحدة إلى مدينة كرج بسبب معارضته للحكم البهلوي. وبقي منفياً إلى ما قبل انتصار الثورة بأشهر قليلة. في السنوات الأولى بعد انتصار الثورة ومع بدء الحرب المفروضة، كانت للسيد حسن القمي مواقف حول الثورة الإسلامية والإمام الخميني أدت إلى عزلته ونفور الثوريين منه. وأخيراً توفي في مشهد سنة 2007 م.

18. محمدرضا بهلوي (1919 - 1980م) ويعرف أيضاً بمحمد رضا شاه بهلوي، ثاني ملوك السلالة البهلوية وآخر ملكٍ في إيران. وصل إلى سدة الحكم

بدعم من بريطانيا بعد انقلابها ضد والده. وكانت فترة حكمه استكمالاً للمظالم والمفاسد في عهد والده، وقد جرّ إيران يوماً بعد يوم إلى التبعية للقوى العالمية أكثر فأكثر. في سنة 1953م كان أحد المدبّرين لانقلابٍ ضد الحكومة الإيرانية؛ الأمر الذي فتح أبواب إيران على مختلف الشركات الغربية ووضع ممتلكات البلد تحت تصرفها. في زمانه تم تأسيس السافاك الذي يعد منظمة قمعية رهيبة قبيحة، وتمت المصادقة على الحصانة القضائية للأمريكيين في إيران. وكانت حكومته تعدّ أهم مقر لأمريكا وللغرب في الشرق ولاسيما في منطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط. كما وكانت له علاقات وثيقة بإسرائيل. غادر إيران بعد ثورة شعبية طالت خمسة عشر عاماً، وبذلك انتهى حكم الملوك في إيران. تربّع محمد رضا شاه على كرسي السلطة للمرة الأولى بعد احتلال إيران في الحرب العالمية الثانية، وللمرة الثانية بعد انقلاب 19 أب 1953 م، وخُلع من السلطة بانتصار الثورة الإسلامية سنة 1979 م.

19. الميرزا أبوالقاسم بن محمد حسن الكيلاني (1815 - 1738م) والذي عرف باسم الميرزا القمي بسبب إقامته في قم. كان من كبار العلماء والأصوليين وصاحب كتاب «قوانين الأصول» ومن مراجع الدين الشيعة، وكان في زمانه موضع اهتمام الجميع. يكفي في بصيرته ومعرفته بزمانه أنه أصدر هو وجماعة من علماء الشيعة في ذلك العصر، إثر هجوم الدولة القيصرية الروسية على إيران، كتاب «مسائل جهادية» قاموا فيه بتحريض الناس على الجهاد؛ الأمر الذي أدى إلى هزيمة الأعداء.

20. حادثة التنباك، في عام 1890م عقد تاجر بريطاني، بدعم من الحكومة البريطانية، معاهدة تجارية داخلية وخارجية احتكارية خاصة بالتبغ والتنباك مع الملك الإيراني ناصر الدين شاه القاجاري إزاء مبلغ من المال. وتقتضي هذه المعاهدة استخواذ ذلك التاجر وحكومة بلاده على جزء من مقدرات المجتمع الإسلامي في إيران. وعلى هذا الأساس أفتى مرجع الشيعة العام المرحوم الميرزا محمد حسن الشيرازي بحرمة استعمال التبغ والتنباك، فتركت هذه التفوى أثراً كبيراً في إيران وجزء من العراق، وامتنع الناس حتى

في داخل بلاط الشاه عن التدخين واستعمال التبغ والتنباك عملاً بحكم المرجعية. وبفضل هذه المقاومة الوطنية تراجع الشاه والشركة البريطانية عن المعاهدة. والحادثة هذه قد نبّهت الحكومة البريطانية الاستعمارية على قوة القيادة الدينية أكثر من السابق.

21. السيد حسن المدرس، (1870 - 1937م) من علماء الدين المعاصرين. تتلمذ في النجف الأشرف على يد عدد كبير من الأساتذة الكبار في الفقه والأصول والفلسفة. واختاره مراجع النجف كواحد من خمسة فقهاء يشرفون على قرارات مجلس الشورى الوطني، ولذلك شدّ رحله إلى طهران ومارس التدريس ثم نيابة مجلس الشورى. وكان في كل المواقف وخصوصاً نيابة المجلس صلباً صامداً على الهوية الإسلامية والوطنية، ولذا واجه رضا خان الذي كان منفذاً لسياسات الأجانب، كما جابه كل قوى الظلم والفساد ولاسيما عملاء الأجانب. مارس السيد حسن المدرس دراساته في قم والنجف على يد أساتذة من أمثال الميرزا جهانكير خان قشقائي، والسيد محمد باقر درجئي، وصاحب الشريعة الأصفهاني، وبعد نيله درجة الاجتهاد عاد إلى إصفهان. وتم اختياره في الدورة الثانية من مجلس الشورى الوطني كواحد من خمسة مجتهدين للإشراف على قرارات المجلس وانسجامها مع الشريعة الإسلامية كما في الدستور. ودخل نائباً في مجلس الشورى الوطني لأربع دورات. لعب دوراً هاماً في مقارعة استبداد رضا شاه، وجرت ذات مرة محاولة اغتياله لكنها لم تنجح. تم إلقاء القبض عليه بأمر من رضا خان في سنة 1927، ونفي إلى مكانٍ لمدة تسعة أعوام. وأخيراً دُسّ له السمّ من قبل أزلام رضا شاه في منفاه عام 1937 واستشهد على أثر ذلك.

22. فاجعة گوهرشاد، في تموز من عام 1935م اجتمع أهالي مدينة مشهد المتدينين الغيارى في مسجد گوهرشاد، اعتراضاً على قانون السفور الإجباري للنساء وتغيير زيّ الرجال إلى الزيّ الأوروبي. وتم قمع هذا التجمع بأمرٍ من رضا شاه بهلوي بواسطة القوات الحكومية. حيث قتل في هذه الواقعة عدد كبير من الناس، وقد تركت تأثيراً بليغاً على التطورات السياسية الأخيرة في إيران.

23. طهران، أكبر مدينة إيرانية من حيث التعداد السكاني، وهي عاصمة إيران منذ أول ملوك القاجار (1786م) وإلى اليوم.
24. مسجد گوهرشاد،يقع مسجد گوهرشاد الجامع بجوار مرقد الإمام الرضا عليه السلام. شُيّد هذا المسجد بواسطة السيدة گوهرشاد زوجة شاهرخ شاه التيموري في القرن الثامن للهجرة.
25. الفريق أول حسين فردوست (1917 - 1987م) أحد أصدقاء محمد رضا بهلوي منذ فترة طفولته وأحد أبرز الشخصيات السياسية - الاستخباراتية في الحكم البهلوي وأكثرها تأثيراً. نجد في ملفه نشاطاتٍ من قبيل تأسيس المكتب الاستخباراتي الخاص بالشاه، ونائب رئيس السافاك، ورئيس التفتيش الملكي. وكان من المخلصين للشاه طوال فترة حكمه. ألقي القبض عليه بعد انتصار الثورة الإسلامية. ويُعدّ كتاب مذكراته من المصادر التأريخية المهمة في المرحلة المعاصرة.
26. مدرسة سليمان خان العلمية (مدرسة السليمانية) من المدارس الفاعلة منذ القِدَم في مدينة مشهد، يعود ماضي النشاط فيها إلى العهد القاجاري.
27. مدرسة نواب العلمية أو مدرسة الصالحية (تأسست سنة 1086 هـ)، من المدارس العلمية الشهيرة في مشهد. وكانت تعتبر من المدارس النشيطة والمهمة خلال فترة المراهقة والشباب للإمام الخامنئي.
28. السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، (1899 - 1992م)، أحد مراجع الشيعة المعاصرين وصاحب مؤلفات ودروس فقهية وأصولية مهمة في الحوزة العلمية بالنجف. تولى زعامة الشيعة وخصوصاً في العراق بعد وفاة آية الله السيد محسن الحكيم. وتخرّج على يديه عدد كبير من الفقهاء والطلاب خلال فترة طويلة من التدريس، وهو من هذه الناحية جدير بلقب الأستاذ. رغم اشتهاره بعدم التدخّل في الشؤون السياسية وعيشه في العراق خلال فترة تسلط حزب البعث العصيبة، لكنه في سنوات عمره الأخيرة وفي عام 1991م تزعّم حركة ثورية موسومة بالانتفاضة الشعبانية في العراق، وسيطر المنتسبون إليه على أجزاء من هذا البلد، إلا أنّ هذه الحركة واجهت قمعاً

وحشياً من قبل نظام صدام، حيث استشهد عدد كبير من الناشطين والناس في هذه الأحداث، ولم يُكتب الانتصار لهذه الحركة. ولكنها تركت تأثيراً كبيراً على نجاح الحراك الجماهيري في العراق بعد سقوط صدام. بعد أن لبّى آية الله السيد الخوئي نداء ربه في صفر سنة 1992 م، أصدر الإمام الخامنئي بياناً مفصلاً ثمّن فيه مساعي السيد الخوئي طوال عمره المديد المبارك، كما أقام له مجلس فاتحة في مسجد الإمام الخميني بطهران.

29. السيد محسن الطباطبائي الحكيم، (1970 - 1889م) من مراجع الشيعة، تولى المرجعية الدينية بعد وفاة آية الله البروجردي بوصفه مرجعاً لغالبية الشيعة. وكان له دوره الحاسم في اتحاد شيعة العراق خلال الفترة المعاصرة خصوصاً في زمن حكم حزب البعث المعاند. استشهد عدد كبير من أبنائه وأحفاده على يد نظام صدام إبّان حكمه. وأصبح ابنه في فترة ما بعد سقوط صدام قائد الثورة في العراق ومظهراً للتحرر من نظام البعث في هذا البلد.

30. السيد حسن الموسوي البجنوردي، (1975 - 1897م) تتلمذ على يد كبار علماء الدين في النجف الأشرف من قبيل الميرزا النائيني والمحقق العراقي والمحقق الأصفهاني. له تأليفاته في الفقه والأصول، وهو من أساتذة الحوزة العلمية المبرزين في النجف.

31. السيد محمود الحسيني الشاهرودي، (1883 - 1974م) من مراجع الدين المعاصرين وأحد تلامذة الميرزا النائيني والمحقق العراقي، وهو مؤسس أول بعثة حج لمكة والمدينة، ومحيي سنّة زيارة كربلاء مشياً على الأقدام.

32. الميرزا محمد باقر الزنجاني، (1894 - 1974م) تتلمذ على يد كبار الأساتذة في النجف من قبيل الميرزا محمد تقي الشيرازي والسيد الأصفهاني والميرزا النائيني، وكان من كبار علماء الدين والأساتذة المرموقين في الحوزة العلمية بالنجف الأشرف.

33. السيد محمد هادي الحسيني الميلاني، (1975 - 1895م) من مراجع الدين والشخصيات العلمية والاجتماعية والسياسية المعاصرة. تتلمذ على يد علماء كبار من أمثال الميرزا النائيني والمحقق العراقي. سكن معظم فترة حياته في

النجف وكربلاء، وشدّ رحاله إلى مدينة مشهد المقدسة في سنة 1953م. خاض ميدان الشؤون السياسية في إيران بما له من بصيرة، وكانت له صلته بالتيارات السياسية، وكان ناشطاً في بعض القرارات الصادرة ضد النظام البهلوي الحاكم. واكب نهضة الإمام الخميني في بداياتها على مستوى الحوزة العلمية في خراسان. تتلمذ الإمام الخامنئي لسنين طويلة على يديه، وحاز منه إجازة نقل الحديث. كان السيد الميلاني من مؤيدي نهضة الإمام الخميني في بدايتها، بيد أنّ الدعم هذا أخذ يتضاءل في السنوات اللاحقة. ومن المشهور في التأريخ أنه هو الذي أصدر فتوى قتل رئيس وزراء الشاه حسن علي منصور الذي صادق على قرار الحصانة القضائية للأمريكيين في إيران.

34. جبران خليل جبران (1883 – 1931م)، شاعر وكاتب لبناني شهير.

35. السيد قطب، (1906 - 1966م) كاتب ومنظّر مصري من أعضاء الإخوان المسلمين. حظيت نظرياته في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين بإقبال المجاهدين والمناضلين الإسلاميين في مختلف البلدان. تم إعدامه بأمرٍ من جمال عبد الناصر في 29 آب 1966م بتهمة التآمر لإسقاط النظام. ترجم الإمام الخامنئي خلال فترة الكفاح ضد النظام البهلوي عدداً من كتبه من قبيل «في ظلال القرآن» و«المستقبل لهذا الدين» و«الإسلام ومشكلات الحضارة».

36. الشيخ راضي آل ياسين، (1993 – 1935م) أحد علماء الشيعة في العراق. من بين مؤلفاته حظي كتاب «صلح الحسن» باهتمام الكثير من المفكرين، وهو كتاب ينمّ عن فهمه الدقيق لتأريخ الصدر الأول من الإسلام وسيرة الأئمة عليهم السلام وطريقتهم الجهادية. تُرجم هذا الكتاب بواسطة الإمام الخامنئي، خلال سنوات الكفاح ضد النظام البهلوي، تحت عنوان «صلح الإمام الحسن عليه السلام أعظم مرونة بطولية عبر التأريخ»، وطبعت الترجمة في سنة 1969 م.

37. كتاب الأغاني من المصادر التي تبيّن الظروف الزمكانية في المدينة المنورة في عصر الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام ، وهما من أكثر أئمة أهل البيت عليهم السلام استناداً في الفقه الإمامي؛ لكثرة الروايات المنقولة عنهما؛ لذلك يعبّر الكتاب عن جزء من الأجواء الاجتماعية الحاكمة آنذاك، والتي تعين الفقيه

في استنباط الحكم الشرعي في موضوعات كالغناء.

38. محمد مهدي الجواهري، (1997 – 1899م) من أكبر الشعراء الكلاسيكيين العراقيين. يرتفع نسبه إلى آية الله الشيخ محمد حسن النجفي صاحب كتاب جواهر الكلام. عرف الجواهري في الأدب العربي بشعره السياسي ولاسيما حول قضايا العراق. كانت له في سنة 1992م زيارته لإيران التي استمرت ستة أشهر، حيث التقى خلالها بالإمام الخامنئي. توفي في الصيف من سنة 1997م في دمشق ودفن في الزينبية.

39. السيد محمد جواد فضل الله، (1975 – 1938م) رجل دين لبناني وأخو العلامة السيد محمد حسين فضل الله. تعود صداقته للإمام الخامنئي إلى فترة إقامته في النجف الأشرف لمدة قصيرة. كانت للسيد محمد جواد فضل الله في سنة 1963م زيارته لإيران، حيث التقى فيها بالإمام الخامنئي في مشهد. توفي وعمره لا يتجاوز الثامنة والثلاثين.

40. السيد مجتبى ميرلوحي طهراني (1924 - 1955م) المعروف بنواب صفوي، زعيم جماعة فدائيي الإسلام. بعد فراغه من الدروس التمهيدية توجّه إلى النجف الأشرف لمواصلة دراسة العلوم الدينية، وتتلمذ هناك على يد السيد أبو الحسن الأصفهاني والعلامة الأميني والسيد أسد الله مدني. بعد ظهور أحمد كسروي - المروّج للإلحاد والمسيء للشعائر الإسلامية - في إيران، عاد إلى هذا البلد لمكافحة أفكاره بتوجيه من آية الله السيد أبو الحسن الأصفهاني، وأسّس جماعة «فدائيي الإسلام». واحدة من الهموم الرئيسية التي يحملها نواب صفوي وأنصاره هي مواجهة النظام البهلوي ومجابهة الحياة الغربية المنحطة، حيث عمل لسنين على التبليغ والدعوة في المجتمع واستقطاب الشباب الإسلامي الناشط المتحفز. وقد دخل الكثير من أنصاره في زمرة الناشطين في نهضة الإمام الخميني. حظي نواب صفوي وأتباعه بدعم عدد من كبار الحوزة العلمية في قم، ودعم آية الله الكاشاني في طهران كذلك. كانت له خلال فترة نشاطه السياسي رحلاته إلى بلدان إسلامية، بما فيها الأردن ومصر، وقد ألقى محاضرات في جامعة الأزهر. استشهد زعيم فدائيي الإسلام مع عدد من

أتباعه في 17 كانون الثاني 1956م على يد النظام البهلوي. له كتاب «المجتمع والحكومة الإسلامية» الدالّ على ما يحمله هو وأنصاره من همّ وهاجس.

41. فدائيو الإسلام، وهي جماعة تأسست في سنة 1945م بقيادة أحد طلبة العلوم الدينية، وهو السيد مجتبى نواب صفوي، بهدف إحياء الهوية الدينية المضيّعة للشعب الإيراني المسلم وإصلاح الظروف المتفاقمة في البلاد. وقد تصرّفت هذه الجماعة المتألّفة من الشباب المناضل المتحمس بشجاعة في التصدي للمتجاهرين بخيانة البلد، وكان لهذا أثره البالغ في بثّ روح الشجاعة بين العناصر المتدينة. تعتبر هذه الجماعة في عقد الأربعينيات والخمسينيات واحدة من الجماعات السياسية والاجتماعية المؤثرة في إيران. وقد بادرت إلى إعدام كلّ من أحمد كسروي وعبد الحسين هجير وعلي رزم آرا بسبب خياناتهم المتعددة في حق الشعب الإيراني. وبعد الانقلاب الأمريكي المدبَّر ضد الحكومة الوطنية الإيرانية، اعتقلت حكومة الانقلاب أعضاء هذه الجماعة وسجنتهم ثم نفّذت فيهم حكم الإعدام. وبعد محاولة الاغتيال الفاشلة لحسين علاء في سنة 1955م من قبل هذه المنظمة، تم اعتقال نواب صفوي وعدد آخر من أعضائها وحكم عليهم بالسجن والإعدام.

42. السيد حسين الطباطبائي البروجردي، (1961 - 1875م) تتلمذ على يد كبار علماء الدين كالآخوند الخراساني، وكان من أعاظم مراجع الدين في الفترة المعاصرة. تولّى زعامة الحوزة العلمية في قم لمدة 17 عاماً وتسنّم المرجعية العامة للطائفة خلال 15 عاماً. انتقل إلى قم بدعوة ثلاثة من مراجع الدين فيها واستلم زعامة الحوزة العلمية هناك. وقد تطورت الحوزة العلمية في قم خلال فترة مرجعيته. وتم بدعم منه إحياء ونشر العديد من الآثار الحديثية والفقهية. كما ودُوّنت مجموعة «جامع أحاديث الشيعة» الكبيرة تحت إشرافه. كان مؤمناً بالتقريب بين المذاهب الإسلامية. وجاءت فتوى الشيخ محمود شلتوت الشهيرة بالاعتراف بالفقه الشيعي لدى أهل السنة نتيجة نشاطات السيد البروجردي التقريبية. كما وكان خلال فترة مرجعيته سداً منيعاً بوجه الممارسات والخطوات اللادينية للنظام البهلوي العميل. وتوفي في قم سنة 1961 م.

43. مرتضى مطهري، (1919 - 1979م) من تلامذة آية الله السيد حسين البروجردي والإمام الخميني والعلامة الطباطبائي، حيث تتلمذ عليهم لسنين طويلة في الفقه والأصول. وفي بداية عقد الخمسينيات من القرن العشرين انتقل إلى طهران وبدأ بعد مدة بالتدريس في كلية الإلهيات بجامعة طهران. فضلاً عن نشاطاته النضالية كانت له نشاطاته الثقافية الواسعة، من خلال تأليف الكثير من الكتب وإلقاء العديد من المحاضرات، في الردّ على الشبهات الرائجة يومذاك بين جيل الشباب ودفع الهجمات العقيدية ضد الدين لا سيما من قِبَل الماركسية التي استقطبت في ذلك العهد عدداً كبيراً من الأنصار. وإنّ تأسيس حسينية إرشاد بطهران تعدّ واحدة من مبادراته الثقافية والتبليغية والاجتماعية الهامة. ألقي عليه القبض لعدة مرات بسبب نشاطاته التبليغية ومواكبته لنهضة الإمام الخميني. بعد انتصار الثورة الإسلامية أصدر الإمام الخميني حكماً عيّنه فيه رئيساً لشورى الثورة. استشهد الأستاذ مطهري بعد أشهر قليلة من انتصار الثورة في ربيع 1979م على يد زمرة «فرقان». قال في حقه الإمام الخميني بعد استشهاده: «كان مطهري ولدي العزيز ودعامة متينة للحوزات الدينية والعلمية وخادماً مفيداً للشعب وللبلد».

44. السيد محمد حسيني بهشتي، (1928 - 1981م) من تلامذة آية الله السيد البروجردي والإمام الخميني والمحقق الداماد والعلامة الطباطبائي. وبالإضافة إلى دراسته الحوزوية حاز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة والإلهيات. وحيث كان متقناً للغتين الإنجليزية والإلمانية، ذهب باقتراح آية الله الميلاني إلى هامبورغ لمزاولة النشاط التبليغي والديني بين سكّان ألمانيا، وتولى هناك إدارة المركز الإسلامي في هذه المدينة. شارك في تأسيس مدرسة علمية بقم، يتلقى طلابها فضلاً عن الدروس الحوزوية دروساً في الفلسفة واللغات الأجنبية أيضاً. ألقي عليه القبض في مشواره النضالي، وبعد انتصار الثورة لعب دوراً هاماً في إرساء دعائم الجمهورية الإسلامية بصفته عضواً في شورى الثورة ونائباً لرئيس مجلس خبراء تدوين الدستور وأول أمين عام للحزب الجمهوري الإسلامي. حاز من الإمام الخميني على حكم بتعيينه أول رئيس للسلطة القضائية في

الجمهورية الإسلامية، وكان منذ بداية الثورة من الشخصيات المستهدَفة من قِبَل الأعداء، حيث تعرّض للكثير من الهجمات الإعلامية. وأخيراً استشهد في 28 حزيران 1981م، في الانفجار الكبير الذي تعرض له مكتب الحزب الجمهوري الإسلامي بطهران من قبل منظمة المنافقين، واستشهد معه في تلك الحادثة 72 شخصية سياسية مهمة في إيران.

45. محمد جواد باهنر، (1933 - 1981م) رئيس الوزراء الثالث في الجمهورية الإسلامية، ومن تلامذة الإمام الخميني والعلامة الطباطبائي. كان من الناشطين في الكفاح ضد النظام البهلوي حيث ألقي القبض عليه مراراً من قبل أجهزة ذلك النظام. بالإضافة إلى دراساته الحوزوية حاز على شهادة الدكتوراه في الإلهيات من جامعة طهران كما حاز على ماجستير علوم تربوية. عمل قبل الثورة مع الشهيد بهشتي في تدوين كتب دينية مناسبة للتلاميذ. وخلال حقبة الجمهورية الإسلامية كان عضواً في شورى الثورة وأحد الخمسة الأوائل المؤسسين للحزب الجمهوري الإسلامي. استشهد باهنر في 30 آب 1981م عندما كان رئيساً للوزراء في حكومة محمد علي رجائي خلال انفجار إرهابي استهدف مكتب رئاسة الوزراء نفّذته منظمة المنافقين، واستشهد معه رئيس الجمهورية محمد علي رجائي.

46. أكبر هاشمي رفسنجاني، (1934 - 2017م) رجل دين وسياسي إيراني ومن أصدقاء الإمام الخامنئي القدامى منذ فترة الدراسة في قم وحقبة الكفاح ضد النظام البهلوي. ألقي عليه القبض عدة مرات من قبل أجهزة النظام البهلوي في سياق العمل النضالي. وكان اسم هاشمي والإمام الخامنئي من ضمن رجال الدين الأحد عشر المجاهدين الذين أسسوا في عقد الستينيات للميلاد مركزاً لإصلاح الحوزة العلمية في قم. في الأيام الأولى بعد انتصار الثورة تأسّس الحزب الجمهوري الإسلامي على يد الشيخ هاشمي رفسنجاني والإمام الخامنئي والشهيد بهشتي والشهيد باهنر والسيد عبد الكريم الموسوي الأردبيلي. العضوية في شورى الثورة، والمسؤول عن وزارة الداخلية، ورئاسة مجلس الشورى الإسلامي، ونائب القائد العام للقوات

المسلحة وقائد الحرب، ودورتين من رئاسة الجمهورية، ورئاسة مجمع تشخيص مصلحة النظام الإسلامي، وإمامة جمعة طهران من سنة 1981 إلى 2009 م، وتمثيل أهالي طهران في مجلس خبراء القيادة، ورئاسة هذا المجلس من سنة 2007 إلى 2010 م، تشكّل جانباً من سجّل الشيخ رفسنجاني في سنيّ ما بعد انتصار الثورة. بعد أن توفي في كانون الثاني 2017، وصفه الإمام الخامنئي في بيان تعزيته قائلاً: «صديقي القديم، ورفيق خندقي والمواكب لعهد كفاح النهضة الإسلامية وزميلي القريب على مدى سنين طويلة في عهد الجمهورية الإسلامية».

47. علي شريعتي، (1933 - 1977م) مستنير وعالم اجتماع إيراني، درس لفترة في جامعة السوربون بفرنسا. دعي سنة 1968م من قبل الشيخ مرتضى مطهري لإلقاء محاضرات في حسينية إرشاد بطهران، وأصاب بعد ذلك شهرة وشعبية واسعة بين جيل الشباب عبر محاضراته حول القضايا الإسلامية والاجتماعية. وبما أن مدينة مشهد هي مسقط رأسه وقد سكنها قبل انتقاله إلى طهران، كانت تربطه صلة بالإمام الخامنئي استمرت إلى آخر أيام حياته. وعلى الرغم من بعض الأخطاء التي وقع فيها علي شريعتي وأدت إلى معارضته من قبل التيار الديني، إلّا أن الإمام الخامنئي يعتقد بأنه حيث وُلد التيار التنويري في إيران ونما متنصّلاً عن الدين، يعتبر شريعتي كمستنير ديني مضاداً لذلك التيار التنويري. توفي علي شريعتي في صيف 1977م عندما كان قد وصل إلى لندن حديثاً.

48. الشيخ مرتضى الحائري اليزدي، (1986 – 1916م) نجل الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية الحالية في قم. اشتغل بالتدريس في حوزة قم العلمية لأكثر من أربعين سنة على مستوى السطوح والبحث الخارج في الفقه والأصول. والإمام الخامنئي كان ممن أخذ الدروس على يديه في قم. وبعد انتصار الثورة الإسلامية دخل عضواً في مجلس خبراء الدستور ومجلس خبراء القيادة. وكان شخصاً مخلصاً متابعاً في الشؤون الاجتماعية، ورجلًا زاهداً محبوباً مقبولًا لدى الخاصة والعامة.

49. مدرسة الحجتية العلمية (تأسست سنة 1942م) من مدارس العلوم الدينية الكبيرة والمهمة خلال العقود الأخيرة في قم. أسسها آية الله السيد محمد حجت أحد مراجع التقليد في قم. وقد صممها الفيلسوف والعالم الإسلامي الشهير المرحوم العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي. تعتبر هذه المدرسة حالياً من المراكز التعليمية التابعة لجامعة المصطفى العالمية.

50. أسد الله علم أمير قائنات، (1919 - 1978م) أحد أهم الشخصيات السياسية خلال فترة حكم محمد رضا بهلوي. أصبح رئيساً للوزراء لمدة سنتين ووزيراً للبلاط لمدة اثني عشر عاماً، وكان من خاصة أصدقاء الشاه وأقرب المقربين إليه وصاحب أسراره. شارك في الكثير من المشاريع الاستعمارية المناهضة للبلد والمناوئة للدين، ومن أهمها اصطدامه بنهضة الإمام الخميني والعمل على قمعها. ترك يوميات سرية تعد من الوثائق المهمة للوقوف على فترة الحكم البهلوي.

51. السيدة فاطمة المعصومةعليها السلام ابنة الإمام موسى الكاظمعليه السلام، توجّهت إلى إيران لزيارة أخيها الإمام الرضاعليه السلام بعد إجباره من قبل المأمون العباسي على القدوم إلى خراسان. ولكنها في وسط الطريق لبّت نداء بارئها في قم على أثر مرض ألمّ بها ودفنت في نفس المدينة. وها هو مرقدها منذ قرون ملجأ ومطاف للمؤمنين ولأساطين العلم والتقوى.

52. السيد محمد كاظم شريعتمداري (1905 - 1986م)، أحد مراجع التقليد الساكنين في مدينة قم، كان في سياق النهضة يجاري النظام البهلوي في بعض المواطن. بعد انتصار الثورة الإسلامية دعم «حزب خلق مسلمان» محاولاً السيطرة عملياً على منطقة أذربيجان. وبالكشف عن انقلاب صادق قطب زاده في سنة 1982 م، ظهرت وثائق تشير إلى مواكبته للسيد شريعتمداري وأتباعه، ما أدى إلى إصدار جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية رأياً بعدم كفاءته للمرجعية وخلعه عن هذا الموقع.

53. السيد محمد رضا الكلبايكاني، (1994 – 1899م) أحد مراجع الدين المعاصرين، حيث قامت طائفة من الناس وطلبة العلوم الدينية بالرجوع إليه لمعرفة تكاليفهم الشرعية بعد وفاة آية الله السيد حسين البروجردي. وكان

من تلامذة الشيخ عبد الكريم الحائري في قم. بعد بدء نهضة الإمام الخميني بادر آية الله الكلبايكاني إلى إصدار العديد من البيانات والتعبير عن مواقف معاضدة لهذه النهضة. وبعد انتصار الثورة كان من المؤيدين والمناصرين للثورة الإسلامية. وهو الذي صلّى على جثمان الإمام الخميني بعد رحيله. أصدر الإمام الخامنئي بعد وفاته نداء تعزية وصفه فيها بأنه أحد مفاخر فقه أهل البيت عليهم السلام ومن النماذج البارزة للتقوى وصيانة النفس.

54. مدرسة الفيضية، من المدارس الشهيرة في حوزة قم العلمية، وتقع بجوار مرقد السيدة فاطمة المعصومةعليها السلام. لهذه المدرسة ماض يرقى إلى قرابة أربعة قرون من تواجد العلماء والطلبة فيها. وتعدّ اليوم إحدى مدارس العلوم الدينية الكبيرة.

55. انتفاضة الخامس عشر من خرداد (5 حزيران سنة 1963م)، هي تجمعات وتظاهرات شعبية خرجت في مختلف مدن إيران اعتراضاً على اعتقال الإمام الخميني، وعلى أثرها تم إلقاء القبض على عدد كبير من الناس وسجن عدد من رجال الدين، ونفي آية الله حسين القمي، وهو أحد مراجع الشيعة في طهران، من إيران. وأبدى النظام الحاكم مزيداً من العنف في قمع مظاهرات قم وطهران وورامين، حيث أدى ذلك إلى مقتل وإصابة عدد كبير من الناس. ولقد كانت هذه الحادثة في بداية النهضة مؤشراً على اتساع نظرة الشعب المناهضة للنظام الطاغوتي.

56. قرية أخلمد، من مصايف محافظة خراسان الرضوية في مدينة جناران شمال شرقي إيران، ومن المعالم الطبيعية الجميلة في أطراف مشهد. يعود ماضي هذه القرية إلى ألف سنة.

57. السيد مصطفى الخميني، (1930 - 1977م) نجل الإمام الخميني الكبير. تتلمذ خلال فترة مراهقته وشبابه على يد كبار الحوزة وخصوصاً والده الجليل، حتى أصبح من فضلاء الحوزة العلمية. وكان موضع محبة الإمام الخميني وثقته بشدة. دخل ساحة النشاط السياسي مع انطلاقة حركة الإمام الخميني ضد الحكم البهلوي، وبعد فترة من إلقاء القبض على والده ونفيه، ألقي

القبض عليه هو أيضاً بتهمة العمل ضد الأمن القومي الإيراني ونفي إلى تركيا ثم نفي مع والده إلى العراق. عكف في النجف على التدريس وإدارة شؤون بيت والده الإمام الخميني والتواصل مع المناضلين والمجاهدين. توفي في خريف سنة 1977م بشكل غامض وهو في سن السابعة والأربعين، وخلّف آثاراً علمية. وإنّ وفاته وإقامة مراسم الفاتحة على روحه قدحت الشرارات الأولى للمظاهرات والتحركات العلنية في الشوارع والتي تواصلت حتى آلت بعد قرابة عام إلى سقوط النظام البهلوي.

58. السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، (1897 - 1990م) أحد مراجع الشيعة المعاصرين. تتلمذ عند الشيخ عبد الكريم الحائري والمحقق العراقي، وانتهل أيضاً من معين السيد علي القاضي والسيد أحمد الكربلائي والميرزا جواد ملكي التبريزي. واكب نهضة الإمام الخميني منذ انطلاقتها وأيد الجمهورية الإسلامية بعد انتصار الثورة أيضاً. جمع طوال عقود من عمره مكتبة ضخمة تعد حالياً من أهم المكتبات في العالم الإسلامي، وهو يعتبر من حفظة التراث العلمي الإسلامي.

59. السيد محمد الخامنئي، (مواليد 1935م) الأخ الأكبر للإمام السيد علي الخامنئي. تلقى العلوم الدينية في مشهد على يد والده وبعض كبار العلماء هناك، وانتقل إلى قم فكان من تلامذة آية الله البروجردي والإمام الخميني. بالإضافة إلى دراساته الحوزوية درس فرع القانون في الجامعة. دخل عضواً في مجلس خبراء الدستور ونائباً لدورتين في مجلس الشورى الإسلامي. وهو يرأس حالياً مؤسسة صدرا للحكمة الإسلامية.

60. محمد تقي مصباح يزدي، (مواليد 1934م)، مجتهد وفيلسوف ومفسر للقرآن ومن تلامذة الإمام الخميني والعلامة الطباطبائي وآية الله الشيخ بهجت. قبل انتصار الثورة وبعدها إلى يومنا هذا زاول نشاطاته العلمية في حوزة قم وفي مجال الفلسفة والمعارف الإسلامية وتربية طلبة العلوم الدينية، حيث ربّى الكثير من الطلاب وألف الكثير من الكتب. كما وكان قبل الثورة ناشطاً في بعض المؤسسات الدينية لتربية الشباب الفاعلين.

ولكنه منذ عقد التسعينيات أسس في حوزة قم العلمية، وبرأي من قائد الثورة الإسلامية، مؤسسة تُعنى وفق خطة علمية منسجمة ومنظمة، وإلى جانب البحوث الفقهية والأصولية، بدراسة العلوم الإنسانية من وجهة نظر إسلامية ومعالجة القضايا الفكرية الجديدة وتربية طلبة العلوم الدينية في هذه المجالات. وقد أصدرت هذه المؤسسة الكثير من الكتب والآثار. كما أنه كان من رادة الكفاح ضد النظام البهلوي. وكان في زمرة رجال الدين الأحد عشر الذين أسسوا في عقد الستينيات جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية. ومن نشاطاته قبل الثورة دوره في إصدار مجلتي «بعثة» و«انتقام»، والتعاون في تأسيس وإدارة مدرسة منتظرية العلمية. ومن نشاطاته أيضاً بعد انتصار الثورة الإسلامية عضويته في جماعة المدرسين، وعضويته في المجلس الأعلى للثورة الثقافية، ورئاسة المجلس الأعلى للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، وثلاث دورات من النيابة في مجلس خبراء القيادة.

61. الشيخ إبراهيم أميني نجف آبادي، (مواليد 1925م)، من علماء الدين المجاهدين في الثورة الإسلامية. درس عند كبار أساتذة قم بمن فيهم آية الله البروجردي والإمام الخميني والعلامة الطباطبائي. وكان من المناضلين ضد نظام الشاه ومن رجال الدين الأحد عشر الذين أسسوا خلال عقد الستينيات جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية. تولى بعد انتصار الثورة الإسلامية مسؤوليات متعددة منها إمامة جمعة قم وعضوية مجلس خبراء القيادة ونائب رئيس مجلس خبراء القيادة. كما وصدرت له العديد من التأليفات.

62. الميرزا علي مشكيني، (1921 - 2007م) من تلامذة آية الله البروجردي والإمام الخميني، وأحد رجال الدين المجاهدين الذين كان يذكر اسمه قبل الثورة إلى جانب آية الله المنتظري كأستاذين مبرّزين في الحوزة ومن حماة الإمام الخميني ومناصريه. كان عضواً في الشورى التي ضمّت أحد عشر عالماً قاموا بتأسيس جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية. كما كان أحد الرجال الاثني عشر الذين وقعوا على بيان مرجعية الإمام الخميني في سنة 1970م بعد وفاة آية الله السيد محسن الحكيم. مارس التدريس قبل الثورة في مدرسة المنتظرية -

مدرسة حقاني - بقم والتي تأسست بالتعاون مع الشهيد بهشتي والشهيد قدوسي، وكان الطلبة فيها يتلقون إلى جانب الدروس الحوزوية دروساً في العلوم العصرية. خلال فترة الحكم البهلوي كان دوماً من مناصري نهضة الإمام الخميني ومعاضديها، ولذلك دخل السجن. وبعد انتصار الثورة تولى آية الله الشيخ علي مشكيني عضوية مجلس خبراء الدستور، ورئاسة مجلس خبراء القيادة، ورئاسة شورى إعادة النظر في دستور البلد سنة 1989 م، وإمامة جمعة قم. أصدر الإمام الخامنئي بعد وفاته نداء تعزية قال فيه: «كان خلال عهد الطاغوت من رواد النهضة الإسلامية وخلال عهد الجمهورية الإسلامية في عداد المجاهدين الصادقين، وكان معلماً للإخلاص والورع والتقوى».

63. حسين علي منتظري، (1922 - 2009م) من رجال الدين المناضلين في الثورة الإسلامية ومن تلامذة آية الله السيد صدر الدين الصدر وآية الله البروجردي والإمام الخميني وغيرهم. ألقي عليه القبض مراراً وتم نفيه في سياق الكفاح ضد نظام الشاه. وكان من ضمن الأشخاص الأحد عشر المؤسسين لجماعة المدرسين في حوزة قم العلمية خلال عقد الستينيات من القرن العشرين. تولى بعد انتصار الثورة إمامة الجمعة في طهران ثم إمامة الجمعة في قم، وكانت تحال إليه الكثير من الأحكام والاحتياطات الفقهية للإمام الخميني. تم انتخابه سنة 1986م من قبل مجلس خبراء القيادة نائباً للقائد في الجمهورية الإسلامية. إلا أنّ إعادته النظر في بعض المسائل خلال السنوات اللاحقة وتراجعه عن مواقف الثورة الإسلامية من جهة وأهمية موقع القيادة وحساسيته من جهة أخرى وكذلك أداؤه وبالأخص أداء المحيطين به الذي لا ينسجم مع مقتضيات القيادة، أدى كل ذلك إلى أن يعزله الإمام الخميني في ربيع سنة 1989م عن هذا المنصب. وفي السنوات التالية انضم إلى صفوف المعارضين والناقدين للجمهورية الإسلامية، حتى توفي في خريف سنة 2009 م. قال الإمام الخامنئي في البيان الذي أصدره بمناسبة وفاته: «في أواخر فترة حياة الإمام الخميني الراحل المباركة عرض امتحانٌ عصيبٌ وخطيرٌ أسأل الله تعالى أن يغطيه بغطاء مغفرته ورحمته ويجعل الابتلاءات الدنيوية كفّارةً له».

64. علي قدوسي، (1927 - 1981م) أنهى الشيخ علي قدوسي المراحل التمهيدية من الدراسة في الحوزة العلمية بكل جدّ، ودرس المراحل العليا عند أساتذة كبار من أمثال آية الله العظمى البروجردي، كما انتهل الكثير من دروس الفقه والأصول عند الإمام الخميني. وكان الشهيد قدوسي على معرفة بالمرحوم العلامة الطباطبائي وأحد تلامذته؛ الأمر الذي أدى إلى أن يكون صهراً له. من الخطوات المهمة للشهيد قدوسي تأسيسه وإدارته مدرسة المنتظرية بالتعاون مع آية الله الشهيد الدكتور بهشتي. عيّنه الإمام الخميني بعد الثورة مدعياً عاماً للثورة الإسلامية، فتحسّنت أوضاع هذه المؤسسة المهمة بإخلاصه ودقته. استشهد في أيلول سنة 1981م في مكتبه على يد عنصر مندس من المنافقين.

65. أحمد بيكدلي آذري قمي، (1924 - 1998م) بدأ دراسته الحوزوية في قم وتوجّه إلى النجف الأشرف لمواصلتها. بعد عودته إلى قم حضر دروس علماء كبار من أمثال السيد البروجردي والمحقق الداماد والعلامة الطباطبائي. كان من ضمن الرجال الأحد عشر الذين أسسوا جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية خلال عقد الستينيات من القرن العشرين. ألقي عليه القبض وسجن ونفي لعدة مرات خلال مسيرة الكفاح ضد النظام البهلوي. وبعد انتصار الثورة الإسلامية عُيّن حاكماً للشرع في محكمة الثورة بقم، ثم مدعياً عاماً للثورة الإسلامية في طهران، ثم أميناً وناطقاً رسمياً باسم جماعة المدرسين، وعضواً في مجلس خبراء القيادة، وعضواً في شورى إعادة النظر في الدستور، وممثلاً لأهالي قم في مجلس الشورى الإسلامي. كان آذري قمي من الذين أصرّوا على قيادة الإمام الخامنئي في مجلس خبراء القيادة، مع أن مساره السياسي في أواخر عمره تغيّر بعض الشيء.

66. عبد الرحيم رباني شيرازي، (1922 - 1981م) أمضى دروسه التمهيدية في شيراز ثم حضر في قم دروس آية الله البروجردي وغيره من الأساتذة. كان هو وآية الله منتظري من منظّمي رسالة فضلاء قم في تأييد مرجعية الإمام الخميني. كما كان من الأشخاص الأحد عشر الذين أسسوا جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية خلال عقد الستينيات من القرن العشرين. ألقي عليه القبض مراراً

وسجن أثناء مسيرته الكفاحية قبل الثورة. ففي الفترة ما بين 1963 و1979م ألقي عليه القبض وسجن لأكثر من عشر مرات، ونفي خلال مراحل مختلفة إلى مدن فيروز آباد وكاشمر وسردشت وجيرفت. كانت معظم البيانات الصادرة عن الحوزة العلمية في قم خلال الفترة ما بين 1963 و1979م بقلمه ومن إعداده. بعد انتصار الثورة الإسلامية كان ممثل الإمام الخميني ﵀ في محافظة فارس ونائب أهالي هذه المحافظة في مجلس خبراء الدستور. كما عُيّن من قبل الإمام الخميني عضواً فقهياً في مجلس صيانة الدستور. في ربيع سنة 1981م تعرّض لمحاولة اغتيال من قبل جماعة فرقان وأصيب بجراح. وفي الشتاء المقبل عندما كان قادماً من شيراز إلى طهران للمشاركة في اجتماع مجلس صيانة الدستورتعرض لحادث اصطدام توفي على أثره.

67. مهدي حائري طهراني، (1925 - 2000م) درس العلوم الدينية في قم وطهران والنجف، وحضر دروس الإمام الخميني أيضاً. تزامناً مع دراسته الحوزوية درس أيضاً فرع الإلهيات في الجامعة وحاز على شهادة الدكتوراه في هذا الفرع. وفي سنوات ما بعد الثورة كان أحد أئمة الجماعة بطهران.

68. محمد مهدي رباني رانكوهي، (1934 - 1985م) ولد في قم ودرس لمدة 25 سنة على يد علماء كبار من أمثال السيد البروجردي والإمام الخميني والمحقق الداماد والشيخ الحائري. كان من رجال الدين المناضلين في نهضة الإمام الخميني، وسجن في هذا السياق ست مرات ونفي لمدة ستة أعوام. بعد انتصار الثورة الإسلامية أصبح عضواً في الشورى المركزية للحزب الجمهوري الإسلامي، ونائباً في مجلس خبراء الدستور، ومدعياً عاماً للبلاد، وعضواً في مجلس صيانة الدستور، ونائباً في مجلس خبراء القيادة عن محافظة خراسان، ونائباً لرئيس مجلس الشورى الإسلامي. دسّ إليه السمّ في صيف عام 1985م وهو في سن الحادية والخمسين وبقي مريضاً لمدة من الزمن إلى أن استشهد.

69. علي أصغر مرواريد، ولد في مشهد، وتلقى أغلب العلوم الدينية في مدينتي مشهد وطهران لدى مشاهير العلماء، ومارس نشاطه منذ 1958م

في الكفاح ضد نظام الشاه. ومع أنطلاقة نهضة الإمام الخميني التحق بصفوفها وتعرّض للأذى على يد أزلام النظام في هذا الطريق. بعد انتصار الثورة الإسلامية واصل نشاطاته العلمية والثقافية والإسلامية لسنوات طويلة.

70. بيرجند، مركز محافظة خراسان الجنوبية في شرق إيران. بقيت لعشرات السنين قبل أنتصار الثورة تحت سلطة آل «علم» التابعة للحكومات الملكية القاجارية والبهلوية، وتحرّرت من نير هذه السلطة بانتصار الثورة الإسلامية.

71. الهيئات: جمع هيئة، هي تشكيل شعبي يهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة وخاصّة ذكرى عاشوراء، وهو المعادل لما يُعرف في العراق بالمواكب.

72. كناباد، تقع مدينة كناباد في جنوب محافظة خراسان الرضوية، وهي من مدن إيران القديمة.

73. محمد رضا فاكر، (1945 - 2009م) ولد في مدينة مشهد وبدأ دراسة العلوم الدينية فيها، ثم توجّه إلى قم لمواصلة دراسته الحوزوية. كان من رجال الدين المجاهدين في نهضة الإمام الخميني وقد ألقي عليه القبض وسجن لعدة مرات. وقد رافقه الإمام الخامنئي في السجن سنة 1963 م. يتضمن ملفه السياسي عدة أحكام ومسؤوليات أصدرها له الإمام الخميني، مضافاً إلى دورتين من نيابة مجلس الشورى الإسلامي.

74. منظمة مجاهدي خلق (المنافقين)، تأسست في سنة 1965م بواسطة أربعة من الشباب الوطنيين المتدينين وبهدف مقارعة النظام البهلوي. إنهم وبسبب انفصالهم عن رجال الدين في تفاسيرهم الدينية انحدروا نحو الالتقاط الفكري ونزعوا إلى الماركسية كنظرية للكفاح. في أيلول سنة 1971م تم اعتقال غالبية أعضاء المنظمة من قبل السافاك، وبعد أربعة أعوام أصدروا بياناً أعلنوا فيه رسمياً نزعتهم الماركسية. بعد انتصار الثورة الإسلامية أبدى مجاهدو خلق في الظاهر مواكبتهم للثورة، ولكنهم نهجوا في مواطن مختلفة وبشكل تدريجي نهجاً مناهضاً للوطنية والإسلام. ومنذ شهر حزيران من سنة 1981 م، خاضت منظمة المنافقين حرباً مسلحة ضد الشعب الإيراني المسلم. لجأ مسعود رجوي رئيس هذه المنظمة في بادئ الأمر إلى

فرنسا ثم التحق بنظام صدام الذي كان في حال حرب ضد الشعب الإيراني. العمل التنظيمي ضد النظام الشعبي في إيران، واغتيال آلاف الأشخاص، والتجسس لصالح أعداء الشعب الإيراني، والتعاون مع صدام في حربه ضد إيران، والتعاون مع حزب البعث في قمع الأكراد والعرب السنة والشيعة من أبناء الشعب العراقي، تشكّل جانباً من جرائم هذه المنظمة المجرمة. بعد سقوط صدام تم إخراج هذه المنظمة من العراق، وهي لا تزال إلى اليوم تعيش في ظلّ الدعم الأمريكي وتنفذ أوامر الإدارة الأمريكية.

75. محمد رضا كفعمي خراساني، (1901 - 1983م) تتلمذ في النجف على يد الشيخ موسى الخوانساري والميرزا أبو الحسن المشكيني وآقا ضياء الدين العراقي والسيد أبو الحسن الأصفهاني. هاجر إلى سيستان وبلوشستان للتبليغ الديني والإشراف على الشيعة، وبقي مقيماً فيها. ذاع صيته في تلك المناطق بتأسيسه حوزة علمية وتربيته الكثير من طلبة العلوم الدينية وتكريسه للوحدة بين القوميات والمذاهب في تلك المحافظة وتأسيسه لوقف عشرات المساجد والبنايات الخيرية فيها وكفاحه العلني والخفي ضد النظام البهلوي. كان له تعاونه الكبير مع المناضلين والمكافحين ضد النظام البهلوي، بمن فيهم الإمام الخامنئي حيث كان على اتصال به طوال فترة النهضة. عُيّن أول إمام جمعة في زاهدان بعد انتصار الثورة الإسلامية.

76. مدرسة خان: من مدارس العلوم الدينية القديمة في مدينة قم بنيت في العهد الصفوي.

77. كرمان، من مدن إيران الكبيرة ومركز محافظة كرمان التي هي أوسع محافظات إيران، وتقع في جنوب شرقي البلاد، وتعتبر من المراكز الصناعية وواحدة من مدن إيران التأريخية الخمسة.

78. جعفر سبحاني، (مواليد 1929م) أحد مراجع الشيعة وممن تتلمذ على يد كبار فقهاء الحوزة العلمية في قم من أمثال البروجردي والحجّة والكلبايكاني والعلامة الطباطبائي. كما ودرس الفقه والأصول والفلسفة عند الإمام الخميني لأكثر من 14 سنة. ألقي عليه القبض ونفي خلال سنوات الكفاح

ضد النظام البهلوي. كان بعد الثورة عضواً في مجلس خبراء تدوين الدستور، واشتغل في السنين اللاحقة بإعداد وتربية الطلبة في الحوزة العلمية بقم. ألّف الكثير من الآثار والكتب النافعة في مختلف المجالات كالفقه والأصول والكلام والملل والنحل وأحوال الرجال وتأريخ الإسلام. كما وله نشاطه في التواصل الإسلامي مع علماء المذاهب الإسلامية.

79. **أصفهان،** مدينة تأريخية في وسط إيران، كانت عاصمة البلد خلال الحقبتين السلجوقية والصفوية، وفيها الكثير من الآثار التأريخية. وهي مدينة مميزة في إيران والعالم من النواحي الثقافية والدينية. وتعتبر في العقود الأخيرة من المراكز الثقافية في العالم الإسلامي. كما وتعد من مدن إيران المهمة في الجانب الصناعي والاقتصادي.

80. **يزد،** تقع مركز محافظة يزد في وسط إيران وهي من المناطق الصحراوية ومن المعالم السياحية والتأريخية في هذا البلد. حققت تطوراً ونمواً كبيراً خلال عهد الجمهورية الإسلامية.

81. **محمد صدوقي، (1981 - 1909م)** وُلد في مدينة يزد، وتلقّى دراساته التمهيدية فيها، ثم شدّ رحله إلى قم وتتلمذ لسنوات على يد الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري لدراسة العلوم الدينية، ثم تولّى بنفسه أمر التدريس في الحوزة العلمية. بعد رحيل أستاذه عاد إلى مسقط رأسه للقيام بالممارسات الدينية والنشاطات العامة. وأضحى فيها لسنوات أهم شخصية دينية وكان دوماً موطن ثقة العلماء والمراجع والناس. وإنّ خدماته الدينية والاجتماعية في هذه المدينة مشهودة حتى في الوقت الراهن حيث مضى على شهادته أربعون عاماً. خاض الشيخ محمد صدوقي معترك الصراع مع النظام (الملكي) منذ انطلاقة نهضة الإمام الخميني وسائر العلماء، وبتصاعد الأجواء الخانقة عمد إلى الحراك السري. وفي عقد السبعينيات حيث تصاعدت وتيرة نفي رجال الدين إلى أقصى نقاط البلاد، بادر سماحته مع عدد من الأشخاص إلى زيارة المنفيّين المجاهدين لمتابعة شؤونهم ورفع معنوياتهم. وفي هذا الخضمّ، وخلال سفره إلى مدينة إيرانشهر في سنة 1978، تعرّف

على سماحة الإمام الخامنئي عن كثب. وفي العام ذاته، حيث أقيمت في يزد مراسيم إحياء ذكرى أربعينية شهداء تبريز، كان سماحته هو المحور في هذه الحركة. وقد تزايدت نشاطاته وممارساته الثورية في بداية عام 1979. كما وشارك بطهران في لجنة استقبال الإمام الخميني وفي اعتصام العلماء وفي بيعة الإمام الراحل. بعد انتصار الثورة الإسلامية عيّنه الإمام الخميني إمام جمعة في يزد، وبذل في هذا الموقع بالغ جهده لنشر الحق وخدمة الخلق، حتى استشهد عام 1982 على يد أحد عناصر المنافقين في المسجد الجامع بيزد بعد أدائه صلاة الجمعة.

82. محمد جواد حجتي كرماني، (مواليد 1932م) نجل الميرزا عبد الحسين حجتي كرماني، العالم الزاهد والمعروف في كرمان. تتلمذ على أساتذة مبرزين في قم وخصوصاً الإمام الخميني. وكانت له خلال فترة دراسته في قم مباحثاته العلمية مع الإمام الخامنئي. كما كان من المجاهدين في نهضة الإمام الخميني حيث ألقي عليه القبض ونفي لعدة مرات، ورافق الإمام الخامنئي لفترة في المنفى. بعد انتصار الثورة أصبح إمام جمعة كرمان، ونائباً في مجلس خبراء الدستور، ونائباً في مجلس الشورى الإسلامي، ومستشاراً لرئيس الجمهورية خلال فترة رئاسة الإمام الخامنئي، ونائباً في مجلس خبراء القيادة.

83. السيد محمد حسين الطباطبائي، (1902 - 1981م) مفسر وفيلسوف وفقيه مشهور معاصر، يعد الكثير من الشخصيات العلمية في حوزة قم خلال الحقبة الأخيرة وكبار وجوه الثورة من تلامذته، ومن أبرزهم آية الله الشهيد مرتضى مطهري. تتلمذ في الفلسفة على يد آية الله بادكوبئي، وفي العرفان على يد آية الله السيد علي القاضي، وحضر في النجف الأشرف دروس الشيخ محمد حسين الأصفهاني والميرزا النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني في الفقه والأصول. بعد عودته من النجف سكن تبريز لفترة من الزمن ثم هاجر إلى قم. إلى جانب التدريس ألّف العديد من الكتب أشهرها تفسير الميزان وبداية الحكمة ونهاية الحكمة. وخلال فترة تواجده في قم كانت له لقاءاته وبحوثه ومناظراته مع الفيلسوف الفرنسي المعاصر الشهير هنري كوربان.

84. السيد كمال الدين موسوي شيرازي، (1928 - 1987م) ولد في شيراز وسافر إلى قم لدراسة العلوم الدينية وتتلمذ على يد علماء كبار من قبيل آية الله البروجردي وآية الله الكلبايكاني والإمام الخميني. وبعد نفي الإمام إلى العراق شدّ رحله إلى النجف الأشرف وبقي في العراق إلى آخر مدة النفي. بعد عودته إلى إيران أقام في مدينة قم، وكان طوال فترة دراسته وما بعدها من أهل تزكية النفس والسلوك العرفاني، ولذلك حظي باهتمام الأعلام ولاسيما الإمام الخميني.

85. السيد مهدي عبادي، (1936 - 2004م) من رجال الدين المجاهدين في خراسان. درس العلوم الدينية لسنوات طويلة في قم والنجف. مارس نشاطه الجهادي ضدّ النظام البهلوي في سيستان وبلوشستان. عيّنه الإمام الخميني بعد انتصار الثورة إمام جمعة في زاهدان، وكان ممثله في محافظة سيستان وبلوشستان. قدّمخدمات جليلة في إطار تبليغ الدين لتلك المناطق المحرومة.

86. عبد العلي مزاري، (1947 - 1994م) أحد قادة المجاهدين الأفغانيين الهزارة. درس العلوم الدينية في عقد السبعينيات من القرن العشرين في مشهد وقم، وتعرّف عبر هذا الطريق على الإمام الخامنئي. بعد انتصار الثورة أصبح من قادة «منظمة نصر» التي جاهدت مع سائر المجاهدين الأفغانيين ضدّ المحتلين السوفيت، وفي السنين التي تليها من قادة «حزب الوحدة الإسلامية في أفغانستان»، واستشهد في أحداث سيطرة طالبان على أفغانستان.

87. فتح الله مين باشيان، (1916 - 2007م) أحد قادة القوة البرية في الجيش خلال فترة الحكم البهلوي. تابع دراساته العسكرية العليا في أمريكا سنة 1948 م، وبعد اجتيازه جميع المراحل القيادية نال درجة فريق أول وقائد القوة البرية، لكنه مني في سنة 1971م بغضب الشاه فأجبر على التقاعد وغادر إيران.

88. صحيفة النور المتألفة من 22 جزءاً، تشتمل على مجموعة خطابات الإمام الخميني ونداءاته ولقاءاته وأحكامه وإجازاته الشرعية ورسائله، منذ ما قبل الخامس عشر من خرداد 1342 هـ.ش (5 حزيران سنة 1963م) وحتى نهاية عمره.

89. حكم الإمام الخميني بإيفاد الإمام الخامنئي إلى زاهدان: بسم الله الرحمن الرحيم. حضرة المستطاب حجة الإسلام السيد علي الخامنئي دامت

إفاضاته. لقد كان الإخوة والأخوات في منطقة سيستان وبلوشستان، طوال خمسين عاماً من عمر النظام البهلوي السفّاك، هدفاً للظلم والجور. ولذا أدعو سماحتكم للتوجه إلى تلك المنطقة وتقصّي مطاليب أهاليها المبجّلين وتقديم تقرير لي وللجهات المعنيّة عن توقّعات الأهالي الأبطال في تلك الديار. أسال الله أن يمنّ بالتوفيق عليكم وعلى أبناء تلك المناطق الشجعان. ولا يفوتني التذكير بضرورة تبيان الثورة الإسلامية التي استجابت لمطاليبهم وحثّهم على المشاركة في الاستفتاء العام حول الجمهورية الإسلامية. والسلام عليكم. روح الله الموسوي الخميني 1979/3/29

90. كاظم راشد يزدي، (مواليد 1937م) في يزد، وفقد والده في صباه. شجّعته والدته المتدينة على دراسة العلوم الدينية. مارس دراساته الحوزية لفترة في قم ولفترة أخرى في شيراز. وإلى جانب دراسته للعلوم الدينية التحق في شيراز بالجامعة ودرس اللغة الإنجليزية. كما وكان خلال دراسته الحوزوية يعتلي المنابر ويمارس الخطابة الدينية، وكان في يزد من رجال الخطابة والمنبر الناجحين والناشطين. وعلى أثر حبه للشهيد صدوقي وصلته الوثيقة به انخرط عن طريقه في صفوف نهضة الإمام الخميني. في ذكرى أربعينية شهداء تبريز، ارتقى المنبر في يزد فألقي عليه القبض ونفي إلى إيرانشهر، ما أدى إلى أن يتعرف على الإمام الخامنئي أكثر. وبعد انتصار الثورة الإسلامية تولى جملة من المهام التنفيذية في يزد، بيد أنّ جلّ نشاطاته انصبت على التبليغ الإسلامي في داخل البلاد وخارجها حيث زاول الخطابة والتبليغ الديني في الكثير من بلدان العالم.

91. خاش،إحدى مدن محافظة سيستان وبلوشستان، تقع على سفح جبل تفتان.

92. ثكنة سلطنت آباد، من المقرات العسكرية الأساسية في طهران، ويقع في محلة بنفس الاسم في شمال طهران القديمة.

93. قزل قلعة اسم إحدى القلاع العسكرية في العهد القاجاري، كانت تقع خارج طهران وفي شمال غربها. في عقد الستينيات تبدّلت غرفها إلى زنازين، فكانت من السجون المعروفة في فترة نهضة الإمام الخميني، وقد تم هدم هذا السجن في بداية عهد الجمهورية الإسلامية.

94. محافظة خوزستان في جنوب غربي إيران ومركزها مدينة الأهواز. تعد هذه المحافظة قطب صناعة النفط والغاز والبتروكيمياويات في إيران. وفيها أقدم مصفاة للنفط في العالم. يجتاز بين سهولها أكبرُ نهر في إيران وهو نهر كارون. تضررت كثيراً خلال الحرب التي فرضها الاستكبار على إيران، وسُفكت فيها دماء الكثير من أهالي إيران وخوزستان على يد العدو. ولكن أعيد بناؤها بعد الحرب بهمم الإيرانيين العالية حتى أصبحت اليوم من أقطاب الاقتصاد والصناعة في إيران.

95. جبهة التحرير العربية: جبهة تحرير الأحواز المشهورة بجبهة التحرير، تأسست سنة 1961م في محافظة خوزستان (جنوب غرب إيران) بميول نحو حزب البعث العربي الاشتراكي، وبعد سنتين حكم على معظم أعضائها الأصليّين بالإعدام أو السجون لمدد طويلة. عملت جبهة التحرير حتى سنة 1975م بدعم من النظام البعثي في العراق، وبعد عقد معاهدة الجزائر في 1975م بين إيران والعراق، انتقلت إلى ليبيا. بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران عاد أعضاؤها لتلقي الدعم من النظام البعثي في العراق، وطالبوا بانفصال محافظة خوزستان عن إيران مفتعلين بعض أعمال الشغب والإخلال الأمني في إيران أدت إلى هزيمتهم ورفضهم من قبل الشعب الإيراني. أدى أفراد هذه الجماعة خلال حرب الأعوام الثمانية بين العراق وإيران دور الطابور الخامس ضد الجمهورية الإسلامية بهدف إسقاطها.

96. جمال عبد الناصر، (1918 - 1970م) ثاني رئيس جمهورية في مصر بعد سقوط النظام الملكي هناك. اشتهر بمناداته بالقومية العربية والوحدة بين البلدان العربية. وانتهج سياسة الابتعاد عن البلدان الغربية والاقتراب من المعسكر الشرقي وخصوصاً الاتحاد السوفيتي السابق. من أهم خطواته تأميم قناة السويس في تموز 1956 م، وتأسيس الجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا واليمن، والحرب ضد إسرائيل في 1967 م، ومساهمته في تأسيس حركة عدم الانحياز مع عدة شخصيات سياسية معروفة أخرى. كان خلال فترة رئاسته الشخصية العربية والإسلامية الأكثر شعبية ومن أكبر أعداء

أمريكا والعالم الغربي، ولذلك حظي بترحيب معارضي الغرب والمظلومين من قبل الغرب. توفي في أيلول سنة 1970 عن عمر يناهز 52 عاماً.

97. الحرب المفروضة من قِبَل نظام صدام البعثي على إيران، (1988 - 1980م) والتي عُرفت في إيران باسم الحرب المفروضة أو الدفاع المقدس، هي أطول حرب كلاسيكية في القرن العشرين حيث استمرت زهاء ثمانية أعوام. بدأت هذه الحرب في الثاني والعشرين من أيلول سنة 1980 م. ففي ذلك اليوم تحوّلت الاشتباكات الحدودية المتفرقة بين البلدين إلى حرب حقيقية شاملة بهجوم متزامن للقوة الجوية البعثية على عشرة مطارات إيرانية مدنية وعسكرية وهجوم بري للقوات البرية البعثية على كل الحدود الممتدّة بين البلدين. واعتبر الشعب الإيراني هذه الحرب منذ البداية حرب أمريكا وحلفائها ضده، ونشرت في السنوات التالية وثائق حاسمة واضحة تدل على هذه الحقيقة. ورغم دعم القوى الكبرى لنظام صدام في هذه الحرب، إلا أنه لم يتمكّن من السيطرة حتى على شبرٍ واحدٍ من التراب الإيراني، وليس هذا وحسب، بل اتُّخِذ القرار دولياً بأنه هو المعتدي في هذه الحرب.

98. حزب توده، يعتبر حزب توده الإيراني، منذ عقد الأربعينيات وإلى الثمانينيات، أهم تنظيم وحزب ماركسي في إيران. تأسس هذا الحزب بصفته وريث الاشتراكية الديمقراطية في عهد الحركة الدستورية والحزب الشيوعي الإيراني (عقد الأربعينيات) في سنة 1941م بطهران، وعمل إلى نهاية مطافه كممثل لسياسة الاتحاد السوفيتي في إيران. في بداية عقد الثمانينيات ألقي القبض على قادة هذا الحزب بجريمة الخيانة والعمالة وتم إعلان حلّ الحزب.

99. حسن پاكروان، (1911 - 1979م) ثاني رئيس لمنظمة الأمن والاستخبارات الإيرانية (السافاك) بين عامي 1960 و1964 م، ورئيس استخبارات الجيش، ووزير الدولة، وسفير لمدة من الزمن. وكان من المقربين للبلاط بعد عودته إلى إيران وحتى انتصار الثورة الإسلامية. حكم عليه بالإعدام بعد انتصار الثورة للجرائم العديدة التي ارتكبها خلال فترة مسؤولياته.

100. محمد علي رجائي، (1933 - 1981م) من المناضلين القدامى ضد

النظام البهلوي. كانت نشاطاته في بداياتها تصطبغ بصبغة دينية واجتماعية، ثم انخرط تدريجياً في التيارات السياسية الدينية. وبتصاعد النشاطات السياسية والدينية ألقي عليه القبض مرتين وتعرض للاستجواب والتعذيب والسجن. تولى بعد انتصار الثورة مهام عديدة، هي: وزير التربية والتعليم، ونائب مجلس الشورى الإسلامي، ورئيس وزراء في حكومة بني صدر، ورئيس الجمهورية. يعدّ في ثقافة الثورة مظهراً للخدمة الصادقة المخلصة والتدين والنزعة الثورية في مجال المسؤولية والسير على النهج الثوري الصحيح. في أواخر آب 1981م استشهد بانفجار إرهابي في مكتب رئاسة الوزراء نفّذته منظمة المنافقين العميلة، واستشهد معه رئيس الوزراء محمد جواد باهنر.

101. محمد ولي قرني، (1913 - 1979م) أول رئيس هيئة أركان الجيش بعد انتصار الثورة الإسلامية. التحق بكلية الضباط في سنة 1930م ثم بالجيش. ألقي عليه القبض في حزيران سنة 1958م إثر اكتشاف مشروع انقلاب ضد النظام الملكي في إيران، فحوكم وسجن ثلاث سنوات ثم طرد من الجيش. عُيّن بعد الثورة من قبل الإمام الخميني عضواً في شورى الثورة وكذلك رئيساً لهيئة أركان الجيش برتبة لواء. اغتيل من قبل زمرة فرقان الإرهابية في منزله ربيع سنة 1979 م.

102. يوم النكسة، (1967م) على أثر اندلاع حرب الأيام الستة بين الكيان الصهيوني والدول العربية، احتلّ هذا الكيان شريط غزة والضفة الغربية وشرق بيت المقدس وشبه جزيرة سيناء في مصر ومرتفعات الجولان في سوريا، وشرّد الفلسطينيين من ديارهم ومواطنهم. ولذلك أطلق الفلسطينيون على يوم الخامس من حزيران يوم النكسة.

103. كاظم غلام زاده تدين، (1985 - 1924م) أحد المعلمين المتدينين القدماء في مشهد. واكب وعاضد نهضة الإمام الخميني، وكانت له علاقاته وتعاونه مع عناصر كفاحية من أمثال الإمام الخامنئي. بعد انتصار الثورة الإسلامية واندلاع الحرب المفروضة توجّه إلى الجبهة على الرغم من كِبَر سنه، وأخيراً نال الشهادة في جبهات القتال ضد نظام صدام البعثي وهو في الستين من عمره.

104. محمد منتظري، (1944 - 1981م) نجل آية الله منتظري ومن رجال الدين الثوريين قبل انتصار الثورة وبعده. سجن قبل الثورة من قبل نظام الشاه، وكان لسنين طويلة على اتصال بالحركات التحررية وجماعات النهضة الإسلامية في مختلف بلدان غرب آسيا، وله نشاطه في مجال دعم النضال المسلح. ساهم في تأسيس حرس الثورة الإسلامية، وأصبح كذلك نائباً لأهالي نجف آباد في الدورة الأولى من مجلس الشورى الإسلامي. استشهد إثر تفجير مكتب الحزب الجمهوري الإسلامي في صيف 1981م مع الشهيد بهشتي واثنين وسبعين آخرين من كبار شخصيات الثورة. نعته الإمام الخميني بقوله: «ابن الإسلام والقرآن».

105. الحاج الشيخ مجتبى قزويني، (1966 – 1898م) من علماء الحوزة العلمية في خراسان وأساتذتها الكبار. تتلمذ في حوزتي النجف وقم على يد أساتذة من أمثال الميرزا محمد تقي الشيرازي والسيد محمد كاظم اليزدي والميرزا النائيني والشيخ عبد الكريم الحائري. وانتهل في مشهد من دروس الميرزا مهدي الأصفهاني وآقا بزرك حكيم شهيدي والحاج آقا حسين الطباطبائي القمي، وكان من سالكي درب الحق والمتصلبين في الشريعة. لشدة بصيرته وحميته الدينية واكب النهضة ضد النظام البهلوي منذ بداياتها، وتوجّه إلى قم لتعزيز النهضة وبايع الإمام الخميني. يصفه الإمام الخامنئي مع الشيخ هاشم القزويني قائلًا: «نجمان متألّقان في حوزة مشهد العلمية».

106. السيد هادي الخامنئي (مواليد 1947م) أخو الإمام الخامنئي. تابع دراسته الدينية في الحوزة العلمية بمشهد. وسجن في عهد الطاغوت البهلوي على أثر نشاطه الكفاحي، وبعد انتصار الثورة الإسلامية تم انتخابه نائباً عن أهالي مشهد في مجلس الشورى الإسلامي لثلاث دورات، ونائباً عن أهالي طهران لدورة واحدة. في سنة 1986م حاول المنافقون اغتياله في مشهد أثناء مظاهرت الثاني والعشرين من بهمن ذكرى انتصار الثورة، لكنه نجا من المحاولة وأصيب بقدمه.

107. كتاب «آنجا كه حق پيروز است» لمؤلفه برويز خرسند، يسرد طائفة من الروايات القصصية حول الإمام الحسين عليه السلام وواقعة الطف.

108. أيلول الأسود، (1970م) يُطلق أيلول الأسود على هجوم النظام الملكي الأردني، من أيلول 1970 إلى كانون الثاني 1971 م، على الفلسطينيين الساكنين في الأردن، وقد تحوّل هذا الهجوم إلى حربٍ أهلية. أسفرت هذه الحرب عن مقتل آلاف الأشخاص غالبيتهم من الفلسطينيين. وبذلك انتهت التحركات المسلّحة في كانون الثاني 1971م بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وانتقل جزء كبير من ميليشيات هذه المنظمة إلى لبنان.

109. محمد عبد الرحمن عبد الرؤوف القدورة الحسيني، (1929 - 2004م) المشهور بياسر عرفات والمكنّى بأبي عمار، ولد في القاهرة، وكان زعيماً فلسطينياً. تولى رئاسة السلطة الوطنية الفلسطينية عند تشكيلها في عام 1996م وإلى حين وفاته. تعتبر سنة 1988م سنة تغيير سياسات عرفات، حيث اعترف رسمياً في ذلك العام بوجود إسرائيل ووافق على قرار مجلس الأمن المرقم 242. وفي سنة 1990م حيث اندلاع أزمة الكويت، وقف مدافعاً عن صدام حسين، ما أدى إلى الحدّ من دعمه في البلدان العربية. بادر إلى التفاوض مع الصهاينة لوحده واستجاب لشروطهم، وتخطّى الفلسطينيين وفصائل المقاومة في إبرام عدة اتفاقيات تطبيع مع إسرائيل. أصيب بمرض على نحو مشبوه وغامض، حيث تفيد تقارير الخبراء المستندة إلى الوثائق والأدلة بأنه قُتل على يد الصهاينة.

110. السيد رضا كامياب، (1950 - 1981م) عالم مناضل ومن أصحاب وتلامذة الإمام الخامنئي في مشهد. تعود معرفته بالإمام القائد إلى عمليات إمداد وإغاثة المنكوبين بزلزال فردوس في خراسان سنة 1968 م. كان خطيباً يعتمد الأفكار الإسلامية النيّرة لخدمة أهداف الثورة، ولذلك بادرت أجهزة النظام البهلوي إلى اعتقاله وسجنه. وبعد انتصار الثورة الإسلامية كان من الشخصيات النشيطة في الحزب الجمهوري الإسلامي، وانتخب سنة 1981م نائباً في مجلس الشورى الإسلامي من قبل أهالي مشهد. استشهد في عملية إرهابية نفّذها المنافقون في آب سنة 1981 م.

111. الحاج حسن نيري عدل، (1939 - 2006م) من الناشطين في مجال الطباعة والنشر ومن المناضلين ضد النظام البهلوي. كان له دور هام في طباعة ونشر

الكتب السياسية والبيانات الثورية خلال فترة ما قبل الثورة، وكان يطبع مدوّنات الإمام الخامنئي في أيام النضال، ولهذا اعتقل وسجن لعدة مرات. أصدر الإمام القائد بيان تعزية بمناسبة وفاته وصفه فيه قائلاً: «رفيق قديم في درب الكفاح وأخ بارّ مخلص دؤوب».

112. الحسين بن طلال بن عبد الله بن حسين الهاشمي، (1935 - 1999م) المشهور بالملك حسين، كان ملكاً للأردن من 11 آب سنة 1952م إلى نهاية عمره ولمدة 47 سنة. جده كان شريف مكة ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ومشاركة الدولة العثمانية في الحرب وهزيمتها أمام بريطانيا وفرنسا، تولت عائلته الحكم الملكي في الأردن بحسب الانتداب البريطاني على الأراضي العربية والإسلامية وتقسيم الشام وتأسيس دولة الأردن، وهكذا ورث هو الحكم الملكي. من ممارساته قبل انتصار الثورة الإسلامية مذبحة الفلسطينيين في الأردن في أيلول الأسود، وتماشيه التام مع النظام البهلوي بصفته شرطي أمريكا في المنطقة. بعد سقوط الشاه تضامن مع صدام في حربه ضد الشعب الإيراني المسلم وساهم في تشكيل جبهة مع السعودية وبلدان أخرى لمواجهة إيران. كما واكب مفاوضات السلام المخزية بين عرفات والكيان الصهيوني.

113. إذاعة «صوت العرب»،كانت الحكومة المصرية في زمن حكم جمال عبد الناصر تتمتع بشعبية بين المناضلين الإيرانيين لنظرتها الوطنية المناهضة للاستعمار. وكانت هذه الوسيلة الإعلامية هي الوحيدة في المنطقة التي تبث نداء الاستقلال والعزة ومقارعة الاستكبار والاستعمار والكيان الصهيوني الغاصب.

114. الثورة الليبية، (1969م) في الأول من أيلول سنة 1969 م، عمد عدد قليل من الضباط الليبيين الذين كانوا يدرسون في السنة الثالثة بكلية الضباط ويُعبَّر عنهم بالضباط الأحرار، على غرار حركة الضباط بقيادة جمال عبد الناصر ومحمد نجيب في سنة 1952م التي أنهت الحكم الملكي في مصر، عمدوا بقيادة معمر القذافي إلى انقلاب دون دماء في ليبيا ضد الملك إدريس الأول الذي كان قد رحل إلى تركيا لتلقي العلاج، فأمسك القذافي

بزمام السلطة في ليبيا. ومن هنا فقد كان يُصنَّف هذا الحكم الليبي الجديد في صنف الحكومات العربية الثورية على غرار نظام الحكم في مصر.

115. ثورة العشرين، (1920م) في سنة 1920 م، دخل العراق تحت الانتداب البريطاني، وفي صيف العام نفسه ثار الشعب العراقي بقيادة آية الله السيد محمد كاظم اليزدي صاحب «العروة الوثقى» أولاً ثم بقيادة آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي، وبمشاركة عدد كبير من طلبة العلوم الدينية وفضلاء النجف، ضد السلطة البريطانية. واستشهد عدد كبير من الناس وطلبة العلوم الدينية في الحرب بين الشعب العراقي والقوات البريطانية ومنهم نجل صاحب «العروة الوثقى»، ووقع عدد آخر في الأسر بعد خدعة البريطانيين وانكسار الثورة عسكرياً، ومنهم المرحوم آية الله السيد محمد تقي الخوانساري. كان هدف العراقيين من الثورة ضد الاستعمار البريطاني رفض سلطة الأجانب والكفار على بلادهم. تعدّ هذه الثورة من الصفحات المشرقة في تأريخ العراق المعاصر.

116. حزب رستاخيز، تم تأسيس حزب رستاخير في شتاء 1974م بأمر من محمد رضا بهلوي. وكان نظام الشاه قبل ذلك يروِّج لحزبيه الحكوميين «إيران نوين (إيران الحديثة)» و«حزب مردم (حزب الشعب)» متظاهراً بنظام الحزبين، ثم عمد بعد ذلك إلى إدغام الأحزاب والجمعيات المرخصة في إيران معلناً عن تأسيس حزب رستاخيز. وقد كانت هذه الخطوة ظاهرية سطحية على غرار باقي الخطوات الظاهرية للنظام البهلوي في مختلف المجالات من قبيل انتخابات المجلس والتحزب.

117. عباس واعظ طبسي، (1925 - 2015م) التحق بالحوزة العلمية وأمضى المرحلة التمهيدية عند أساتذة من أمثال الأديب النيشابوري (الأديب الثاني) والمدرس اليزدي والحاج الشيخ مجتبى القزويني والحاج الشيخ هاشم القزويني، كما اغترف من دروس المرجع الكبير آية الله الميلاني. شكّل مع الإمام الخامنئي والشهيد السيد عبد الكريم هاشمي نجاد والشيخ محمد رضا محامي الحلقة الرئيسية للتحركات الثورية في مشهد. ألقي عليه القبض لعدة مرات قبل الثورة ومنعه النظام البهلوي من إلقاء الخطابات والمحاضرات.

عيّنه الإمام الخميني منذ الأيام الأولى بعد انتصار الثورة سادناً للروضة الرضوية المطهرة في مشهد. وقد صان هذه الأمانة بتدين وإخلاص حتى آخر عمره، وقدّم من موقعه هذا خدمات جليلة للعالم الإسلامي، وبقي إلى آخر عمره مؤمناً إيماناً حقيقياً بمبادئ الثورة الإسلامية وقِيَمها. وقف بشجاعة أمام انحرافات الآخرين، وكان لسنين عضواً في مجلس خبراء القيادة، وممثلاً للولي الفقيه في محافظة خراسان.

118. السيد عباس الموسوي القوچاني، (1945 - 1982م) عالم مجاهد ومن تلامذة الإمام الخامنئي في مشهد. ألقي عليه القبض مراراً من قبل جهاز السافاك، وبما في ذلك إلقاء القبض عليه في تشرين الأول سنة 1971 بسبب تعاونه مع الإمام الخامنئي اعتراضاً على احتفالات مرور 2500 على الملكية في إيران. بعد انتصار الثورة الإسلامية نشط في لجان الثورة، ومع اندلاع الحرب المفروضة توجّه إلى جبهات القتال واستشهد على يد العدو البعثي في ربيع 1982م خلال عمليات تحرير خرمشهر.

119. احتفالات الـ 2500 عام، يطلق هذا العنوان على مراسم استمرت عدة أيام بجوار بناء تخت جمشيد التأريخي في شيراز، وبمناسبة مرور 2500 عام على بداية الحكم الملكي في إيران كما يدّعيه محمد رضا بهلوي. أُقيمت هذه المراسم، التي لم يسبق لها مثيل في الإسراف وإهدار أموال الشعب، بحضور رؤساء وملوك من قرابة سبعين بلداً في العالم. وكانت غاية النظام البهلوي من هذا المشروع تكريس أركان حكمه، إلّا أنه أخفق في هدفه هذا، بل تسبّبت هذه المراسم في تصاعد الأمواج الثورية العارمة المناهضة للسلطة الملكية.

120. السنة الشاهنشاهية: في 14 آذار 1976م غيّر النظام البهلوي الذي حكم إيران قبل انتصار الثورة الإسلامية، بداية التاريخ الإيراني من السنة الهجرية الشمسية إلى تاريخ زائف هو التاريخ الشاهنشاهي، وأعلن أن سنة 1355هـ.ش قد تحولت لسنة 2535 شاهنشاهية، علماً بأن التاريخ الهجري الشمسي يبدأ من هجرة الرسول الأكرم ﷺ، لكنه يعتمد السنة الشمسية؛ ولذلك يزيد على السنة القمرية بـ: 11 يوماً في السنة تقريباً.

121. مسجد الإمام الحسن، مسجد يقع جنوب منطقة سرشور بمشهد، تأسس بادئ الأمر في مكان صغير من قِبَل تجار المنطقة، ثم اتسع تدريجياً بمشاركة الناس المتحمسين والشباب خصوصاً. افتتح هذا المسجد بإمامة الإمام الخامنئي، حيث بقي لسنواتٍ يقيم فيه صلاة الجماعة ويعمل على تبليغ المعارف الدينية.

122. مسجد كرامت، كان هذا المسجد في البداية منزلًا لواقفه الحاج السيد محمود كرامت، ويقع في منطقة مزدحمة في شمال المرقد الرضوي الطاهر، ثم تحول إلى مسجد كبادرة خير من الواقف. كان الواقف منذ بداية تأسيس المسجد يسعى لدعوة الإمام الخامنئي إلى إقامة صلاة الجماعة فيه، وبتلبية هذه الدعوة وحضور سماحته في المسجد، بدأ الشباب الذين ينشدون فهماً أعمق للمعارف الدينية بالتدفق إلى المسجد، حتى تحوّل في الشهور القريبة من انتصار الثورة إلى مركز لنشاط الثوار في مشهد.

123. محمد مفتح، (1928 - 1979م) التحق بالدراسة الحوزوية منذ سن الخامسة عشرة في مسقط رأسه همدان، ثم انتقل إلى قم فواصل دراسته عند آية الله البروجردي والإمام الخميني والعلامة الطباطبائي وآية الله محقق داماد. ودرس تزامناً مع تحصيله الحوزوي في الجامعة أيضاً فحاز على شهادة الدكتوراه في الإلهيات من جامعة طهران. ولقد كان ناشطاً في الكفاح ضد النظام البهلوي الطاغوتي، ولذلك دوماً ماكان خاضعاً لمراقبة الأجهزة التجسسية الشاهنشاهية، حتى ألقي عليه القبض وزُجّ في السجن. بعد انتصار الثورة كان من العناصر النشيطة أيضاً حيث تولى عضوية شورى الثورة والإشراف على كلية الإلهيات بجامعة طهران. وأخيراً استشهد على يد زمرة فرقان الإرهابية في عام 1979 م.

124. همدان، إحدى المدن الكبيرة في المنطقة الغربية الجبلية من إيران ومركز محافظة همدان. وهي أقدم مدينة وأول عاصمة في إيران، ومن أقدم المدن في العالم.

125. أراك، من مدن إيران الكبيرة ومركز المحافظة المركزية. تعد واحدة من الأقطاب الصناعية الأربعة الكبيرة في البلاد.

126. **مازندران،** محافظة شمالية في إيران تحاذي بحر قزوين، ومن المناطق الزراعية والسياحية الواسعة في البلاد.

127 **ساري،** مركز محافظة مازندران في شمال إيران، والمحافظة مطلة على الضفاف الجنوبية لبحر قزوين.

128. **قائم شهر،** من مدن محافظة مازندران في شمال إيران ومحاذية لبحر قزوين.

129. **اللجنة المشتركة لمكافحة التخريب،** في عام 1971م وتنفيذاً لأوامر محمد رضا شاه بهلوي، تم تشكيل «اللجنة المشتركة بين السافاك والشرطة لمكافحة التخريب» في السجن المؤقت التابع لاستخبارات الشرطة. وجاء تشكيل هذه اللجنة للتنسيق بين كل المؤسسات والأجهزة ذات الدور في توفير الأمن المنشود لدى حكومة الشاه. وقد وصلت حالات تعذيب المعارضين والمناضلين السياسيين إلى ذروتها بعد تشكيل هذه اللجنة. الجزء الأكبر من أدوات وآلات التعذيب في هذه اللجنة كان يُوفَّر من قِبَل الموساد والسي آي أي. وكان معتقل اللجنة المشتركة أهم مكان لاعتقال الثوار وتعذيبهم واستخلاص المعلومات منهم. تفيد وثائق السافاك بأنه طوال الفترة المحصورة ما بين 1971 و1979م تم اعتقال واحتجاز آلاف المناضلين والثوريين في إطار عمليات اللجنة المشتركة. وقد أوفد عدد من المحققين والمستجوبين إلى إسرائيل وأمريكا لتلقي التعليم والتدريب.

130. **أحمد أحمدي، (1946 - 1975م)** ولد في طهران، وتعرّف على منظمة مجاهدي خلق فانخرط في صفوفها ممارساً النشاط النضالي ضد الطاغية البهلوي. في صيف سنة 1975م ألقي عليه القبض، خلال سفره إلى مشهد، في المطار ونقل إلى سجن السافاك الخاص في طهران. وفي هذا السجن رافق الإمام الخامنئي لفترة قصيرة في زنزانة واحدة. خلافاً لبعض أعضاء المنظمة المذكورة، حافظ على معتقداته الإسلامية إلى حين استشهاده على يد السافاك في تلك الفترة.

131. **الميرزا محمد علي شاه آبادي، (1949 - 1872م)** أحد علماء الدين الكبار المعاصرين، تلقّى علوم المنقول والمعقول في طهران عند الميرزا حسن

آشتياني والميرزا أبو الحسن جلوه، وأخذ العرفان على يد عددٍ من الأساتذة، ثم توجّه إلى النجف الأشرف للانتهال من علمائها الكبار، فتتلمذ على يد الآخوند الخراساني والميرزا محمد تقي الشيرازي. وبعد عودته إلى إيران أقام في قم وزاول فيها تدريس العلوم الدينية، ودرَّس العرفان بطلبٍ من بعض الأشخاص بما فيهم الإمام الخميني. أمضى السنوات الأخيرة من عمره المبارك في تربية النفوس. واشتهر بالعلم والعرفان والتقوى، وله إرشاداته ومواقفه حيال أحداث زمانه واتجاهات النظام البهلوي المناهضة للدين والمنبهرة بالأجنبي، بما في ذلك اعتصامه لخمسة عشر شهراً في مرقد السيد عبد العظيم الحسني بطهران اعتراضاً على سياسات رضا شاه بهلوي. استشهد نجله، الذي كان من رجال الدين الثوريين، في الحرب المفروضة على إيران.

132. جماعة أبي ذر (نهاوند)، تم تأسيس هذه الجماعة في تشرين الثاني سنة 1972م في مدينة نهاوند. وكان أعضاؤها من الشباب وطلاب الثانوية المتأثرين بالجمعيات والفئات الدينية والسياسية في نهاوند. توصّل أعضاء هذه الجماعة إلى نتيجة فحواها أنهم ما لم يخوضوا مرحلة الكفاح المسلح ضد النظام البهلوي لن يتمكّنوا من قطع خطوة مؤثرة في مواجهة هذا النظام.

133. أحمد سوكارنو، (1970 - 1901) من مؤسسي جمهورية أندونيسيا وأول رئيس جمهورية فيها. من أهم إنجازاته المشاركة في تأسيس حركة عدم الانحياز.

134. مؤتمر باندونغ، والذي يسمّى أيضاً مؤتمر أفريقيا وآسيا، عُقد في سنة 1955 بمشاركة 29 دولة في مدينة باندونغ بأندونيسيا. وكانت معظم الدول المشاركة في المؤتمر دولاً حديثة الاستقلال عن المستعمرين الأوروبيين. ومن أهداف المؤتمر التقدم بالتعاون الاقتصادي والثقافي بين آسيا وأفريقيا ومناهضة الاستعمار والاستعمار الحديث الذي كانت تمارسه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

135. سجن إيفن، أهم السجون المتبقية من عهد الحكم البهلوي وأكثرها تجهيزاً. وقد تم بناؤه بتصميم أجنبي. يقع في مكان بنفس الاسم في شمال طهران وفي منطقة شميران.

136. عبد العظيم الحسني (173 - 252 هـ)، من السادة الحسنية، وكان راوياً وفقيهاً شيعياً، يرتفع نسبه إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بأربعة وسائط. جمع المحدث الكبير الشيخ الصدوق رواياته تحت عنوان جامع أخبار عبد العظيم. كان السيد عبد العظيم الحسني معاصراً للإمام الرضا والإمام الجواد والإمام الهادي عليهم السلام. وله منزلة وشأن عظيم في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، ومرقده مزار كبير في جنوب طهران.

137. ري، وهي اليوم من محلات جنوب طهران. كانت في الماضي عاصمة الحكومات ومن المراكز السياسية في إيران. فيها مرقد السيد عبد العظيم الحسني، وهو من سلالة الحسن المجتبى عليه السلام، ولذلك فقد حظيت دوماً باهتمام الشيعة، وتعتبرمن المراكز الدينية.

138. محافظة گيلان، تقع محافظة گيلان في شمال إيران وعلى جنوب وجنوب غرب بحر قزوين، وكانت تعرف قديماً بمنطقة الديلم. وهي من المناطق الزراعية في إيران ومركزها مدينة رشت.

139. السيد عبد الكريم هاشمي نژاد (1932 - 1981م)، ولد في مدينة بهشهر بمحافظة مازندران. ودرس العلوم الدينية في قم على يد آية الله البروجردي والإمام الخميني. وانتقل بعد وفاة السيد البروجردي إلى مشهد وزاول فيها نشاطه الإعلامي والتبليغي. ومن أهم الكتب التي تركها كتاب «مناظرة الدكتور والشيخ» الذي ينقد فيه الفكر المادي، و«الدرس الذي علّمه الحسين عليه السلام للبشرية». شكّل قبل انتصار الثورة الإسلامية مع الإمام الخامنئي وآية الله واعظ طبسي والشيخ محمد رضا محامي جماعة لها نشاطاتها الكفاحية المنسقة والمشتركة، ولذلك ألقي عليه القبض من قبل أجهزة نظام الشاه وأودع السجن. عُرف بين المناضلين وفي أوساط المجتمع بخطاباته الغرّاء ونظرته البصيرة خلال فترة الكفاح وما بعد الثورة. وتعاون بعد انتصار الثورة في خراسان مع الحزب الجمهوري الإسلامي وشارك في تدوين دستور الجمهورية الإسلامية. وكان في مشهد محوراً للتحركات الثورية ومنادياً بنهج الإمام الخميني، ولهذا استشهد على يد المنافقين في تشرين الأول 1981م في المكتب المركزي للحزب.

140. صادق خلخالي، (1926 - 2003م) درس الفقه والأصول في قم عند آية الله البروجردي وحجت والإمام الخميني. ألقي عليه القبض مراراً ونفي في سياق العمل الكفاحي ضد النظام البهلوي. تولى بعد الثورة مهمة حاكم شرع محكمة الثورة الإسلامية، والإشراف على لجنة مكافحة المخدرات، ونيابة مجلس الشورى الإسلامي لثلاث دورات، ونيابة مجلس خبراء القيادة.

141. إيرانشهر، إحدى مدن محافظة سيستان وبلوشستان في جنوب شرقي إيران، والتي تقع في مركز هذه المحافظة وفي إقليم صحراوي، وتشهد حرارة عالية أيام الصيف.

142. النوروز، هو اليوم الأول من الربيع بحسب السنة الشمسية لدى الإيرانيين وبعض الشعوب التي تحتفل بهذا اليوم. وهو يعتبر بداية السنة الهجرية الشمسية الإيرانية. وهنالك في الروايات الإسلامية أيضاً احتفاء بهذا اليوم.

143. چابهار، من مدن محافظة سيستان وبلوشستان في جنوب شرقي إيران، وهي الميناء الإيراني الوحيد على المحيط. تقع على سواحل بحر مكران والمحيط الهندي. من الناحية الطبيعية تعد من المعالم السياحية في إيران وهي اليوم آخذة بالتطور والنمو في الجانب الاقتصادي حيث يراد لها أن تتحول إلى أحد الموانئ الكبرى في منطقة جنوب آسيا.

144. ناصر مكارم شيرازي، (مواليد 1926م) ولد في شيراز وتوجّه إلى قم بعد إنهائه المراحل التمهيدية. كما ودرس فترة من الزمن في النجف الأشرف أيضاً. تلقى تعليمه في قم لدى أساتذة من أمثال آية الله البروجردي وآية الله المحقق الداماد وآية الله حجت، وأضحى من مدرّسي الحوزة العلمية. خلّف قبل الثورة الكثير من المحاضرات والآثار التي كانت تهدف إلى الدفاع عن الدين أمام هجمات الأفكار المنحرفة والإلحادية. وأهم مؤلفاته في تلك الحقبة «التفسير الأمثل». ألقي عليه القبض واحتجز بعد انتفاضة الخامس من أيار سنة 1963 م. وكان من أعضاء جماعة المدرسين في حوزة قم العلمية، كما وكانت له نشاطاته في الحوزة لصالح نهضة الإمام الخميني. إثر انتفاضة أهالي قم في خريف 1977م حكم عليه بالإقامة الجبرية في منطقة

جابهار لمدة ثلاثة أعوام، ونقل بعد مدة إلى مهاباد ثم إلى مرودشت. بعد انتصار الثورة دخل كعضو في مجلس خبراء تدوين الدستور. ثم عكف على تدريس الفقه وتربية طلبة العلوم الدينية وتأليف الآثار العلمية الملائمة مع متطلبات العصر، وتولى لفترة رئاسة المجلس الأعلى للحوزة العلمية في قم. طُرح منذ عام 1994م من قبل جماعة المدرسين في الحوزة كأحد مراجع الدين الشيعة. وهو لا زال يزاول نشاطاته العلمية وتربية الطلبة وتأليف الآثار والمشاركة في مختلف الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية.

145. سنندج، مركز محافظة كردستان في شمال غرب إيران، وهي منطقة جبلية ذات محاصيل زراعية وافرة. رغم قرب سنندج من المناطق الحدودية الغربية إلا أن نظام البعث العراقي لم يتمكّن طوال الحرب من التطاول عليها. وقد فشلت فيها كل مخططات الجماعات المعادية للثورة أيضاً.

146. أسبوع الوحدة، الأيام الفاصلة ما بين تأريخ ولادة الرسول الأكرم ﷺ بحسب رواية أهل السنة وبعض علماء الشيعة، وهو 12 ربيع الأول، وتأريخ ولادته ﷺ بحسب رواية الشيعة وهو 17 ربيع الأول، أُعلنت في سنة 1981م وبموافقة الإمام الخميني كأسبوع للوحدة الإسلامية. وكانت الغاية من هذه البادرة، التي لاقت ترحيباً من قِبَل كبار شخصيات العالم الإسلامي، تعزيز الوحدة الإسلامية والتقارب بين الشعوب والشخصيات الإسلامية.

147. البلوش هي واحدة من القوميات الإيرانية التي تعيش في منطقة واسعة زاخرة بالمواهب بنفس هذه الاسم في جنوب شرقي إيران. تعرّض أهالي هذه القومية خلال الحكومات الملكية دوماً للجور والجفاء، ولكن بعد انتصار الثورة الإسلامية وفي المرحلة التنفيذية للنظام الإسلامي بعث الإمام الخميني آية الله السيد علي الخامنئي في أولى مهامه إلى تلك المناطق لمتابعة أوضاع الأهالي الموهوبين هناك، وقُطعت خطوات شاسعة في عهد الجمهورية الإسلامية لتطوير منطقة بلوشستان.

148. فردوس، مدينة في شرق إيران في محافظة خراسان الجنوبية. وقع فيها في الأول من أيلول 1968م زلزال هدم الجزء الرئيسي منها وبعض القرى المحيطة بها.

149. جيرفت، من مدن محافظة كرمان وذات سابقة تأريخية تمتد لعدة آلاف سنة.
150. صادق إسلامي، (1932 - 1981م) من المناضلين ضد الحكم البهلوي وأحد مؤسسي هيئات المؤتلفة الإسلامية. ألقي عليه القبض وسُجن لعدة مرات خلال فترة الكفاح. وبعد انتصار الثورة الإسلامية أصبح عضو الشورى المركزية في الحزب الجمهوري الإسلامي وعمل في وزارة التجارة. استشهد سنة 1981م في حادثة تفجير مكتب الحزب الجمهوري الإسلامي بطهران.
151. أحمد قديريان، (1934 - 2012م) أحد أعضاء هيئات المؤتلفة الإسلامية ومن الناشطين في الكفاح ضد النظام البهلوي. كان يدعم العمل الكفاحي مالياً بفضل تمكّنه المالي. بعد انتصار الثورة مارس التجارة في سوق أراك. وعمل لسنوات طوال حتى حين وفاته في مكتب قائد الثورة الإسلامية، وأثبت إخلاصه وثباته على طريق الجمهورية الإسلامية في ظروف مختلفة.
152. تفجير مكتب الحزب الجمهوري الإسلامي في إيران (7 تير)، في السابع من شهر تير سنة 1360 هـ.ش (الموافق 28 حزيران 1981م) تم تفجير مكتب الحزب الجمهوري الإسلامي في طهران بعملية إرهابية نفّذتها منظمة المنافقين. واستشهد في هذه الحادثة آية الله بهشتي، وهو أحد أبرز أنصار الإمام الخميني، وعدد من شخصيات الثورة ورئيس الديوان العالي في البلاد، وبلغ عدد الشهداء أكثر من سبعين شهيداً من كبار الشخصيات السياسية البارزة في إيران، بما فيهم أربعة وزراء و27 نائباً في مجلس الشورى الإسلامي وعدد من أعضاء الحزب الجمهوري الإسلامي.
153. شيراز، من مدن إيران الكبيرة وهي مركز محافظة فارس، وكانت في القرون الماضية عاصمة لإيران. تعد من المراكز الدينية في هذا البلد لوجود مرقد السيد أحمد بن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام فيها. كما وتعتبر من المراكز السياحية المهمة في إيران.
154. بم، من مدن محافظة كرمان في جنوب شرقي إيران، وأحد المراكز التأريخية ومحور إنتاج التمور في شرق البلاد.
155. انتفاضة 19 دي في قم (9 كانون الثاني 1978م)، إثر انتشار مقالٍ في

صحيفة «اطلاعات» تحت عنوان «إيران والاستعمار الأحمر والأسود»، والذي أساء لمراجع الشيعة ولا سيما الإمام الخميني، خرج أهالي قم في تظاهرات احتجاجية واجهت قمعاً شديداً من قِبَل النظام البهلوي. وعرفت حركتهم الاحتجاجية هذه بانتفاضة 19 دي. تعتبر هذه الانتفاضة بداية احتجاجات وتظاهرات متسلسلة أدت إلى انتصار الثورة الإسلامية في إيران في شباط 1979 م، ويُعبَّر عنها بشرارة الثورة في إيران.

156. انتفاضة 29 بهمن في تبريز (18 شباط 1978م)، في يوم 29 بهمن 1356 هـ.ش المصادف لأربعينية فاجعة 19 دي في قم، أقيمت في العديد من مدن ومناطق إيران مجالس تأبين وعزاء إحياء لذكرى شهداء تلك الفاجعة. وفي تبريز تجمّع الناس رجالاً ونساءً وشيباً وشباناً لإحياء أربعينية شهداء قم، فواجه اجتماعهم هذا ردود فعل القوات التابعة للنظام البهلوي، حيث ارتكبت هذه القوات جريمة أخرى ضد أهالي تبريز، وتلطّخت الشوارع، عبر تدخّل الوحدات العسكرية، بدماء الشباب والتجار والطلبة الجامعيين والرجال والنساء، وهكذا أضاف النظام البهلوي جريمة أخرى لجرائمه بعد ما ارتكبه من فاجعة في قم قبل أربعين يوماً.

157. انتفاضة 10 من فروردين في يزد (30 آذار 1979م)، في ربيع 1979، وفي ذكرى أربعينية شهداء تبريز، أعلن الإمام الخميني ومراجع الشيعة حرمة الاحتفال بعيد النوروز، فلبّى الناس في إيران هذا النداء تكريماً لشهداء قم وتبريز واعتراضاً على مقتل المجاهدين الفلسطينيين وهجوم الكيان الصهيوني على جنوب لبنان وقتل المسلمين. وقد واجهت المراسم التي أقامها أهالي مدينة يزد لشهداء تبريز مواجهة عنيفة من قِبَل قوات النظام البهلوي.

158. السيد عبد الحسين دستغيب الشيرازي، (1913 - 1981م) درس مقدمات العلوم الدينية في شيراز، وتوجّه إلى النجف الأشرف فحاز درجة الاجتهاد وعاد ثانية إلى شيراز وعمل في إرشاد الناس كرجل دين بصير وأستاذ أخلاق، وألّف العديد من الكتب في المجال الديني. كان له دور فاعل في كفاح الثورة الإسلامية حتى ألقي القبض عليه من قِبَل أجهزة النظام البهلوي. تولى بعد

الثورة إمامة الجمعة في شيراز وجيرفت. وفي خريف عام 1981م استشهد في هجوم إرهابي على يد أحد عناصر المنافقين بعد أدائه صلاة الجمعة.

159. الجمعة السوداء في طهران (8 أيلول 1978م)، تجمّع أهالي طهران الثائرين اعتراضاً على النظام البهلوي في يوم الجمعة 17 شهريور 1357 في ساحة جاله وسط العاصمة، ونظام الشاه الذي كان يعيش آخر أيام حياته، فزع من تحركات الشعب بشدة، وعلى هذا عمد في ذلك اليوم، وبتخطيط مسبق، إلى الهجوم على الجماهير وإطلاق النار عليهم بالأسلحة الخفيفة والثقيلة من الأرض والجو، فتضرّج عدد كبير من أبناء الشعب الثائر رجالاً ونساء وشيباً وشباناً وأطفالاً بدمائهم. وعُرفت هذه الواقعة باسم الجمعة السوداء، وسرّعت من وتيرة انهيار النظام البهلوي، هذا وقد سُمّيت ساحة جاله اليوم بساحة الشهداء.

160. جمشيد آموزگار، (1923 - 2016م)، توجّه إلى أمريكا للدراسة خلال فترة الحرب العالمية الثانية وعاد إلى إيران سنة 1951 م. ومنذ عام 1957م عندما تزايدت ضغوط أمريكا لتسليم مناصب البلاد إلى خريجي أمريكا، عُيّن آموزكار وزيراً في الحكومة، وتولّى في سنة 1976م الأمانة العامة لحزب رستاخيز الحكومي. تسلّم في صيف 1977 رئاسة وزراء إيران، لكنه استقال بعد سنة، وفي الشتاء اللاحق، وبعد عشرين عاماً من خدمة نظام الطاغية، بينما كانت قد هبّت تيارات الشعب الهائلة ضد النظام البهلوي ولم يبق على سقوطه سوى القليل، شدّ رحاله إلى أمريكا.

161. جعفر شريف إمامي، (1912 - 1999م)، جعفر شريف إمامي من خريجي أوروبا. وكان من الماسونيين المعروفين في إيران. تولّى طوال سنوات حكم محمد رضا بهلوي مناصب عديدة منها 15 سنة رئاسة مجلس الشيوخ. بعد تنحّي جمشيد آموزكار عن رئاسة الوزراء في صيف 1978 م، كُلّف شريف إمامي من قبل الشاه بتشكيل الوزارة لإحياء النظام البهلوي المتهالك ولتهدئة الأوضاع المتأزمة الناجمة عن سنين طويلة من الظلم ومناهضة الدين، وذلك تحت شعار «حكومة المصالحة الوطنية» وبكامل الصلاحيات. بادر شريف إمامي إلى قطع خطوات استعراضية ظاهرية في سبيل استرضاء الناس والثوار، ولكن مع اتساع

رقعة الاحتجاجات والمظاهرات، أعلن الأحكام العرفية في طهران و11 مدينة أخرى بعد أسبوعين من توليه رئاسة الوزراء. وصمة العار السوداء الأكبر في ملفه مذبحة الناس العزل بالسلاح الحار على يد أزلام النظام في يوم 8 أيلول 1978 م. استقال من منصبه في 5 تشرين الثاني 1978 م.

162. عباس پور محمدی، (1924 - 2016م) ولد في رفسنجان، وأمضى دراسة العلوم الدينية في قم، وكان من تلامذة الإمام الخميني. بعد عودته إلى رفسنجان بدأ بنشاطات واسعة في الكفاح ضد النظام البهلوي والترويج لشخصية الإمام الخميني ودعم المناضلين. تعرّف على الإمام الخامنئي في سياق إغاثة المتضررين بزلزال فردوس - محافظة خراسان - في سنة 1968 م، وأفضى هذا التعارف إلى علاقات ثورية وكفاحية. بقي بورمحمدی بعد انتصار الثورة عالماً شعبياً نشيطاً في التبليغ لمعارف الدين إلى آخر حياته.

الصــور

جدي لأمي السيد هاشم الميردامادي النجف آبادي، وكان عامًا معروفًا بعلمه وزهده وتبحره في تفسير القرآن.

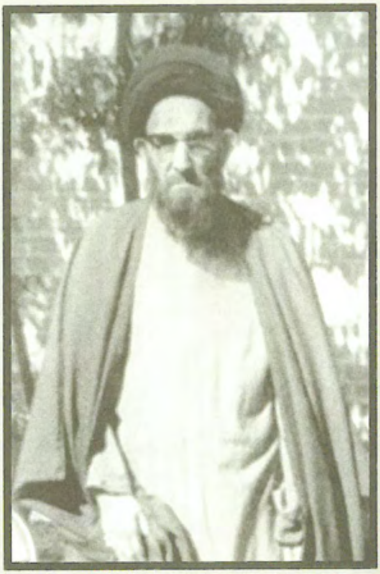

كان والدي إمام مسجد في وسط السوق، حيث الكسبة والتجار وأصحاب المال؛ لكنه كان متعففًا عن النظر إلى ما في أيدي الناس.

تعمَّمتُ في صباي حين كنت
في السنة الثانية من الابتدائية.
ويعود سبب هذا التعمّم
المبكر إلى أن العادة جرت بين
الناس آنئذ على تغطية الرأس،
والوالد كان يرفض طبعًا أن
نرتدي القبعة البهلوية، فلا بدّ
إذًا من العمامة.

كنت في المدرسة بارزًا في تجويد
القرآن الكريم بصوت جميل، وكنت
أتلو القرآن في حفلات المدرسة،
وعند استقبال الشخصيات الزائرة.

انتقلت من مدرسة السليمانية إلى مدرسة نواب، وفي هذه المرحلة تفجّرت في نفسي الكفاءات والطاقات، وشعرت بنَهَم لتلقي الدروس، وبقدرة فائقة على استيعابها.

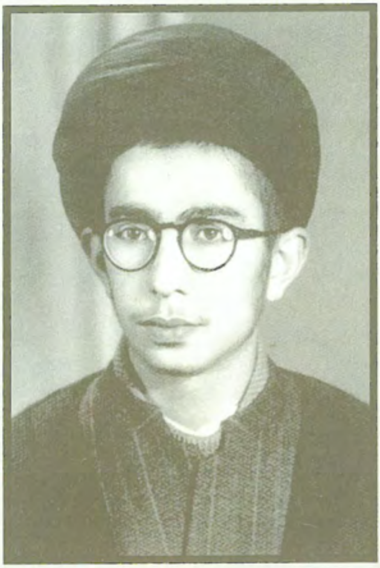

لقد شاهدت من الفقر في بيت والدي ما قلّ أن يشاهد مثله عادة في بيوت العلماء. والوالد لم يكن يذكر حالة فقره وفاقته لأحد قط؛ بل بالعكس كان يحسبه الناس غنيًّا من التعفّف والاهتمام بالمظهر.

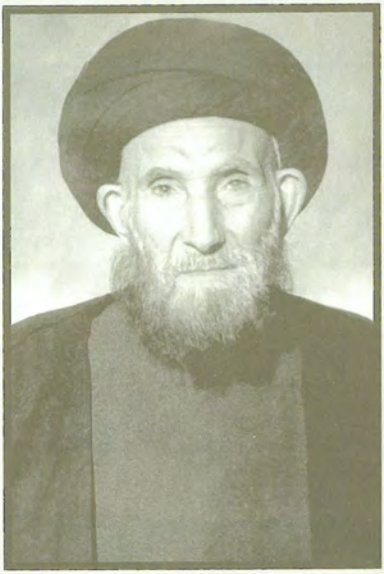

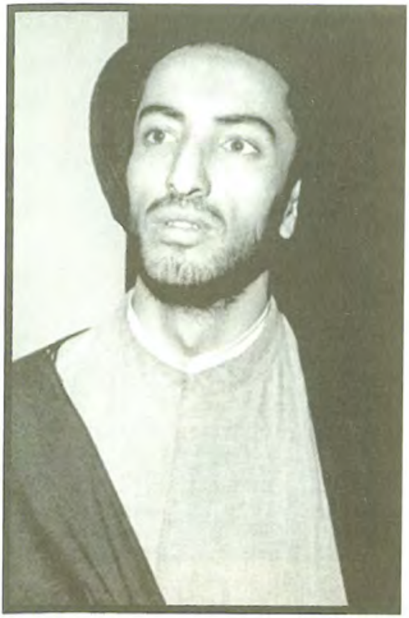

كان المرحوم الشهيد نواب صفوي الشرارة الأولى التي أضاءت أمامي طريق الإسلام بمعناه الحركي الشامل.

ولا يزال صوت نواب يدوّي في أذني؛ إذ كان يقرأ: «يا ابن آدم! وفّر الزاد فإنّ الطريق بعيد بعيد.. وجدّد السفينةَ فإنّ البحرَ عميق عميق».

خلال الأعوام الستة من دراستي في حوزة مشهد، لعلّي قرأت كل روايات ميشيل زيفاكو وتبلغ عشرًا، وقرأت روايات ألكساندر دوما الأب والابن، كما طالعت جميع الروايات الإيرانية أو أكثرها.

كنت في سفري إلى العراق أبذل الجهد كي أتكلم باللغة العربية فقط. لكني كنت أواجه أحيانًا مشكلة الفرق بين الفصحى والعامية.

ولقد وجدت ضالتي فيما وجدت في شعر الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري. وهو يتمتع بالأصالة في التعبير العربي، ويمتاز أيضًا بتفاعل شعره مع آلام الجماهير وآمالها.

◄

لقد ازداد إعجابي بالجواهري حينما حدّثني صديقي الأديب اللبناني الفاضل المرحوم السيد محمد جواد فضل الله عن ثورية هذا الشاعر ومواقفه الصلبة.

◄

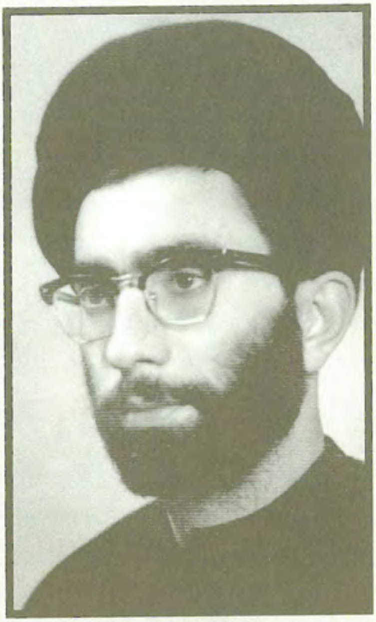

ترجمت كتاب «المستقبل لهذا الدين» لسيد قطب. وأثار هذا الكتاب في ذهني موضوعات كثيرة للتفكير والبحث أضفتها إلى الكتاب. وكانت هذه الإضافات سببًا لمزيد من الإثارة لجهاز السافاك.

كان الإمام الخميني أستاذًا جادًا، زيّه مرتب وفي غاية النظافة، يدخل قاعة الدرس وهو مطأطئ الرأس، يلقي درسه بجدٍّ، ويجيب عن أسئلة الطلاب ومناقشاتهم بمنتهى الاهتمام، وكان محبوبًا جدًّا بين الطلبة من تلامذته وغيرهم.

▲ وفي هذا الجوّ المشحون بالسخط على السلطة، أُعلن أنّ الإمام سيرتقي المنبر يوم العاشر من محرم. انشدّت القلوب إلى قم لترى ما سيقوله الإمام. وفي اليوم الموعود ألقى الإمام كلمته التاريخية العجيبة...

كان الناس يفدون إلى بيت الإمام، وبيوت سائر مراجع الدين مثل بيت الگلپايگاني والمرعشي النجفي وشريعتمداري، لكن الإمام كان المحور، والآخرون كانوا ظلًّا له وسائرين في ركبه. ▼

في بداية شهر محرم توجّهت إلى مدينة بيرجند لأقوم بمهمّة فضح السلطة وفق خطة الإمام الخميني.

اخترت مدينة بيرجند لأنّها كانت قلعةَ «أمير أسد الله عَلَمْ» الذي كان يشغل يومئذ منصب وزير البلاط في الظاهر، بينما كان في الواقع أكبر من هذا المنصب بكثير.

السيد الميلاني كان من كبار العلماء في إيران، وكان يحبّني كثيرًا، ويلطف بي كثيرًا، وكان يعرف أنّ هدفي من السفر إلى زاهدان هو أداء مهمة جهادية.

سألتُ عن بيت الشيخ الكفعمي وتوجّهت إليه. طرقت الباب وإذا بي أواجه لأول مرة شيخًا مهيبًا في الخمسين، طويلًا بدينًا ذا لحية طويلة وعمامة بيضاء ناصعة كبيرة...

قلت للضابط: أنت مأمور وأنا مأمور. عليّ أن أؤدّي رسالتي الدينية وأنت تستطيع أن تنفّذ ما أوكل إليك من مهام. أنت لا تملك أكثر من أن تقتلني وأنا أعددت نفسي للقتل. فِبِمَ تخوّفني؟!

◀

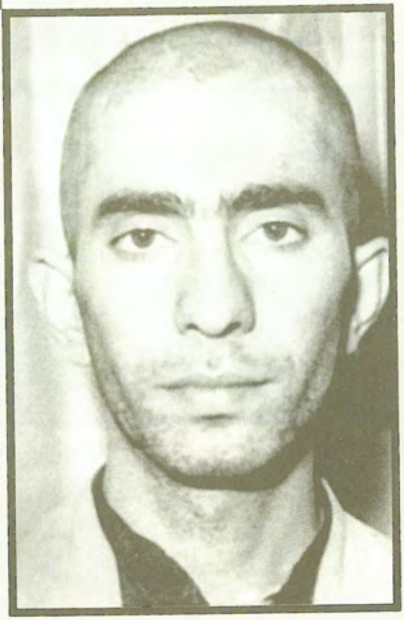

وفي الطريق رآني ضابط معروف بالوقاحة، فناداني من بعيد مستهزئًا: يا شيخ حلقوا لحيتَك؟! أجبته على الفور: لم أرَ ذقني منذ سنين، ولقد رأيته الآن والحمد للّه! وبذلك فوّتُّ عليه فرصة التشفّي.

▶

▲ جاء أحد إخواني وقال لي: السافاكيون دخلوا البيت. أسرعت نحوهم كي لا يدخلوا جناح الضيوف. رأيت والدتي في فناء البيت أمام اثنين من رجال السافاك تجادلهما بشدّة. كانت متلفعة بحجابها، مغطّيةً وجهها، واقفة أمام الرجلين كالأسد.

▲ أردت أن أعرف المكان الذي حللنا فيه، فقلتُ للرجل الذي بقى معي بالتركية: «بورا هارا دي؟» أي: أين هنا؟ نظر يمنةً ويسرةً نظرة وَجَلٍ وتحرّزٍ وقال باللهجة التركية: «گيزيل گلعه» وتلفظ بالفارسية: «قزل قلعه».

▲ طرقت الباب، ففتحه المرحوم السيد مصطفى نجل الإمام. اندهش لرؤيتي، وسألني: متى أُطلق سراحك؟! قلت: قبل يومين. دخلت إحدى الغرف وإذا بالسيد الإمام أمامي...

عزمنا -أنا وزوجتي- على زيارة الشيخ هاشمي رفسنجاني، ولم تكن زيارة السجناء السياسيّين بالأمر السهل، غير أنّي بسبب تجاربي في السجون، تمكّنت من زيارته. واجهنا الشيخ وهو يضحك فرحًا من الأسلوب الذي تمكنّا به من زيارته! ◀

رأيت في جانب من الساحة رجلًا طويلًا يتمشّى بوقار وهدوء، ويبدو على ملابسه الترتيب والنظافة ما يوحي بأنه من الشخصيات الهامّة المعتقلة. سألت عنه فعلمت أنّه العميد قرني، وهو من كبار جنرالات جيش الشاه.

من مبنى السافاك نقلت إلى معتقل عسكري يقع في المعسكر، ويجاور مركز الخفارة؛ لأنّ مشهد لم يكن فيها آنئذ سجن خاص بالسياسيين. المعتقل كان مبنى نظيفًا أبيض. كنّا نسميه «القصر الأبيض».

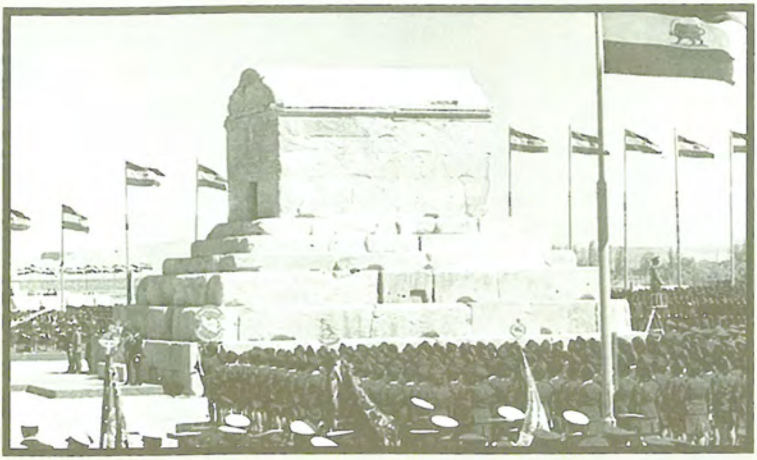

▲ أراد الشاه باحتفالات ما يسمى مرور ٢٥٠٠ عام على قيام الملكية أن يقطع صلة تاريخ إيران بالإسلام، ويضفي على إيران ما قبل الإسلام عظمة وكبرياء وانتفاخًا ليوحي بشكلٍ غير مباشر أنّ الإسلام قضى على مفاخر إيران وعظمتها.

▲ كنت أنا وبعض الرفاق متميزين بالتنظيم، وكان ذلك أمرا جديرًا ومبتكرًا في قم. لقد أنشأنا أول تنظيم في قم بين العلماء، ودوّنّا نظامه الداخلي.

▲ كانت لي ارتباطاتي الاجتماعية الواسعة عن طريق إمامة المسجد. بدأت الصلاة أوّلًا في «مسجد الإمام الحسن» ثم انتقلت إلى «مسجد الكرامة»، وتطور النشاط في هذا المسجد فأثار حساسية الجهاز الحاكم الذي تدخّل ومنع إقامتي للصلاة فيه.

◄ أخذ الشيخ رباني الأملشي ينظر إليّ بدهشة واستغراب وقال: ماذا تقول؟ قلت: نعم، أثاثنا كله هو ما وجدته الآن في البيت. ساد الوجوم على الرجل وهزّ رأسه في دهشة يكتنفها الأسف على عتابه وقال كلمة مشفقة لا أزال أتذكرها.

كنتُ أتمشى يومًا في شارع
قرب جامعة طهران إذ
قابلت فجأة الشيخ هاشمي
الرفسنجاني. قال لي: كيف
تمشي في الشارع بهذا
الشكل ولا تستتر؟! قلت:
علام أستتر؟ قال: أنت
مُطارَد، وانكشفت مجموعة
الأحدَ عشر.

بدأ قدوسي بالكلام وشرح
لنا ما جرى بينه وبين محقّق
السافاك، وقال: إنهم خلال
الاعتقال المؤقت أروني
قائمة بأسماء المجموعة
الأحد عشر. ثم التفت إليّ
وقال: لقد كان اسمك في
بداية القائمة!

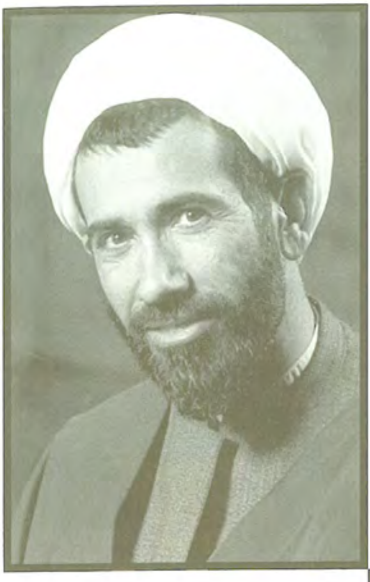

اقترح أحدنا أن نلوذ ببيت «الدكتور باهنر». ذهبنا إلى بيته فوجدناه وحده وزوجته قد غادرت البيت. طلبنا منه أن يخرج من البيت ويتركنا وحدنا! فتقبل الأمر بصدر رحب ودلّنا على مكان الشاي وخرج.

◄

كان بيني وبين زنزانة «رجائي» زنزانة واحدة. كنت أخاطب الزنزانة المجاورة بالمورس فيذهب النداء إلى زنزانة رجائي ويأتي الجواب.

►

من حانوت بيع السراويل اتّصلت ببيت الدكتور بهشتي. كان لا يصدق... هذا أنت؟ خرجت؟ كيف أطلق سراحك؟ ثم قال: أنتظرك بشوق...

◄

ذهبتُ إلى يزد فرأيتُ الشيخ صدوقي قائدًا للمدينة بكل ما لكلمة القيادة من معنى. يحدد للناس موقفهم ويعيّن واجبهم في كل الأمور النضالية. يعيش ساحة الثورة بكلّ جرأة، ويخوض المعركة مع النظام كالأسد الهصور لا يخاف شيئًا ولا يهاب أحدًا.

►

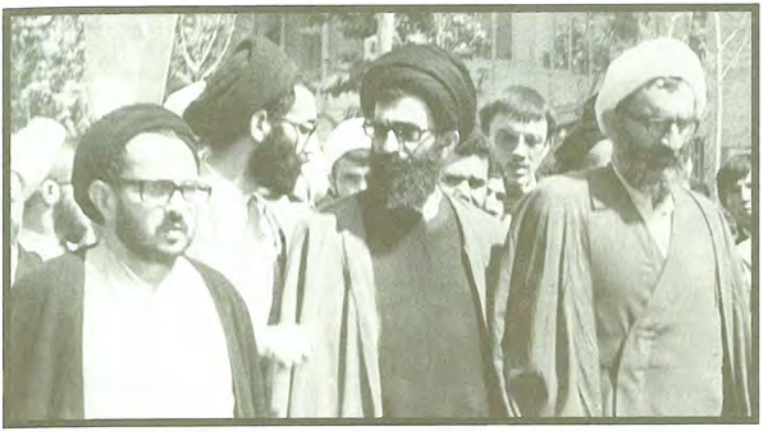

بعد وصول نبإ وفاة السيد مصطفى خططنا لاتخاذ الموقف اللازم. ذهبت إلى دائرة البريد والبرق فكتبت أربع برقيات واحدة باسمي والأخرى باسم الشيخ الطبسي وثالثة باسم الشيخ المحامي والرابعة باسم السيد هاشمي نژاد.

كانوا يجبروننا على تسطيح الممرّات داخل المعسكر، وبَعد انتصار الثورة، زرت المعسكر نفسه، وألقيت فيه كلمة قلت ضمنها للعسكريين: أنا اشتركت في تسطيح أكثر ممرّات هذا المعسكر.

▲ أذكر أن الإذاعة كانت تبثّ برقية «ياسر عرفات» إلى مؤتمر القمة العربي. كنت أكتب نصّ البرقية من خلال تكرار المذيع لها. لا أزال أتذكر بعض عباراتها لشدة وقعها في نفسي. وحين قدم ياسر عرفات إلى طهران سنة 1980م ذكرت له بعض عباراتها، من ذلك عبارة: «بحر من الدم.. وعشرون ألفًا بين قتيل وجريح..»

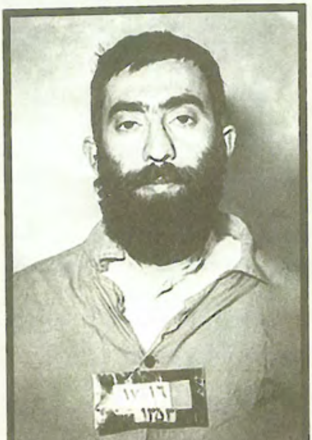

نظرت إلى أطرافي في الغرفة، وعادت بي الذاكرة إلى السجون السابقة، فوجدتني قد اعتدت على جوّ السجن وألِفتُهُ. وما كنتُ أعرف حتى تلك الساعة الفرقَ بين هذا السجن والسجون السابقة.

◄

استيقظتُ من المنام، وكل تفاصيل الرؤيا في ذهني، كما هي في ذهني حتى الآن. قصصت رؤياي على كثير من الأهل والأصدقاء منهم أمّي التى سارعت إلى تفسير الحُلُم بالقول: نعم، تصير يوسف، بمعنى أنّك دائمًا في السجون!

◀

▲ ضجيج المعذَّبين كان يقرع آذاننا في النهار، ويمتد في بعض الليالي حتى الصباح. وكانت طريقتهم في التعذيب مدروسة فيها تفنّن. وكل شيء في هذا السجن كان يستهدف تحطيم شخصية الفرد كي ينهار نفسيًّا. (مشهد تمثيلي في متحف العبرة في طهران)

تواصلت الأيام عليّ في الزنزانة، وهي أيام ثقيلة جدًّا لا يفهمها إلّا من عاناها. الأشهر الثمانية التي أمضيتها في زنزانة هذا السجن تعادل ثماني سنين في السجن العام. (مشهد تمثيلي في متحف العبرة في طهران)

في أول أشهر الربيع جاءت العائلة لزيارتي. وما كان بإمكان الأسرة أن تبقى معي، فحرارة الجوّ ترتفع منذ أوائل الصيف ارتفاعًا شديدًا، والبيت لا تتوفر فيه وسائل التبريد، وفي الأسرة أطفال صغار. ولذلك عادوا إلى مشهد بعد أن أمضوا في المدينة أسبوعين.

▲ الشيخ راشد يزدي معروف بأنّه لطيف المعشر، حاضر النكتة، فَكِهٌ، لا تفارق الابتسامة شفتيه، والطرافةُ لسانه على ما يحمله من علم وأدب.

▲ حلّ شهر رمضان وحلّت معه فرصة الارتباط بالناس أكثر من بقية الشهور. وكان رئيس الشرطة مستاءً جدًّا من هذه الشعبية، ولا يدري كيف يتصرّف تجاهنا نحن المبعدين في المدينة.

كان لباسي البلوشي يتناسب مع سحنات وجهي ولحيتي، وكان ارتداؤه في تلك الظروف أفضل من ارتداء لباس علماء الدين بسبب الحظر على خروجي من إيرانشهر. ▲

شعرت بحزن شديد حين رأيت الطفل الميت في كارثة السيل، وأجهشت بالبكاء بشدّة. فهمت العائلة البلوشية بكائي وتألمي، وقال لي راشد: إنّهم اندهشوا حين رأوك متألّما أكثر منهم. وانتشر خبر بكائي بين البلوش. ▲

▲

قلت لهم: عندي سيارة، ولا بدّ من أن أذهب بسيارتي. قالوا: هذا غير ممكن. قلت: إذًا أمتنع عن الذهاب وافعلوا ما شئتم. وما كان أمام رئيس الشرطة إلّا أن يوافق.

◄

وفي ليلة جاء رئيس الشرطة وقال لي: أنت مطلق السراح. لم أُبدِ أي تعجب أو سرور، وتلقّيت الخبر دون اكتراث به. تعجّب كثيرًا من موقفي. ثم قلت له: أريد أن أبقى في جيرفت!

بعد إطلاق سراحي من المنفى
استُدعيت إلى طهران بأمر
الإمام للاشتراك في مجلس
قيادة الثورة الإسلامية. وفي
11شباط/فبراير 1979م
انتصرت الثورة الإسلامية.

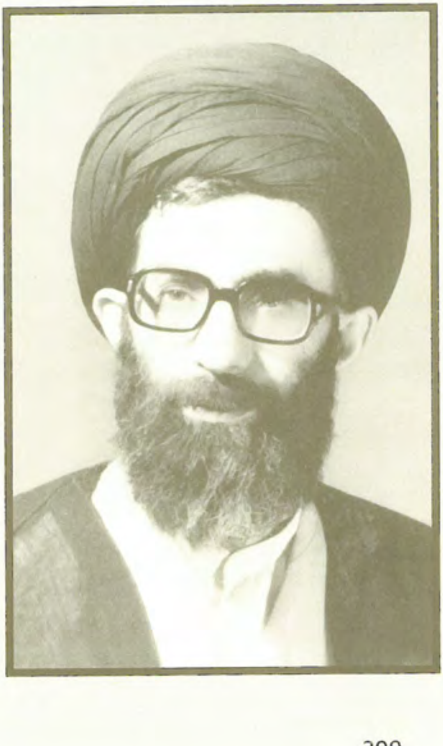

كان بين إطلاق سراحي من
المنفى وانتخابي عضوًا
لمجلس قيادة الثورة
حوالي شهرين، وبين
إطلاق السراح وانتخابي
رئيسًا للجمهورية أقلّ من
ثلاث سنوات.